المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة



ستيفن سالايتا

الحروب الهمجية

العرب والمسلمون، وفقر الفكر الليبرالى

ترجمة

يوسف عبد العزيز

1526



الحروب الهمجية إدانة قوية لخطاب اليسار الأمريكى المهيمن من خلال اثنى عشر مقالاً بارعًا، يعود ستيفن سالايتا مرة بعد المرة إلى موضوعاته الأساسية حول العنصرية المضادة للعرب والإسلاموفوبيا ونقص التفكير النقدى فيما بين "الطبقات الثرثارة"، موضحًا كيف تستمر العنصرية فى الوجود فى الأماكن التى قد نتوقعها فيها.

بالنظر إلى الموضوعات على تنوعها ، مثل "هل جاكاس يمكن تبريره؟"، "الانفتاح العقلى فى يوم الاستقلال، "الطموح، والإرهاب، والتعاطف"، يستكشف "سالايتا" لماذا العرب مهمّشون ، ومن الذى يبحث عن الاستفادة من ذلك . إنه يستمر فى توضيح قضية أن العرب والمسلمين فى حاجة ملحة لأن يُشملوا فى الحوارات التى يقيمها الناس حول الجيوسياسات الأمريكية.

تصميم الغلاف: نادية كشك

الحروب الهمجية

العرب والمسلمون، وفقر الفكر الليبرالى

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1526
- الحروب الهمجية
- ستيفن سالايتا
- يوسف عبد العزيز
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

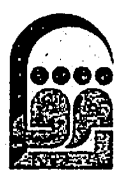
The Uncultured Wars:
Arabs, Muslims, and the Poverty of Liberal Thought
By Steven Salaita
Copyright © Steven Salaita 2008
The Uncultured Wars was first published in English in 2008 by Zed Books Ltd, 7 Cynthia Street, London N1 9JF, UK and Room 400, 175 Fifth Avenue, New York, NY 10010, USA

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

الحروب الهمجية

العرب والمسلمون، وفقر الفكر الليبرالى

تــأليــف: ستيفن سالايتـــا
تــرجمة: يوسف عبد العزيز



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سالاتيا، ستيفن.

الحروب الهمجية : العرب والمسلمون وفقر الفكر الليبرالى/تأليف:

ستيفن سالاتيا، ترجمة: يوسف عبد العزيز

ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠

١٦٨ ص ، ٢٤ سم .

١ - الاستعمار الجديد.

(أ) عبد العزيز، يوسف (مترجم)

(ب) العنوان ٣٢٥,٣

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٥٩٧٧

الترقيم الدولى: 7 - 997 - 479 - 977 - 978

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

شكر

سعدتُ بمجموعة من الأصدقاء، والناصحين المخلصين، (وعادة ما يكونون معًا فى آن واحد)، والذين مكّننى دعمهم من أن أكتب بالطريقة التى أكتب بها الآن، وعن الأمور التى أقوم بدراستها. لقد كُتب هذا الكتاب فى وقت شخصىّ صعب، وكان لن يتم الانتهاء منه لولا أصدقائى وناصحىّ المخلصين، الذين استمروا فى حبى ومساندتى على الرغم من حقيقة أننى لم أكن أرد على الهاتف بالمرة.

عناق مجازىّ قوىّ وحار، بعد ذلك، لهؤلاء الذين كانوا كرماء بحيث لم يبخلوا أبدًا بردود أفعالهم، وهم: "محمد عابد"، الحليف الفكرى والمحلّل الأخلاقى البارع، و"إيفيلين عزيزة السلطانى"، التى تنقذ بمهارة العرب والمسلمين من وَضَاعات الاستعمار الأكاديمى، و"ريما نجّار كابيتان"، الصديقة العزيزة التى منع تفانيها فى العدل تفانىّ أنا من أن يفتر، و"ديبورا ألكامانو"، رفيقة الطريق، والإلهام الغامر، والأخت الكبرى.

وأود أن أشكر أيضًا زملائى الرائعين بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة "فيرجينيا تيك"، خصوصًا "فرجينيا فاولر"، التى كانت قراءتها لهذا الكتاب فى صيغته المخطوطة مفيدة بشكل واضح، وطلابى الذين لم يتخرجوا بعد والذين تخرجوا، الذين زوّدوا حياتى بثراء فكرىّ مستمر. فأنا أقدّر نظراتهم الثاقبة ونقاشاتهم المغايرة المليئة بالحيوية، التى لعبت دورًا مهمًّا فى الأسلوب الذى طوّرت به مادة هذا الكتاب. وكذلك أقدّر المهنيّة العالية لـــ "إلين ماكينليز".

ولا توجد طريقة يمكننى أن أعبّر بها بما يكفى عمّا أودّ أن أقوله لكلّ من "مايكل" و"دانيا"، لذلك سأتركها كالآتى: أنا مدين لكما بكل الكلمات فى هذه الصفحات. والداى، "نصر" و"ميريام"، قد دعّما سعيى واختياراتى المهنيّة دونما كلل، ولهذا السبب ولأشياء أخرى كثيرة، أعبّر لهما عن حبّى.

شيء أخير ومهم جدًا: لا يمكن لأى عمل من أعمالى أن يكتمل دون أن يحظى بتشجيع وبنظرة فاحصة ذكية من "ديانا"، أذكى ناقدة اجتماعية قابلتها حتى الآن.

شكرًا على هذه الطاقة والحيوية، التى هى ثمرة ثانية لتشجيعك.

مقدمة

حروب هذه الأيام وحشيّة ومهلكة و تصل إلى كل مكان. إنها حروب كلامية وعسكرية، سياسية وثقافية، فردية ودولية، محلية وعالمية. إنها دائمًا حروب متناقضة. لكن يوجد بينها شيء مشترك هو أنها جميعًا حروب همجية .

غياب الثقافة، بالطبع، يفسّر فى الخيال الغربىّ على أنه بربريّة. وهذا التفسير ممكن من خلال مفهوم بسيط للثقافة على أنها شيء ما متعلّق بأناس مهذّبين يسافرون ليواجهوا بدلاً من ذلك شيئًا ما معاشًا كواقع مسكوت عنه فى تفاصيل الحياة اليومية.

أن تكون همجيًا هذه الأيام ليس فقط أن تكون غير مهذب. بل أن تكون متورطًا إلى حدّ ما فى الموضوع الرئيسى فى عصرنا، وهو الإرهاب. تحديد هويّة الإرهاب هو نوع من الفعل الذى يغيّر فلسفة التشريع ويؤثّر فى السياسة، ولذلك فهو بالضرورة متحيّز. كما أنه فعل عنصرىّ. العرب والمسلمون قد أصبحوا بطرق معينة مرتبطين بالإرهاب. وبالتالى فنحن بشكل جوهرى همجيّون.

إننى أقبل بكونى همجيّاً. فى المسرحيات الأخلاقية التى توضح أكثر فأكثر فن الخطابة الأمريكى، لا يمكننى أن أهرب من كونى منفيًّا إلى المنطقة المهملة من فترة ما قبل الحداثة. فى صراع الحضارات أنا موجود فى مكان ما هناك. فأنا غريبٌ، أمريكى المولد، أجنبى محلىّ جديد. أنا أحب كونى همجيّاً، على الرغم من ذلك، لأنك كى تكون مثقّفًا هو أن تكون قد أُفسدت عن طريق الترشيح والتنقية، أو التقطير.

لقد خسرتُ الآن الحروب الثقافية، ولذلك أنا بهذه المجموعة من المقالات أدخل الحروب الهمجيّة مستمتعاً. فقد رغبت لفترة من الزمن فى أن أشارك فى بعض القضايا التى تشغل اهتمام الطبقات المفكّرة والثرثارة فى أمريكا اليوم. وبدلاً

من المشاركة فى هذه القضايا من خلال كتابة موضوعات رأى [(١)] op-eds عديدة فى الصحف أو دراسات، قرّرتُ أن نوع المقال هو الوسيلة المثاليّة لكى أنجز رغبتى.

يتميز المقال بحرية الحركة دائماً، فهو يمكن أن يفعل أو يبدو كأى شىء تقريباً. والمقال يمكنه أن يغطى أى طول من أدنى حدّ إلى أقصاه. يمكنه أن يكون متعقّلاً أو مشاكساً، وغالبًا ما يكون الاثنين معًا فى آن واحد. ويمكنه أن يكون ملهمًا بشكل مذهل، وموضوعيًا بشكل جدير بالاحترام. إنه متعة ونوع أدبى مستحق للقراءة، ولكنه ليس سهلاً بأية حال. إنه يستغرق وقتًا وتدريبًا لتنمية المهارات المطلوبة لإنجاز مهمة المقال، حتى لو ظهر فى البداية أن هذا النوع يمثّل أقل القليل مما يتشارك فيه المثقّفون من أفكار أو رأى واضح. لا ينبغى أن نربك أناسًا مثل "توماس فريدمان" بكتّاب المقالات، وهم فئة تشمل مجموعة مثل "أرونداتى روى"، "فرجينيا ولف"، "جور فيدال"، "مات تايبى"، "أهداف سويف"، "ستانلى كروتش"، "ويونا لا ديوك"، "بيل هوكس"، و"تايايكى ألفرد"، كتّاب مقالات لا أتفق معهم دائمًا، لكنهم يمثّلون هذا النوع من الكتابة بحب ومهارة. إن إنتاج النثر غير القصصى الذى ينقل رأيًا هو شىء متفرد. كتابة المقال، على الرغم من ذلك، تتطلّب وجود البراعة الفنيّة، وإذا كان هناك مقال يُتوقّع أن يكون جيّداً، فإنه عندئذ سيحتاج إلى إعادة ترتيب نوع ما من استقامة الرأى. لهذا السبب يعدّ معظم كتّاب الأعمدة فى الصحف استعراضيّين متشابهين، وليسوا كتّاب مقالات. أو، كى نكون عادلين، معظمهم ببساطة كتّاب مقالات رديئون.

إن للمقال تاريخًا رائعًا فى التراث الأدبى العربى الأمريكى. وهناك واحد من أشهر الكتّاب العرب الأمريكيين، إدوارد سعيد، كان كاتب مقال غزير الإنتاج، حتى إن الكثير من نشاطه العلمى كان به لمسة وأسلوب المقال. فى الواقع قبل إدوارد سعيد نشر أعضاء "المهجر" مقالات متعلقة بالأحداث الجارية ومثيرة على

---

(١) مقالات تعبّر عن آراء شخصية. (المترجم)

أية حال، ومن هؤلاء الكتّاب أمين الريحانى وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة. ومن كتّاب المقالات العرب الأمريكيين اليوم : "جوزيف مسّاد"، "نعومى شهاب ناى"، "جوانا قاضى"، "ديانا أبو جابر"، "ليزا سهير ماجاج"، "جريجورى أورفاليا"، "راى حنانيا"، "إيفيلين عزيزة السلطانى"، "ألمظ أبى نادر"، وآخرون كثيرون أنا متأكّد من أنى نسيتهم — يمثّلون هذا النوع من الكتابة بتنوّع المضمون والأسلوب، ويرمزون للمجتمع المتعدد الذى يحدّدون هويّته.

سأكون مهتمًا فى العديد من هذه المقالات بالمبادئ الأخلاقية، وهى كلمة لا يمكن الاستهانة بإمكانية كونها غامضة وصارمة. علاوة على ذلك أود أن آخذ برهة من الوقت لأوضّح استعمالها فى النماذج التى ستأتى بعد ذلك. إننى ملتزم بمفهوم معيّن للمبدأ الأخلاقى morality، على أنه شىء مختلف عن الحكمة الأخلاقية moralism، والتى تعد تعبيرًا ذا صلة بالنفاق. أنا أستعمل عبارة المبادئ الأخلاقية لكونها مساوية لكلمة الالتزام accountability المرتبطة بالإرادة الإنسانية الشاملة - اجتماعية، اقتصادية، بيئيّة، وسياسيّة. أنا لست متيّمًا بكلمة "تبعيّة responsibility"، لكن يكون لدىّ فى عقلى شىء ما قابل للمقارنة عندما أستشهد بالأمور التى أتصورها على أنها أخلاقية فى الأساس - ربما تكون كلمة "المسئولية answerability" اختيارًا أفضل. أريد من الناس - وأنا فى المقام الأول واحد منهم - أن يكونوا مسئولين answerable عن النتائج العديدة للاختيارات التى يقومون بها كمستهلكين ومتفرجين وكقوى سياسية. إن كونك على وعى بالنتائج التى تتطلّب التحليل الجاد لكشف الغموض، هو العلامة المميزة لمبادئ أخلاقية سليمة. المقالات يمكنها أن تدعونا لكى نأخذ على عاتقنا هذا النوع من الاكتشاف.

والنوع المفضّل لدىّ هو المقال السياسىّ، والذى يعلّل المقدار الأكبر من الأقسام فى هذه المجموعة. أتمنى للمزيد من الكتّاب العرب الأمريكيين، خصوصًا الفئة المتزايدة من المؤلفين البازغين أن يحترفوا هذا النوع من الكتابة. كتابة المقال ليست فقط عملية منبهة وأحيانًا مطهّرة، بل هى طريقة أخرى، بالنسبة لنا كعرب

أمريكيين، للاستمرار فى الحديث لصالحنا. وسوف ننهى بتقديم رؤى مختلفة إلى حد كبير، ولكن أى رؤية سيتمنى كل منا أن يتبناها، على الأقل هذا الرؤى ستكون خاصة بنا.

وإذا حدث واقتنيت هذا الكتاب، مهما كانت خلفيتك، ستصبح هذه المقالات مقالاتك، ولتفعل بها ما تشاء. لكن من فضلك لا تسمّها مقالات مثقفة!

العنصرية ضد العرب، والليبراليون الأمريكيون، والإرهابيون المدنيون الجدد

فى يوليو من عام ٢٠٠٦، عندما دخلت سريّة من" حزب الله" شمال إسرائيل وخطفت جنديين وقتلت ثمانية آخرين، وصفت وسائل الإعلام الأمريكية المطبوعة والمرئية تلقائيًا الحركة بأنها عمل إرهابى، واعتبرت" حزب الله"" منظمة إرهابية". كلمات الوصف افترضت ضرورة ملحّة من نوع خاص، لأنها قدمت ذريعة لإسرائيل لتشنّ حملة قصف ثقيلة على لبنان، مخلّفة المزيد من الموت والدمار. كما أن قتل العديد من المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين سَيُبَرَّرُ بمعركة إسرائيل المزعومة ضد الإرهاب.

لقد أقرّت وسائل الإعلام سواء من اليمين أو اليسار وصف إسرائيل والولايات المتحدة لحزب الله كمنظمة إرهابية، ولكن حقيقة هذا الوصف ينبغى أن تُنَاقَش. إن لاأخلاقيّة التدمير الإسرائيلى الوحشى لم تُثِرْ كثيرًا من الجدال السياسى أو الأخلاقى بين هؤلاء الذين يفترض أن يفرّقوا بين الأهداف العسكرية والأهداف المدنية، أو بين الإرهابيين والناس العاديين. المشكلة أن وسائل الإعلام الأمريكية أغفلت مرارًا وتكرارًا أى تفريق بين أى من كل ذلك، محوّلةً بهذه الطريقة العدوان الإسرائيلى إلى حالة دفاع عن النفس. مثل هذا الإغفال كان مقبولاً ظاهريًا بسبب وجود عنصرية متعمّقة ضد العرب فى الولايات المتحدة تعمل على إزالة الصفات البشرية عن العرب، وتختزل الظواهر الاجتماعية والثقافية المعقّدة فى العالم العربى إلى مستوى البربرية غير العاقلة.

هل قضى أىّ من المعلّقين أو الجمهور بعض الوقت من أجل استكشاف هذه الظواهر، بدلاً من وصف حزب الله دون أدنى تفكير بأنه منظمة إرهابية. إن حدود النقاش ينبغى أن تنتقل إلى اتجاهات مفيدة. حزب الله قد تورّط فى أعمال الإرهاب،

وأسوأها سمعة كان سنة ١٩٨٣ عندما فجّر ثكنات جنود البحرية الأمريكية فى بيروت، لكن دوره فى لبنان قد أصبح على مدى طويل أكثر تعقيدًا من كونه مجرد ميليشيا مسلحة. إنه كذلك منظمة سياسية شرعية تمتلك قاعدة راسخة من التأييد، وتقدم الخدمات الاجتماعية الضرورية لشيعة لبنان، الذين يعتبرون أفقر قطاع سكانىّ فى الدولة، بالإضافة إلى اللاجئين الفلسطينيين. ولحزب الله أيضًا تأثير ثقافىّ فى مناطق من لبنان، لأنه يؤكّد وطنيّة رؤيته الشاملة للعالم والحياة بتصوّره نفسه على أنه المتعهّد الشرعى للتعبير الوطنى ضد تدخل القوى الأجنبية. والمنظمة، على الرغم من ذلك، مسلّحة وعلى مدى تاريخها نفّذت عمليات يمكن أن توصف بحقّ أنها إرهابية. هذا فقط بعدٌ واحد من مهمّة معقّدة، لكنه البعد الذى جاء ليعرّف "حزب الله" فى المخيّلة الأمريكية.

فى الواقع، طبقًا لوسائل الإعلام الأمريكية كل عنف عربى هو إرهاب. هذه الوسائل لم تحدّد أبدًا أى معيار نتج عنه مثل هذا الحكم، وفى الغالب لأن المعيار ليس سوى افتراضات متسرّعة موحىً بها من قبل الدافع العنصرى، الذى يتصوّر أن العرب ليس لديهم السبب الوجيه على الإطلاق لارتكاب العنف، وبالتالى هم غير عقلاء، بينما الأمريكيون لا يمكن أن يكونوا غير عقلاء، كى يرتكبوا أعمال عنف دون سبب وجيه. الافتراضات انتزعت من سياقاتها من تفاصيل تاريخية ذات صلة - على سبيل المثال: خطف إسرائيل لمواطنين لبنانيين - ويصوّر ذلك على أنه أحكام محايدة تنتج عن مبرر موضوعى.

وبتنحية هذه القضية جانباً، قضية ما إذا كانت الموضوعية ممكنة الحدوث دائمًا أم لا (غير ممكنة بالطبع)، فإن ما يسمّى بالأحكام المحايدة حول ما يمثّل الإرهابَ، يكشف الكثير عن كيف أن العنصرية ضد العرب تعمل فى الخفاء وفى العلن فى الولايات المتحدة. إدانة الإرهاب تبدو فى الظاهر كأنها عمل محايد، ومع ذلك، من الذى يرغب فى محاولة إثبات أن الإرهاب شىء جيّد؟ فى الواقع، على أية حال، فإن حصر ومساواة كل فعل عنف عربى على أنه" أعمال إرهاب"،

يكشف أن إدانة الإرهاب مبنيّة على أهداف سياسية، مما يؤكّد المعتقدات السابقة بالتفوق الأبيض. لماذا، على سبيل المثال، المعلّقون الأمريكيون متأكدون جدًا من كون حزب الله منظمة إرهابية، ولكن يبعدون هذه التسمية، مثلاً، عن الجنود الأمريكيين الذين يرتكبون فظاعات (أبو غريب، حديثة)، أو المستوطنين الإسرائيليين فى الضفة الغربية الذين يحتلّون أرضًا مسلوبة ويجمعون الحشود لقتل المدنيين الفلسطينيين؟

هذا السؤال ليس نوعًا من الخطابة. إذا سعينا لتقديم إجابة، فإننا سنواجه التراث الأمريكى فى نزع الصفات الإنسانية عن أعداء أمريكا الجيوسياسيين، وفى هذه الحالة بإجمال العرب الذين يناوئون الطموحات الإمبريالية الأمريكية، جميعًا كإرهابيين. والمفهوم ضمنًا من هذا الإجمال هو الادّعاء بأن العرب غير قادرين على دخول عصر الحداثة، وعلى ذلك مهما كانت المطالب التى يعبرون عنها من خلال العنف فهى بالضرورة لا مبرر لها، بينما العنف الأمريكى، مهما كان قبيحاً، دائمًا ما يهدف إلى خدمة مصالح التقدم. ويشير السجل التاريخى إلى أن هذا الأسلوب قد استخدم إلى أقصى حدّ فى نظام الحكم الأمريكى منذ زمن ثورات العبيد والإبادة الجماعية لسكان أمريكا الشمالية الأصليين .

إن الوقاحة التى تطبّق بها وسائل الإعلام الأمريكية كلمة" إرهاب" على السكان العرب تعزّز فوق ذلك تصوُّرَ أن العنف فى العالم العربى خارج سياق التطور التاريخى، ومن ثم فهو بلا معنى. كما أن العرب بدورهم أصبحوا شعبًا بلا حكايات، ينتمى إلى ثقافة عاجزة عن الإدراك. هذه التصورّات تشوّش فهم الأمريكيين لكل من الولايات المتحدة والعالم العربى .

على سبيل المثال، إذا كان خطف حزب الله للجنديين الإسرائيليين قد صُنِّف بشكل يقينىّ على أنه عمل إرهابى، عندئذ سيظهر للعيان أن المعيار الممكن استخدامه لتعريف الإرهاب – عمل عنيف ضد جيش مُعادى – هو ذاته الذى يمثّل التاريخ العسكرى الأمريكى. حقاً، هذا المعيار سوف يحكم على جميع القوى

العسكرية للإرهاب (نقطة سيختلف حولها بعض دعاة السلام)، ولكن فى هذه الحالة وسائل الإعلام طبقته بانتقائية على حزب الله من أجل إثبات اعتقاد فضفاض بأن عنفه يفتقر إلى الهدف. (إنه لديه هدف، وهو ألاّ نقول أننا يجب أن نقبل هذا الهدف أخلاقيًا أو سياسيًا). عندما يعترف الأمريكيون بهدف للعنف العربى، فإنهم يعزونه إلى عوامل دينية أو ثقافية بدلاً من العوامل السياسية، والتى، لكى نحددها ضمنيّاً، هى حالةٌ لصفة وراثية .

فى يوليو ٢٠٠٦، عندما تسارعت وتيرة عملية تدمير إسرائيل للبنان، بدأ يظهر تغيّر فى هذا الخطاب : فكرة أن المرء لا يستطيع بحق أن يفرّق بين الإرهابيين والمدنيين، لأن معظم المدنيين فى لبنان هم إما فى تعاون وثيق أو تعاطف مع حزب الله. وقد استخدم الصهيونيون مثل هذا الأساس المنطقى على نحو دورى للتعمية عن التطهير العرقى للفلسطينين فى الأراضى المحتلة. وقد وظّف المسئولون الأمريكيون الأساس المنطقى ذاته أيضاً، كى يبرروا أعداد القتلى المتزايدة بين المدنيين فى العراق. لكن لم يعد ذلك الأساس المنطقى يكتب كثيرًا فى التعليقات التى كانت سائدة أثناء الحرب الإسرائيلية على الشعب اللبنانى.

ربما كان النموذج لهذه النظرة هو "ألان ديرشويتز"، خريج "هارفارد" الشهير وأحد المدنيين المؤيدين لمذهب حرية الإرادة. فى صفحة نشرت فى جريدة" لوس أنجيليس تايمز"، رفض "ديرشويتز" فكرة وحشية إسرائيل متسائلاً: "ولكن الآن من هو "المدنى" فى عصر الإرهاب، عندما لا يرتدى المسلحون زيًا عسكريّاً، ولا ينتمون إلى جيوش نظامية، ويندمجون بسهولة فى السكان المدنيين؟". إن مغزى هذا السؤال واضح: جميع أفراد الشعب اللبنانى هم إرهابيون محتملون، ولذلك هم مستحقون للقتل دون إلقاء اللوم على الإسرائيليين أو الأمريكيين. إن "ديرشويتز" يطيّب هذه الحجة الخبيثة بلغة مضطربة ثقيلة، مستعملاً مفهومه الخاص ب - "تواصل المدنية"، والذى يعتبر طريقة خيالية للقول بأن إسرائيل لا يمكن أن تتصرّف بلاأخلاقيّة ضد سكان مجردين من أخلاقيّات أساسية.

"ديرشويتز"، الذى يلمح إلى أن القتلى المدنيين اللبنانيين مشتركون فى قتل أنفسهم، يصطنع حجته فى الجملة الأخيرة من المقال: "إن مقتل أى مدنى هو مأساة، ولكن البعض أكثر مأساوية من الآخرين".

وقد جاء تعبير "ديرشويتز" الأخلاقى البغيض تعليقًا على الحصيلة المتزايدة للقتلى المدنيين اللبنانيين والعدد المتناقص للقتلى الإسرائيلين، والتى هيمنت على التغطيات الإخبارية فى البداية. التغيّر الناشئ فى التغطية أضيف إليه طوفان من الصور المستفزة التى انتشرت بين وسائل إعلام بديلة، بما فيها صور لأطفال إسرائيليين وهم يكتبون رسائل على قذائف كانت ستطلق فى وقت لاحق، ولأطفال عرب متفحمين ومقطّعى الأوصال. وما إن أصبح استهداف إسرائيل للمدنيين غير ممكن إنكاره، حتى تحتّم على" ديرشويتز" أن يجد طريقة لكى يغيّر أسلوبه الخطابى مع الاستمرار فى الالتزام تجاه إسرائيل. فلطالما ظل يحاول إثبات أن إسرائيل لا تستهدف المدنيين، ولكن ما إن أُسقط ذلك الادعاء بواسطة وسائل الإعلام ذاتها والتى دائمًا ما كانت تعتبر مؤيدة له، حتى قرر بدلاً من ذلك أن يحاول إثبات أن المدنيين الذين كانت تقتلهم إسرائيل ليسوا مدنيين فى الواقع، وهى حجة دليلها الوحيد رأى" ديرشويتز" نفسه .

إن موضوع الرأى الذى كتبه" ديرشويتز" هو مثال للعنصرية ضد العرب، لأنك عندما تخصص المشاركات الوجدانية لشعب واحد، سواء كانت هذه المشاركات من قبيل التملّق أو هناك حاجة ملحّة لها، فإنك تحصرها فى شىء ما من قبيل النظرة العرقية التى سرعان ما تُبطل فاعليتّها. علاوة على ذلك، فالرأى القائل بأن جميع اللبنانيين إرهابيون محتملون لا يمكن إقامة الدليل عليه تماماً، ولذلك فهو إجمال غير عادل. هذه الحجة تدعم اعتقادًا سائدًا بين معظم الصهيونيين وهو أن العدوانية مرض مستوطن فى العرب وشىء دخيل على اليهود والأمريكيين البيض.

ربما يكون "ديرشويتز" نموذجًا لهذا النوع من الحجج، لكنه بالطبع ليس المؤيد الوحيد لها. بعد العدوان الإسرائيلى، رأينا وسائل إعلام المحافظين الجدد - فى قضايا أخرى هم أعداء الليبرالى "ديرشويتز" - وبتفاعل مع ذلك ألقت باللوم على الوضع المعقّد بشأن حزب الله (وسوريا وإيران، الراعيين الماليين للمنظمة، وكبشى فداء أيديولوجيا المحافظين الجدد). هذا اللوم كان مليئًا بالسّباب العنصرى المميّز لمعلّقى المحافظين الجدد، والذى شمل تسمية الشرق أوسطيين ب-الرؤوس الخِرَق[١] ragheads، مدعين أن جميع الفلسطينين يشبهون الفئران ولديهم عيون خرزيّة، وأنهم أناس حقراء بسيور مرواح على مناشف يضعونها فوق رؤوسهم، ومقترحين أن تضرب الولايات المتحدة" مكة" بالأسلحة النووية. (انظر كتابى" العنصرية ضد العرب فى الولايات المتحدة"، للمزيد من الأمثلة لعنصرية المحافظين الجدد) .

ردود الفعل الأكثر إثارةً للانتباه تجاه العدوان الإسرائيلى جاءت من المحللين الليبراليين وفى بعض الحالات من التقدميين، والذين تجنبوا العنصرية العلنية، لكنهم سمحوا للاعتقاد القائل ببربرية العرب أن يؤثر على تحليلاتهم. فعلى سبيل المثال، عبّرت إحدى افتتاحيات مجلة "ذا نيشان" عن موقف مضاد للحرب لكنها فعلت ذلك عن طريق تقييم النتائج الاستراتيجية بدلاً من الإصابات البشرية، تمثّل ذلك فى ملخّص المقال فى الصفحة الأولى من موقع المجلة على الإنترنت :" العنف المنتشر فى لبنان وغزة يُظهر بوضوح أن العقاب الجماعى للفلسطينيين واللبنانيين سيؤدى فقط إلى زيادة التطرف فى المنطقة". وجهة النظر هذه لا تذكر شيئًا عن لاأخلاقيات عقاب إسرائيل الجماعى، بل تشدّد بدلاً من ذلك على مخاطره على الغرب، وتتجاهل أعداد القتلى من المدنيين العرب.

---

(١) إشارة إلى العمائم التى يرتديها بعضهم، ويقصدون من ذلك سب العرب والمسلمين (المترجم) .

مرة واحدة فقط فى الافتتاحية أبدت مجلة "ذا نيشان" استنكارًا أخلاقيًا وذلك بالظهور الوحيد لكلمة "غير إنسانى". ومن ناحية أخرى، تعيد تدوير الكذبة التى تقول إن الشرق الأدنى ليس مسكونًا بالمدنيين بل بالمتطرفين والذين هم دومًا على شفا أن يصبحوا أكثر تطرفاً. أنا لا أريد أن أحكم على هذه الافتتاحية بأنها عنصرية، لكننى أجد الأمر محبطًا أن مجلة محترمة ذات رأى تقدمى فى الولايات المتحدة فشلت فى أن تسبغ صفة الإنسانية على من هم على وشك أن يصبحوا سكانًا مجردين منها بشكل جدّى.

جريدة "نيويورك تايمز" أعادت تدوير الكذبة نفسها فى إحدى الافتتاحيات، حيث ادّعت فيها أن "المزيد من القتلى المدنيين فى لبنان لن يجعل إسرائيل أكثر أمنًا". القارئ المجتهد يجب أن يسأل لماذا لم تُشِرْ جريدة "التايمز" إلى أن المزيد من القتلى المدنيين فى لبنان سيكون مستهجنًا أخلاقيًا، أو أنه خرق مستمر للقانون الدولى. التأكيد المتحمّس على الاستراتيجية فى مقابل القتل ممكن فقط من خلال عملية تجريد من الإنسانية، مشتركة بين الكاتب والجمهور. وبرصد وسائل الإعلام المطبوعة الرئيسية خلال الشهر التالى لعدوان إسرائيل على لبنان، لم أجد أى تعليق يدرس استراتيجية حزب الله دون إدانتها، أو على الأقل الإشارة إلى لاأخلاقية استهداف المدنيين الإسرائيليين، إن ذلك نتيجة لحقيقة أن اليهود الإسرائيليين تُسْبَغُ عليهم الصفات الإنسانية بشكل مضمون فى الولايات المتحدة .

تعليق يسارى آخر مريب ظهر فى مجلة "ذا بروجرسيف"، حيث أيّدت "روث كونيف" نظرية مضللة، لكنها منتشرة على نحو واسع، وهى أنه ما دام العنف موجودًا بين كل من العرب والإسرائيليين، فإن الإرهاب سيكون مقصورًا على العرب وحدهم. وقد اختتمت "كونيف" هذا التأييد بأسلوبها ضعيف الخيال، مخصصة "العنف الإرهابى للعرب" والثأر العسكرى "لإسرائيل. كما لاحظت أن" الإسرائيليين ليسوا جميعًا متحمسين بشدّة للحرب"، وهى ملاحظة تجعل القراء يستنتجون أن كل العرب متحمسين جدًا للحرب. وكما حدث مع مجلة "ذا نيشان"،

سيكون ليس من العدل أن نحكم على رأى "كونيف" بأنه عنصرىّ، لكن هذا يلفت انتباهنا إلى النقطة المهمة وهى أن بعض العنصرية ضد العرب التى تنشأ لدى اليمين تجد طريقها بمهارة إلى التحليلات السياسية لدى اليسار.

فى بعض الحالات، على الرغم من ذلك، فإن اليسار كما هو ممثّل بالصهيونيين الليبراليين يعيد تدوير العنصرية الصارخة ضد العرب، دليل عملى على ذلك هو موضوع الرأى الذى نشر لكاتب العمود فى جريدة "واشنطون بوست" "ريتشارد كوهن" فى يوليو ٢٠٠٦. يبدأ "كوهين" تحليله بعمل تمييز أخلاقى بين اليهود والعرب: "الجنود الإسرائيليون المجندون إلزاميًا أو جنود الاحتياط لا يعتقدون أن الموت والاستشهاد شىء واحد. لا عذراوات ينتظرن اليهود فى الجنة". بعد ذلك يستحضر الأسطورة القديمة التى تزعم أن إسرائيل ضحية بريئة للعدوانية العربية: "إسرائيل هى، كما أقول غالباً، موضوعة فى موقعها لسوء الحظ، كبناء متطور بين جيرة سيئة إلى حد ما". طريقة استعمال "كوهن" للألفاظ هنا متعمدة لصيغة المبنى للمجهول وبالتالى غامضة، مما يسمح له بتجنّب الحقيقة المزعجة وهى أن موقع إسرائيل سيئ الحظ ليس مصادفة تاريخيّة، بل كنتيجة لغزو استعمارى مخطط بإحكام ومنفذ بوحشية. ويمكّن الغموض أيضًا "كوهن" من أن يتجاهل القضية الحتميّة للاستيطان ومن ثم لكى يكرر الفرضيّة العنصرية القائلة بأن العرب يهاجمون الإسرائيليين ببساطة لأنهم يحبون أن يقتلوا اليهود. وفيما يخص النزعة الطبيعية، الموثقة جيداً، لدى اليهود الإسرائيليين لقتل العرب كان "كوهين" واضحًا بشكل مريع: "الطريقة الوحيدة التى نضمن بها أن الأطفال لن يموتوا فى أسرّتهم والشيوخ لن يموتوا فى الشوارع هو أن نجعل اللبنانين أو الفلسطينيين يفهمون أنه، إذا، ولا يهم كيف يكون ضيقهم، أطلقوا هذه الصواريخ، فإنهم سيدفعون ثمنًا باهظًا جدًا جدًا".

أنا أستخدم المراحل الأولى لعملية تدمير إسرائيل للبنان كحالة يُرجع إليها فيما يخص انتشار العنصرية ضد العرب، لأن هذه العنصرية، رغم أنها مستمرة،

تتجه مثل كل أنواع العنصرية إلى أن تزداد حدتها عندما تحتّم الجيوسياسة وجودها. هذه الحقيقة كان يمكن أن تكون مستحيلة إن لم تكن الآن خطابًا متاحاً، وإن لم تكن وسيلة فعّالة لتبرير الوحشية الإسرائيلية والأمريكية فى العالم العربى، ولتبرير الاعتداء الحكومى على الحقوق الدستورية والحريات المدنية بعد أحداث ١١ سبتمبر (انظر أيضًا: ديفيد كول، غرباء أعداء، وإلين هاجوبيان (تحرير): الحقوق المدنية فى خطر).

النموذج الأكثر وضوحًا للعنصرية المؤسسيّة ضد العرب أثناء المراحل الأولى من تدمير إسرائيل للبنان كان القرار غير الملزم الذى يعتبر العرب مسئولين عن العنف، والذى مرّره الكونجرس فى تصويت ل- (٤١٠) مقابل (٨)، وهو مشهد نادر للازدواجية الحزبية (مساندة إسرائيل ودعم الأطماع المشتركة هى القضايا الوحيدة فى حكومة الولايات المتحدة التى تحدث الازدواجية الحزبية بشكل منظم). أعلن "جون ماكين"، والذى يجسّد النزعة الطبيعية للسياسيين الأمريكيين لتبرير قتل المدنيين العرب، أنه إذا اعتزم حزب الله شنّ هجمات من الأراضى اللبنانية، فسوف تدفع الحكومة والشعب اللبنانيان بشكل مأساوى ثمنًا لذلك". وبمنطق "ماكين" سيكون للفلسطينيين المبرر العادل لقتل مدنيين أمريكيين لأن إسرائيل تشن بانتظام هجماتها عليهم بأسلحة مقدمة لها من الولايات المتحدة. (وللعلم، أنا لا أعتقد أن للفلسطينيين حق أخلاقى لارتكاب أعمال عنف ضد المدنيين الأمريكيين، ولكننى أعتقد بالفعل أن لديهم ما هو أكبر من الحق الأخلاقى فى استخدام مثل ذلك العنف أكثر مما يفعل الإسرائيليون إزاء العرب. وهذا مبنى على أساس موقفهم كطرف مضطهد تُلتمس له الأعذار).

العنصرية ضد العرب ليست مضفورة مع الفظاعات الأمريكية والإسرائيلية فحسب. بل إن لها وجودًا ثابتًا فى الولايات المتحدة لما يزيد عن القرن من الزمان، وتجسُّدها الحديث يرجع تاريخه تقريبًا إلى حرب ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل. وقد وُجدت العنصرية ضد العرب عادةً فى تيار اليسار وأيضًا فى تيار اليمين (ولأنه

لديه كل أشكال العنصرية، فإن اليسار الأمريكى له تاريخ طويل من إسباغ صفة الشرعية على الأشياء ذاتها التى يزعم أنه يعارضها). بعد الحادى عشر من سبتمبر، قلّة من وسائل الإعلام البديلة (مثل إنترناشيونا سوشياليست ريفيو، وبالستينيان كرونيكل، وديموكراسى ناو!) إما تجنبت التحليلات السطحية المضللة أو تحدّت العنصرية ضد العرب بطريقة فعالة. ولا يزال قليل من المنابر يتيح مساحة للعرب ليعبروا عن اعتراضاتهم الخاصة، إنها مشكلة النفوذ التى تستمر فى التأثير على جميع الأقليات العرقية فى الولايات المتحدة. ومن ناحية أخرى، فإن الليبراليين والتقدميين كالعادة كانوا متخاذلين فيما يخص قضية العنصرية ضد العرب، ليس فقط كانوا يفعلون القليل جدًا لرفضها، بل كانوا يزيدونها فى بعض الحالات. يمكننا الرجوع إلى نموذج آخر ل-" روث كونيف"، كمثال ذى صلة بالموضوع، وهى تحول انتباهنا نحو العراق. كتبت "كونيف":

"جار لى، عائد فى أجازة قصيرة من رحلة عمل لمدة ثمانية عشر شهرًا كأحد جنود الحرس الوطنى فى العراق، عبّر لى عن اشمئزازه من العراقيين، واصفًا إياهم بالشعب المتخلف، الذين لا يريدوننا حتى أن نبنى المدارس. إنهم يفضلون أن يظل أطفالهم جهلاء ويعملون بالزراعة، قال ذلك. وهذا الشعور المُوحش متبادل، لأن العراقيين ينظرون للولايات المتحدة بغضب متزايد. إنه جو غير مبشّر.

وعلى عكس النموذج الآخر الذى ناقشته ل- "كونيف"، أرى أن هذا النموذج عنصرىّ. يمكننا قبل كل شىء اعتبار جندى الحرس الذى استشهدت بكلامه - مفترضين أنها نقلت تعليقاته بدقة - عنصريًا ضد العرب، مفترضين أنه يُجْمِلُ العراقيين جميعًا على أنهم متخلفون وعدوانيون وجاحدون وجهلاء. وكونه قضى وقتًا فى الحرب بالعراق واحتمال أن يكون قد أصيب بأذى، هذا لا علاقة له بحكمى عليه كعنصرىّ، لأننى لا أجد فى تلك الوقائع أعذارًا معقولة للإجمال السلبى، إن نظرية أن يسمح للجنود الأمريكيين بأن يحطّوا من أقدار شعوب الدول التى يغزونها هى نظرية خبيثة ولا تفيد شيئًا سوى استمرارية الوحشية العسكرية الأمريكية.

نحن لسنا بحاجة إلى أن نربط بين" كونيف" والجندى من أجل أن نكتشف عنصريتها. إنها تنطق بها بنفسها عن طريق صياغة تعليقاته وفى رد فعلها عليها. إن وصف عنصريته السافرة بتعاطف بائس على أنها "شعور موحش" هو فى أفضل الأحوال تفسير تافه، وفى أسوأها أنه موافقةٌ عليها. علاوة على ذلك فإن "كونيف" تورّط نفسها بإشارتها إلى أن "الشعور الموحش متبادل"، وهو ادّعاء لا تقدم أى دليل عليه (لأنه لا يوجد أحد يؤيّد مثل هذا التعميم المبالغ فيه). ويعمل هذا الادّعاء عمل خفّة اليد : فهى تبرّئ الجندى من موقفه المتعصّب بافتراض أن العراقيين، الطرف الصامت فى مقالتها، يجب أيضًا أن يُخفُوا مواقفهم المتعصبة. وكان بإمكان" كونيف" أن تستغل مناسبة تعليقات الجندى لكى توضح أن الحرب تعزّز العنصرية، أو أن العراقيين بوضوح هم آدميون بما فيه الكفاية لإدارة شئونهم دون مساعدة جنود الحرس العنصريين، لكنها بدلاً من ذلك أخذت تبكى وَحْشَته كما لو أن ذلك بسبب عدم رغبة العراقيين فى أن يُخضعوا أنفسهم لهيمنة الأمريكيين.

إن أسلوب "كونيف" يذكرنا بموضوع سنة ٢٠٠٢ ل- "بربارا إيرنريتش"، التى نالت شهرة سيئة سنة ٢٠٠٥، لما قيل عن وصفها السودانيين العرب بأنهم "أشخاص يركبون الجمال هنا وهناك". الموضوع، مؤيّد للحرب على أفغانستان لكنه منتقد للغزو الموشك للعراق، يدعو إلى، كما تفعل ذلك العديد من مقالات التقدميين، النزاهة الاستراتيجية بدلاً من النزاهة الأخلاقية أو القانونية. إذا قامت الولايات المتحدة بغزو العراق، فإن "إيرنريتش" تخشى "جيلاً من المسلمين الشباب فى الرياض أو القاهرة أو هامبورج سيطلب الاستشهاد بقتل بعض منّا". وبدلاً من اختلاق تهديد وهمى، فإن "إيرينريتش" قد تكون لاحظت عدم الشرعية الوحشية لقتل بعض "منهم". الاستراتيجية، بالطبع، اعتبار مهم، لكن المناقشة المقصورة عليها على حساب الهموم الإنسانية تؤدى فى النهاية إلى التجريد من الصفات الإنسانية.

الأكثر إدانة، أن "إيرينريتش" توظّف كلمتى "إرهاب" و"إرهابى" بيقين غير متفق مع قواعد النقد النزيه، حيث تكتب: "مع الإحجام الشديد والتشاؤم اضطررت أن أتفق مع إدارة بوش على أن أمريكا كانت فى حاجة إلى أن تشنّ حربًا على "الإرهاب"، أو على الأقل تبذل جهدًا مكثّفًا للقبض على الإرهابيين". "إيرنريتش" هنا تقصر الإرهاب على العالم الإسلامى، زاعمة أن أمريكا تشارك فى أشكال شرعية من العنف، وهكذا فهى تعيد باختصار العبارة المبتذلة التى تقول بأن "العالم الإسلامى كله يستمتع بقتل الغربيين لأسباب خارجة عن النطاق الجيوسياسى. خذ على سبيل المثال استهجانها الماكر لمقتل مدنيين أفغان: "أعداد غير معروفة من المدنيين – ما بين ٥٠٠ و٣٠٠٠ تقريبًا – حدث وأن تواجدوا فى اتجاه القنابل والرصاص، مما يجلب لنا العداوة الدائمة ممن بقوا على قيد الحياة بعدهم".

مثلما حدث مع الأمثلة الأخرى للعنصرية المستترة فى جانب اليسار، فإن مثال "إيرنريتش" مُعَبَّر عنه من خلال بناء دقيق للجملة، ففى هذه الحالة، سيفترض المرء أن المدنيين الأفغان يسعون بإرادتهم إلى أن يُقتلوا بالأسلحة الأمريكية، إنها تتجاهل الاحتمال البارز للعيان أن الأسلحة الأمريكية تمكنت من أن تصل إلى المدنيين الأفغان عن قصد. إذن فعنصرية التقدميين ضد العرب أكثر دهاءً من تلك التى لدى اليمين والتى غالبًا ما تكون صارخة وبالتالى يسهل اكتشافها. وفى اليسار، مع ذلك، يمكن أحيانًا اكتشاف ما يؤكّد عليه الكتّاب من خلال أسلوب الإغفال عندما يكونون وصفيين باختيارهم، وما يقولونه ضمنًا حول قيمة الشعوب العربية والإسلامية عندما يريدون التأكيد على حُرْمَةِ الحياة الأمريكية.

ومن هنا فإن الصفة الثابتة للعنصرية ضد العرب فى الولايات المتحدة : هى المساواة المستمرة للعرب بالعنف الغريزى الوحشى، مجرّدةً السياق المسلّم به دائمًا من أى مثال للعدوانية الأمريكية أو الإسرائيلية. يوجد تضخيم للذات فى الولايات المتحدة فيما يتعلّق بقضية الإرهاب، فهناك واحد يدّعى أنه محايد لكنك تجده دائمًا ذا اتجاه سياسى، وواحد يبرر الفساد الأخلاقى المحلى والدولى من خلال التلاعب

بالعواطف. إن اليسار التقدمى لن يفتعل أبدًا مقاومة سرية مثمرة طالما هو مستمر فى التشجيع ضمنيًا على تضخيم الذات هذا، بدلاً من تحديد هويته والتحقيق فيه.

مشكلة أخرى ذات صلة باليسار الليبرالى حول قضية العنصرية ضد العرب، هى عدم الرغبة فى التعامل مع العرب على أساس إنسانيتهم الأصلية. وقد أصبح مؤكدا جدا لدى الملوَّنيين أن العنصرية لا يمكن أن تتأصّل فى أى مجتمع دون القبول من الليبراليين. وقد تغلّبت الليبرالية على المشكلة بتزويد المؤيدين لها بِوَهْمٍ مريح، وهو أنّ مجرد كَوْنِكَ ليبراليًا، فهذا كافٍ تمامًا لأن تصنّف كمقاوم للعنصرية.

ليس لأحد الحق فى أن يصنّف أحدًا على أنه مقاوم للعنصرية على أساس الأيديولوجيا فقط، كما أنه ليس لأحد الحق فى هذا التصنيف بناء على أن له أصدقاء عرب، وعلى لافتات الحشود المناهضة للحرب، وعلى ملصقات السيارت، الداعية للتعايش السلمى، و"داروين فيشيز" [(١)] وعضويات التعاونيات، أو النوايا الحسنة. أن تكون مناهضًا للعنصرية - أن تكون مقاومًا للعنصرية بحق - فهذا يستلزم شيئًا أكثر من وضع الشعارات وأكثر من التظاهر بالعلامات السطحية لأيديولوجيا سياسية معينة. أن تكون مناهضًا للعنصرية يعنى أن تكون عازمًا على التضحية بأى ميزة خاصة لصالح جميع البشر. إنها تعنى الرغبة فى العمل بدلاً من التفلسف. إنها تعنى التشوّق لمعرفة الآخرين بدلاً من الولَع بوعظهم. إنها تعنى دائمًا السعى لاكتشاف مدى تورّط المرء شخصيًا فى الأمور التى يمقتها الإنسان بالفعل.

إنها تعنى جميع هذه الأشياء بسبب مدى العمق المتأصلة به العنصرية فى الولايات المتحدة. ولا ينهى المرء العنصرية بمجرد أن يجمع قليلاً من أصدقائه أو

---

(١) جماعة فكرية تهتم بطبع وبيع الملصقات التى تحتوى على صور الأسماك، وتستخدم الأسماك كرمز للدعوة إلى الانضمام إلى المسيحية. (المترجم)

أن ينظم تظاهرة باللافتات ضد الحرب. لكى نقضى على العنصرية فى الولايات المتحدة، سوف نحتاج إلى أن نعترض على كل ما يعتبر أمريكيًا فى الأساس، لأن تفسير "الأمريكيّة" الذى يواجهنا اليوم يعتمد بعمق على وجود العنصرية، بما فيها العنصرية ضد العرب، التى تكمن وراء كثير من الجيوسياسات الرأسمالية الأخيرة للولايات المتحدة.

لذلك ينبغى علينا أن ننهى نظرية أن الليبرالية تعادل تلقائيًا التسامح، أو أن الليبراليين مناهضون للعنصرية بإخلاص. الليبراليون كانوا وما زالوا جزءًا من المنظومة ذاتها التى خلقت العنصرية، موضوع مناقشتنا فى هذا المقال. هذا الاجتراء على التسامح، الذى وُضع لإطالة أمد الاستعمال لفترة طويلة من قبل الليبراليين الأمريكيين، هو التعبير المادى عن رفضهم لمواجهة العرب على أساس إنسانيتهم الأصلية. إن إعجاب الليبراليين بهذا التصور العام فيما يبدو، يعكس عدم رغبتهم فى عمل ما هو ضرورى للتخلص من العنصرية.

التسامح فى الواقع تصور أحمق وهدف خبيث، والذى يشبه الادّعاء بأنه يغذى القول بالمساواة بين البشر. التسامح كمعتقد مؤسّس ضد العنصرية أو أى شكل آخر من الظلم الاجتماعى هو مبدأ خبيث، لأنه لا يفعل سوى تعزيز ما يبدأ الظلم ظاهريًا فى التخلص منه. المؤيدون المخلصون للتسامح ربما يشعرون أن أخلاقيات التسامح لديهم نبيلة وصالحة. لكننى متردد فى ترك الأمر يستقر على هذا الافتراض. بالتأكيد هناك عدد من الليبراليين الذين يعرفون جيدًا جدًا أن التسامح هو عبارة عن ستار من الدخان، يحول بطريقة فعالة دون المبدأ الفعلى القائل بالمساواة بين البشر، ويعزز فقط البنية الفوقية البيضاء التى حكمت أمريكا الشمالية منذ بدايات القرن السادس عشر. التسامح ليس سوى علاج وقتى، إنه لا يتطلّب أبدًا أن يدرك الناس الآلية السياسية المجحفة التى تنتج العنصرية، والتى يجنى المستفيدون منها، بما فيهم أغلبية الليبراليين البيض، المزايا العاطفية والاقتصادية الاجتماعية.

علاوة على ذلك، فإن أهدافى - كفرد ينتمى إلى مجتمع أقلية - متنوعة وطموحة، وأن أكون "متسامحًا"، ليس واحدًا من تلك الأهداف. أنا أفضّل كثيرًا - كما يفضل إخوتى فى العرقيّة، وأجرؤ على أن أقول ذلك - أن أكون محترمًا بفضل إنسانيتى المتأصلة، وأن يكون لدىّ القدرة على الوصول إلى الحقوق والمسئوليات الاجتماعية، التى تنشأ من العيش ضمن منظومة من المساواة الاجتماعية الحقيقية. كل من القانونين الأمريكى والدولى، على أى حال، يعلن أن لى حقوقًا أكثر من السخاء المزعوم فى حال كونى متسامحاً. أن أكون متسامحًا هو حتمًا أن أكون تابعًا لأولئك الذين لديهم سلطة أن يعتبرونى متسامحًا - وبالتالى سوف تتغير فرصى بشكل غير محتمل.

أصبح الشعار الليبرالى للتسامح ذائعًا فى الولايات المتحدة بعد ١١ سبتمبر، خاصة فيما يتعلق بالعرب والعرب الأمريكيين. والعرب عمومًا مهمّشون ومحتقرون ومحاصرون. وفى لحظات الكرَم، على أية حال، يتحول العربى فى المخيّلة الليبرالية من كونه أجنبيًا إلى موضوع فضول مقبول، موضوع ينهى شرعنة معظم الطهارة المسيحية المحفورة فى المخيّلة الليبرالية. ولأن العرب كانوا عرضة للاستراتيجيات المتنافسة (لكنها ليست بالضرورة متخاصمة) للمعاقبة (بين المحافظين) وللتسامح (بين الليبراليين)، فقد كانوا يميّزون بأنهم مختلفون. وبهذا التصور للعرب على أنهم بطريقة ما بعيدون عن بقية الأمريكيين، وعلى أنهم مختلفون نوعًا ما فى التحليلات الكريمة، ومتوحشون بشكل بشع فى فى التحليلات الأقل ادعاءً، تستمر أساطير العِرْق لتكون حتمية فى الولايات المتحدة.

هذه الأساطير وإن بدت متماسكة ظهرت على خلفية عدوان إسرائيل على لبنان، كما تفعل عادة عندما تجعلها أى لحظة جيوسياسية شيئًا مناسبًا عمليّاً. إنها تمكّن الليبراليين والتقدميين من أن يكونوا انتقاديين بما فيه الكفاية للولايات المتحدة وإسرائيل، بينما تأييدُ هذ الأساطير للمزاعم المتواجدة منذ زمن والتى تنزل العرب إلى منزلة دون منزلة البشر، وهذا أكثر أهمية - يحمى الامتيازَ الأبيض فى

مواجهة ما ستوجبه المسئولية الحقيقية. إن معلومة أن الليبرالين البيض كثيرًا جدًا ما يتحملون مسئولية حقيقية، كافية لمناقشة ولاءاتهم الأساسية، والتى عندما لا تكون فى تأييد فعلى للإمبريالية الأمريكية والإسرائيلية، تكون متواطئة معهما بجهل. هذا التأييد والتواطؤ، مُتنكِّرَيْنِ على أنهما استتارة، يتواجدان فقط بسبب الحضور المتزامن وليس المصادف أبداً، للعنصرية ضد العرب .

القابل للضياع حتماً

فى صيف ٢٠٠٦، ظهر "جون نيكولاس" – وهو كاتب عمود الرأى بجريدة" ماديسون كابيتال تايمز "التقدمية، والكاتب المعيّن بجريدة "ذا نيشان" – على "راديو ١٦٧٠، ذا بالس The Pulse"، ليناقش موضوعًا كتبه حول اجتياح إسرائيل للبنان. وكان مُحاوره المذيع" جون سيلفستر" الشهير ب–" سلاى"، المعروف بتسميته ذات مرة "كوندوليزا رايس" بالعمّة "جيمينا" [١]، و"كولين باول" بالعم "توم"[٢].

"سلاى"، وهو ليبرالى ملتزم، يعتبر صهيونيًا مخلصاً، وقد أراد أن يفتح نقاشًا حول انتقاد "نيكولاس" المزعوم لإسرائيل. وها هو ما كتبه" نيكولاس":

" لا يوجد صديق حقيقى لإسرائيل يمكن أن يكون سعيدًا بما يُفعل الآن باسم تلك الدولة من قبل رئيس الوزراء إيهود أولمرت وأتباعه المضلِّلين.

إن هجوم إسرائيل على لبنان، والذى قتل حتى الآن وجرح المئات، ودمّر الكثير من البنية التحتية لتلك الديمقراطية الهشّة – بما فيها المطارات والموانىء والكبارى والطرق – لم يفعل شيئًا من أجل أن يجعل إسرائيل أكثر أمناً، أو أكثر سلامة من التهديدات التى تشكلها منظمة حزب الله الإسلامية المسلحة. فى الواقع، أصبح هجوم المجموعات الإرهابية على أهداف فى شمال إسرائيل أكثر جرأة – ومميتًا – منذ بدأت إسرائيل تضرب لبنان.

ولا يوجد مشارك جاد فى الخطاب المعاصر يمكنه أن ينكر أن لإسرائيل الحق فى حماية نفسها. ولكن لا أحد من ذوى الرأى السليم يعتقد أن إسرائيل تنفذ هذه المهمّة بطريقة ذكية".

ومثل الدعوات الليبرالية المعاصرة للولايات المتحدة إلى أن تسحب قواتها من العراق، فإن تحليلات" نيكولاس" تدعم حق إسرائيل فى استخدام العنف، ثم

---

(١) علامة تجارية لشركة أطعمة إفطار أمريكية شهيرة (المترجم) .

(٢) رمز لشخصية الأمريكى الأسود المستعد لأن يفعل أى شىء بما فى ذلك خيانة بنى جلدته، من أجل أن يبقى على نفوذ قوى مع الأمريكى الأبيض (المترجم) .

تحثها بعد ذلك لا لأن توقف هجماتها بل لأن تمارس نوعًا من العدوانية أكثر حكمة.

إن "نيكولاس" محقّ فى قوله إن إسرائيل كدولة ذات كيان لها الحقّ فى أن تحمى نفسها. على أية حال، بإقراره بما هو ظاهر، فإنه يتغاضى بذلك عن عدد من النقاط المهمّة. التحليل الأكثر ذكاءً ربما يسأل لماذا يُعامل موضوع حماية إسرائيل كأنه مسألة أخلاقية بديهية. وبجعلها بديهيّة، فإن هذا النوع من المسائل الأخلاقية، يجعل العرب غير إنسانيين لأنه يلغى حقّهم فى أن يحموا أنفسهم من إسرائيل. بمعنى آخر، فإن "نيكولاس" يمكنه أن يثبت رأيه ذا المنطق السليم فقط على حساب اللبنانيين. وربما يجد قراءة" أنطونيو جرامشى" شيئًا مفيدًا [1].

وكون الصهيونى" سلاى" يفتح نقاشًا حول رأى أكّد بشكل أساسى، أو برّر ضمنًا كل وحشيّة إسرائيل فإنه شيء لافت للنظر. إن رد فعل "سلاى" يوضّح تفانى الصهاينة لدرجة الولاء الكامل، ولكنه مفيد لأناس مثل" نيكولاس"، الذى يمكنه حينئذ التظاهر بأنه مستقلّ فكريًا أو معارض. إنها مجرد طريقة مختلفة للتضحية بنفسه فى سبيل إسرائيل .

أثناء البرنامج، أخذ "سلاى" و"نيكولاس" بعض الوقت وهما يتجادلان. إسرائيل، أعلن "نيكولاس" - مبديًا نوعًا من المواقف المعارضة التى يشتهر بها البيضُ أصحاب الامتيازات - الآن فى ظروف جائرة. وقد استغرق ظهوره فى راديو "ذا بالس" اثنتين وعشرين دقيقة. فى الاثنتين وعشرين دقيقة تلك، نجح "نيكولاس" فى ألاّ يقول أى شيء إنسانى عن الفلسطينيين أو العرب. وبدلاً من ذلك اعتبر بعضهم "إرهابيين مخبولين" وبعضهم الآخر "إرهابيين متمرّسين". كما أعلن أن" هناك الكثير من الناس السيئين [فى الشرق الأوسط] بين مجموع يستحق

---

(١) أنطونيو جرامشى (١٨٩١- ١٩٣٧) فيلسوف إيطالى وكاتب ومنظر سياسى ماركسى، كان أحد مؤسسى وقادة الحزب الشيوعى الإيطالى (المترجم) .

الاحترام"، وهو تنازلٌ بأن لا أحد يمكن أن يحيّره التصرف المحترم. ما حدث لإسرائيل، من ناحية أخرى، هو شىء "مرعب" و"فظيع"، لأن إسرائيل" أجبرت على أن تكون فى هذا الموقف". لقد عبّر "نيكولاس" عن الانزعاج العميق من أجل أمن إسرائيل، بينما تجاهل حقّ الفلسطينيين فى الشىء نفسه. (فى الواقع، لأنهم الجانب المحتلّ، فإن حقّهم فى الأمن هو الأكثر إلحاحًا فى نفس اللحظة من حق إسرائيل). الشىء الإنسانى الوحيد الذى ربما يكون قد تمكن من قوله عن العرب هو "يوجد كثير من العرب الذين بلا ريب ليسوا مخبولين بل هم متحمّلون للمسئولية فعلاً"، أسلوب بلا ريب يجعل المستمعين يستنتجون أن معظم العرب مجانين وغير مسئولين.

إن رأى "نيكولاس" يجسّد مدى اللغو الحذر. فهو صنيعة المخيّلة الليبرالية، وهو وسيلة تحايل تُستدعى للوجود لأن مراكز القوى ترحب - بل تطلب - بنوع المعارضة الذى يقدمه.

فى إحدى نقاط البرنامج، توقّع" سلاى" أن ديكتاتورية صدّام حسين المستمرة سوف تكون أفضل شىء للولايات المتحدة. وافقه "نيكولاس"، مشيرًا إلى أنه "لا يوجد مجال للشك" فى أنه مع بقاء صدّام فى السلطة فإن المنطقة ستكون أفضل بالنسبة "لنا".

زميلة "نيكولاس" ورئيسة التحرير "كاترينا فاندين هيوفيل"، مغرمة بدراسة وجهة نظر مشابهة فى صيغة شعار: "ما هو مؤذٍ للأمة، مفيد لمجلة الأمة The Nation" [١]. "هيوفيل" تنشر هذا الشعار كصورة فنية فكاهية علناً، وكنوع من التلاعب الموحى بالألفاظ، وكطرفة انتقادية على موقع مجلة "ذا نيشان". فى الواقع، الشعار فارغ بشكل حذر، ويدل على غياب المهارة التحليلية، أو على الوضاعة الأخلاقية. (وأعتقد أن ما تبقّى من العالم سيظل منتظرًا أن يُشمل فى هذا الشعار).

---

(١) (what's bad for the nation is good for The Nation) (المترجم)

هل تريد "فاندين هيوفيل" أن تقول أنها ستفقد جميع الامتيازات المتناسبة مع وظيفتها فى مجلة "ذا نيشان"، فقط إذا أصبحت "الأمة" بخير؟ بمعنى آخر، لماذا هى لا تستخدم الشعار التالى: "ما هو مفيد للأمة، مؤذٍ لمن تدّعى مجلة" ذا نيشان" أنها تعارضهم".

فى السنة الأولى من وظيفتى الجامعية الحالية دعيت إلى حفلة على شرف خرّيجى القسم المتميّزين – وكلمة "متميّز" بالطبع تعبير لطيف عن كلمة "غنىّ". وبافتراض أن الخريجين كانوا من برنامج اللغة الإنجليزية بالإضافة إلى كونهم أغنياء، فليست مفاجأة كبيرة أن يكونوا جميعًا من البيض. وباستثناء اثنين، أنا وامرأة سوداء، فإن الحضور العشرين تقريبًا من الكلية كانوا أيضًا من البيض. وقد غادرت المرأة السوداء مبكرًا بسبب التزام سابق لديها.

طاقم تقديم الطعام المكوّن من أربعة أشخاص، مزدانين بالسترات البيضاء ذات الطبقتين، كان كلّه من السّود. بطاقمها الأسود المنتظر فى زىٍّ حائل اللون، وأعضائها البيض مترعين كئوس الخمر، كانت الحفلة مشهدًا من "الجنوب القديم"[1].

لم أُعتبر أبيض أبدًا من قبل زملائى، ولم أعتبر نفسى أبيض قطّ، لكننى فاتح اللون بما يكفى لتحقيق الغموض الاجتماعى عند التفاعل مع البيض الذين يتخيلوننى مؤيِّداً، بما يكفى لتركى أطّلع على السرّ. أى شخص قضى وقتًا فى أماكن مليئة كلها بالبيض يعرف بالضبط ماذا يكون "السرّ". إلى جانب أسلحة إسرائيل النووية، برغم ذلك، يتصادف أن يكون هذا هو أسوأ أسرار العالم المحفوظة، وهو سرّ يعرفه الأمريكيون الأفارقة أنفسهم جيدًا جداً. إنه سر، مع ذلك، لكن بمعنى أن أصحابه البيض يصرّون على أنه لا يوجد بالمرة.

---

(١) يحمل مسمى الجنوب الأمريكى القديم للجنوبيين البيض ذكرياتهم عن الرخاء والنظام الاجتماعى، أما بالنسبة للسود فهو يذكرهم بأيام العبودية والعمل الشاق فى الزراعة. (المترجم)

السر هو أنه فى الأماكن الاجتماعية الخالية من المشاركين السود، تصبح العنصرية مطلوبة بحكم الإتيكيت. العداء الصريح مقبول، لكن التعليقات الساخرة والاشمئزاز ستكون مقبولة أيضاً. هذه الحفلة، فى ذلك الحين، عملت كمنطقة آمنة حقيقية للتميّز الأبيض (مع أنه يجب ملاحظة أن غياب الأجساد السوداء ليس ضروريًا بالتأكيد للتعبير عن العنصرية البيضاء).

لم يمر وقت طويل على الضيوف المتأنّقين حتى بدأوا الشكوى من مجلس الكلية المكون من السود، مستنتجين أنه مع هذا المجلس دائمًا ما يوجد شيء خطأ.

انتقل الحديث بشكل حتميّ إلى اليمين المتطرف، وهو موضوع مفضّل بين الثرثارين الأكاديميين الليبراليين. (إن استحضار الناس الممقوتين ثم مهاجمتهم بعنف بطريقة تلفت الانتباه من أجل ممارسة العدل بدون ميزة التحقيق الفعلى، هى خاصية من خواص مهنة التدريس فى الجامعة) .

وسط الشكاوى المتكررة من الثيوقراطيين [١] زائدى الأهمية عن اللازم والسود الذين يستعرضون القوة، انضم عضو من الكلية إلى الحديث. "هل أسمعكم تتحدثون عن "جيرى فالويل"؟ "، وعلى تأكيدنا، علّق قائلاً:" الجميع فى العالم سيكونون فى حالة من الرضا، إذا حدث وقُبض عليه فى حجرة فندق مع ولد أسود".

الشخص الذى أبدى هذه الملاحظة ليس "جون نيكولاس" أو "كاترينا فاندين هيوفيل"، مع أنه، من وجهة نظر أخلاقية، ربما يكون أحدهما أيضاً. جميع المتحدثين الثلاثة يستخدمون الافتراض ذاته فى إنتاج ما يتخيلونه أن يكون مناقشة متحررة غير منحازة وذات معنى. هذه المناقشات تمثل شكلاً خاصًا غريبًا للخطابة الليبرالية البيضاء، والتى تظهر اهتمامًا بالعدالة الاجتماعية، بينما فى الواقع تعمل فقط من أجل الحفاظ على مصالح البيض. الليبرالية، مثل جميع الرؤى السياسية

---

(١) الثيوقراطى هو رئيس أو عضو حكومة تخضع لرجال الدين. (المترجم)

العالمية، هى شىء معنوى حتمًا، لكنها تُقدَّم هنا على أنها شىء محسوس، وتُمنح مجموعة من الالتزامات التى تُخضع جميع أشكال القوة الأخرى.

وجهة النظر الخطابية هذه خبيثة، لأنها تحتاج دائمًا إلى شخص ما لكى يُضَحَّى به. إنه المحروم من حقوقه المشروعة هو المرشّح حتماً للتضحية .

"سلاى" و"نيكولاس"، على سبيل المثال، يريدون فرض الديكتاتورية على الناس، طالما أن مصالحهما كأمريكيين محفوظة. نظرًا لتجرّده من أى عاطفة، فإن هذا النوع من المواقف يصنع أساسًا منطقيًا للإمبريالية والاستعمار، وفى النهاية ينشئ علاقة جدلية مع العنصرية. مركّزًا على مصلحة جيوسياسية ضيّقة كأساس لتحليل السياسة العامة، ينشئ" نيكولاس" تسلسلاً هرميًا، والذى يحول دون أى إمكانية واقعية لحوار يتخطى الحدود القومية، أو للتعاون. ثم يعيد تعريف الولايات المتحدة على أنها المكان الطبيعى للاعتدال السياسى. فى هذه المعالجة، هو، علاوة على ذلك، يثير العداء ضد العراق، المكان الذى أصبح فيما بعد، كما يرى "نيكولاس"، "مجنونًا جدًا". إنه من السهل أن تصبح غير مكترث بسكّان مثل هذا المكان.

إن شعار "فاندين هيوفيل" المتكرر فى أغلب الأحيان هو الأكثر سوءًا نوعًا ما، فقط لكونها مستعدة للتضحية ببقية شعوب العالم بالإضافة للعراقيين. لهؤلاء الذين ربما يثبتون أنه لا أحد من هؤلاء الليبراليين يؤيّد فى الواقع أى نوع من التضحية، أريد أن أشير إلى أن التضحية يمكن اكتشافها كمعنى ضمنىّ كامن، والذى بدونه سوف تفقد شعاراتهم وعباراتهم معناها سواءً كتلاعب بالألفاظ أو كتعليق. خذ على سبيل المثال تعبير "ما هو مؤذٍ للأمة، مفيد لمجلة الأمة"، ف- "فاندين هيوفيل" هى رئيسة تحرير مجلة "ذا نيشان" (الأمة)، وبالتالى لديها الرغبة فى زيادة توزيع هذه المطبوعة. على الرغم من أنه فى أى مناسبة أخرى يُحتمل أن تحاول" فاندن هيوفيل" إثبات أنه لا ينبغى التضحية بشخص فى سبيل شخص آخر، فإنها عندما تردد الشعار فى الواقع تقدم تلك الحجة، والتى تصبح عندئذ

مقياسًا مناسبًا لالتزاماتها الأخلاقية كليبراليّة شهيرة. إنها يفترض أن تكون ذكية بما فيه الكفاية لكى تعرف أنه على المرء ألاّ ينطق الشعارات التى لا تمثّل مشاعره بدقة. على أية حال، فإن اختيارها للشعار فى الموضع الأول هو دليل واضح على اهتمامها بمكانتها الخاصة كليبرالية متفانية، فى مقابل اهتمامها بمصلحة هؤلاء الذين يعانون مباشرة من الوضع السيئ للأمة the nation (وجريدة The Nation). لقد ابتدعت هذا الشعار، مع كل ذلك، إنه لم يسلّم لها جاهزاً.

إذا كان ثمّة أحد لا يزال غير مقتنع بالشعار ك – كلمة رمزية للأنانية الشديدة، فربما زميل "فاندين هافيل" السابق "ديفيد كورن" – هو الآن مع مجلة "Mother Jones" – يمكنه أن يساعد فى وضعه فى وجهة نظر أفضل، حيث يقول: "يجب أن أدفع فواتيرى، أنا لدى أسرة أريد أن أطعمها". "ما نقوله فى المجلة هو أن الشىء المؤذى للأمة مفيد لمجلة "الأمة " The Nation ".

لا نريد أن نظنّ أن الناس الذين يتلفظون بالمثل العليا يمكنهم فى الواقع أن ينخرطوا فى أنواع القوى التى يزعمون أنهم يعارضونها. ولهذا السبب، فإنه من السهل تبرير العبارات عديمة الفائدة فى ظاهرها على أنها نكات بريئة أو أنها فضولية خطابية. أريد أن أشجع الآخرين، مع ذلك، كى يستجيبوا بكل قوتهم، ليضعوا نُصب أعينهم حقيقة أن الليبراليين يلزم أن يعاملوا تمامًا مثل كل الحركات السياسية والشخصيات المؤثرة. لا أحد يجب يكون بعيدًا عن اللوم أو فوق الاعتراض. هذه النقطة حقيقية بشكل واضح فيما يخص هؤلاء الذين يدّعون بحماس شديد، أنهم يعملون بعيدًا عن أو فوق اللاأخلاقية.

يجب علينا أن نسأل أسئلةً جادة فيما يخص الليبراليين وأن نتحدّى قوتهم ذاتية الصنع، دونما اعتذار. المحافظون الجدد والعنصريون الصرحاء فى منتهى السهولة والوضوح. بالتركيز عليهم بشكل حصرى غالباً، نحن نمنحهم نوعًا من القوة لا يملكونه هم أنفسهم. وليس من الضرورى أنه توجد قوة حقيقية بين هؤلاء الناس. القوة الحقيقية ترحب بوجود المعارضة، لكن ما عندهم هو تخريب تستنكره

القوة. لم يظهر أبدًا أى تصريح مخرّب فى أعمال" نيكولز" ،" فاندين هافيل"، و"كورن".

لا أنسى أكثر شيء مثير للضيق فى العبارات المعروضة فيما مضى من هذا المقال. إنها تضمن موضعًا فى القمة، لأنها تمثل بلوغ الذروة فى مجالها. تعليق زميلى حول فعل الراحل" جيرى فالويل" [١] لما يجب أن يكون أشياء لا يصح ذكرها، هو خلاصة نوع المنطق الليبرالى الواضح فى خطاب هيئة مجلة "ذا نيشان". وبمعنى آخر، كان تعليق زميلى هو إلى أين سيؤدى هذا المنطق الذى لا يتغير. ليس لديه مكان آخر ليذهب إليه.

ومن المحتمل أن يرغب زميلى فى أن يبرر التعليق بالتأكيد على أنه بالفعل استثناء من أجل العدالة. إن "جيرى فالويل" ثيوقراطى خطير. إنه كاتب أخلاقى مداوم. وكما يحدث مع معظم الكتّاب الأخلاقيين فإنه مُلْزَم بأن يكون منافقاً، وربما منافقًا صادمًا إلى حدّ الاشمئزاز، وإلى الدرجة التى يمكن لمستقبله المهنى أن ينهار أو على الأقل يقبل بتسوية مذلّة. لا شيء يمكن أن يكون فاضحًا أكثر من ضبطه وهو يتحرش بطفل أسود. بدون وجود" فالويل" حولنا، فإن العالم سيكون مكاناً أفضل.

هذ المنطق غبىّ بشكل مضاعف، غبىّ فكرياً، والأهم من ذلك أنه غبىّ أخلاقياً. فكون الكتّاب الأخلاقيين منافقين فهذا ليس "خبرًا عاجلاً". فى الواقع، إن جوهر الأخلاقية هو التعفّف عن المتع الجسدية التى لا غنى عنها. من المستحيل أن تكون" كاتبًا أخلاقيًا" بدون أن تكون منافقًا أيضاً. الأمر لم يستلزم شهوانية وكاميرا خفيّة لكى تشوه سمعة" جيرى فالويل"، لقد تطلب الأمر نوعًا من التغيير الاجتماعى الذى يحتكر الكلام عنه الليبراليون أنفسهم. معلومة أن "فالويل" كان

(١) جيرى فالويل (١٩٣٣ ــ ٢٠٠٧)، قسّ أمريكى بروتستانتى متعصب، كان من أشد المتحمسين لإسرائيل والمؤيدين لسياسات جورج دابليو بوش.

يملك قوة وبرنامجًا سياسيًا تدل على أنه كان يقول أشياء كان الناس إما يؤمنون بها أو يريدون سماعها. وطبقًا لمنطق زميلى، إذاً، فالكثير من الأطفال سيحتاجون إلى أن يُتَحرّش بهم أمام الكاميرا من أجل وضع حد للممارسات الثيوقراطية. أليس الأسهل هو مساعدة الناس اجتماعيا واقتصادياً، لكى لا ينجذبوا إلى مجالات لا تتطلب فيها الحقيقة أى عمل فكرى؟

من وجهة نظر أخلاقية، هناك مسائل كثيرة جدًا تحتاج المناقشة، لذلك أريد فقط أن أسأل لماذا يكون ذلك الطفل الأسود مثيرًا للفضيحة أكثر من أى طفل أبيض أو طفل من الإسكيمو أو طفل من التبت؟ إن تحديد الحالة العرقية لهذا الطفل الافتراضى من أجل تضخيم غرض خطابى، هو تدعيم لأسوأ أبعاد العنصرية كقوة تاريخية قاهرة فى المجتمع الأمريكى. نعم، إن تلميح زميلى هو أن" فالويل" كان عنصريًا بالإضافة إلى كونه لوطيًّا فى الخفاء ونهّابًا جشعاً. ولكن "فالويل" كان عنصرياً، لأن الناس أمثال زميلى، إلى حدّ ما، هم الذين سمحوا له بأن يكون كذلك.

فكّر فى الأمر: يمكننا أن نفسّر عبارة زميلى - هذه أمنية، فى الواقع - على مدى أيام، وبعمل هذا سنتسبب فى غضب متصاعد. وبالأخصّ، رغم ذلك، فالأمر ببساطة مثير للاشمئزاز، حيث إنه يريد أن يعرّض طفلاً للانتهاك من أجل أن ينهى مستقبل "جيرى فالويل" المهنى - بما يعنى زيادة متعته الليبرالية. والتخلى عن الطفل غير الأبيض يوضح أن زميلى واعٍ تمامًا بقيمة معظم المحرومين منّا من حقوقهم المشروعة، بالنسبة لذوى الامتيازات.

الخاصية المشتركة بين كل هذه الشعارات والتعبيرات هى أن كل متحدث يعرّف نفسه على أنه مدافع عن العدل، دون أن يمتلك أى معرفة حقيقية بمعظم هؤلاء الذين يحتاجون للعدل. فى الواقع، ما ينجح فيه كل متحدث هو أن يلغى معظم هؤلاء الذين يحتاجون للعدل، حتى لو ادّعى - هو أو هى - أنه يتحدث لمصلحتهم. وتلك هى المشكلة، هذه الاستثناءات الليبرالية من أجل العدالة هى فى الأساس غير عادلة. إنها مبتذلة جدًا لأنها تخلق حاجة للتدخل المستمر.

إن حلول المشكلات المزمنة يمكن أن تكون أمورًا معقدة، لكن حل هذه المشكلة، الموجودة منذ سنة ١٤٩٢م، سهل: المبدأ الأخلاقى لا يجب أن يكون حكمة أخلاقية، كما أنه لا ينبغى أن يُعدّل لحماية المؤسسات والرؤى السياسية العالمية. والناس ستتعامل معه بشكل أفضل. المبدأ الأخلاقى هو إشراك الآخرين جميعًا كنظراء متساويين أخلاقياً. هذا المبدأ فى حد ذاته لن يغيّر العالم. لكنه البداية الضرورية للتغيّر العالمى.

عاجلاً أو آجلاً، الأطفال السود، والعراقيون، والمكسيكيون، والهنود الحمر، والفلسطينيون سوف ينطلقون من غرف الفنادق الرطبة والمصانع الاستغلالية والمستودعات والسجون الاستعمارية. سوف يضعون أيديهم فى أيدى بعضهم البعض، ويؤلفون هذه الرسالة :

أعزاءنا الليبراليون المهتمون بالأمر:

نحن بشر لا يريدون أن يكونوا أدوات مساندة فى أى أوضاع أخلاقية حقيرة. نحن المهمّشون. نحن المحرومون. نحن غرباؤكم المعروفون. إننا نحمل تاريخًا صامتًا على كواهلنا. لدينا أعداد كبيرة من المصالح التى تحبون أن تتحدثوا عنها. لقد وقعنا فى فخ التناقض اللفظى الرهيب. وننتظر بلهفة اليوم الذى يتوقف فيه الضعيف عن أن يكون قابلاً للضياع حتمًا .

دعيتُ لارتكاب الإبادة الجماعية

إننى الضحية والمرتكب لجريمة الإبادة الجماعية. لقد شُرِّدتُ بواسطة قوةٍ همجيةٍ ثقافية، والتى اضطرتنى لأن أصبح همجيًا ثقافياً. لقد أعَرْتُ اسمى لهؤلاء الذين يشتهون قتل البشر .

أنا مسيحى عربى .

إن كينونتى تتحدى الوضوح الأخلاقى .

لم أعرّف نفسى أبدًا فى مقال أو تذييل على أننى مسيحىّ، لأنه ببساطة حتى عهد قريب لم يمثّل كونى مسيحيًا شيئًا مهمًا بالنسبة لى، على الأقل ليس بشكل صريح. المسيحية عنصر أساسى فى كينونتى. ولأننى عربى، فأن أكون مسيحيًا هو أن أكون منغلقًا فى حيّز ثقافى معين، وأن أدّعى ملكية تاريخ باقٍ، وإن كان غامضاً. لكننى لا أمارس المسيحية بطريقة ورعة عادةً. أنا مجرد مسيحى. إننى أقول ذلك كمحدّد ثقافى وليس كمجاهرة بالعقيدة، أو كتكريس لِخُلُقٍ دينى.

دعونى أصوغها بهذا الأسلوب: أنا لا يمكننى أكون مسيحيًا بحق بينما أنا لست عربيًا كذلك.

فى حياتى ككاتب وأكاديمى كنت أفضل أن أتصوّر نفسى كمشارك فى الجماعات القومية، والتى تكون مستقلة ومميّزة فى آن واحد. هذه الجماعات مستقلة لأنها تنشأ من وجهات نظر اجتماعية عالمية تتجنب الخلفيات الدينية، وهى مميّزة لأنها تعطى الأولوية للهويّة العرقيّة. أنا أعرّف نفسى إذن على أننى عربىّ أو أمريكى عربىّ، كلمة عربىّ تدلّ على الأصل العرقّى، وكلمة أمريكى عربىّ تشير إلى الانتماء العام. أنا أتجنّب تمثيل نفسى فى هويّات دينية متعددة، والتى يمكن أن تنتهك المثل العليا للوحدة القومية والعرقية. على سبيل المثال، أنا أشعر بصلة قرابة حقيقية مع المسلمين الأردنيين والفلسطينيين، وليس مع معظم المسيحيين الأمريكيين البيض.

ولكن مؤخراً، ولأول مرة فى حياتى، اكتشفت صلةً بما كان بشكل مختلف بعدًا راسخًا فى هويّتى. لقد وصلت إلى هذا الاكتشاف لأننى انقدتُ إليه بشكل عفوى.

نوع ما من الحرب الثقافية قد ثار حول المسيحيين العرب، والفلسطينيين بشكل خاص. أحد آثار هذه الحرب الثقافية هو إحلال الرمزية الروحية محل الإنسانية الحقيقية المسيحيين العرب. الحرب الثقافية تضع العرب فى موقع المساعدين وليس المشاركين فى حوار ذى شأن مهم بالنسبة لهم. وأثرها الأكثر مباشرة، رغم ذلك، هو الحكم على المسيحيين العرب بأنهم متورطون فى نشر الإبادة الجماعية.

نشر الإبادة الجماعية مزعج إلى حد بعيد لكن دعونا، مع ذلك، نبدأ بالرمزية الروحية، لأن المسيحيين العرب لا يمكنهم أن يكونوا مشاركين فى جريمة الإبادة الجماعية إلا إذا أجبروا على أن يكونوا خدمًا بدلاً من أن يكونوا بشراً. الحرب الثقافية على المسيحيين العرب قامت فى الأغلب بسبب الاهتمام المستجدّ الذى أبداه تجاههم الإنجيليون الأمريكيون التدبيريون [1]، أو الصهيونيون المسيحيون. يضم الصهيونيون المسيحيون فى صفوفهم هؤلاء القادة المؤثرين مثل الراحل" جيرى فالويل" ،" تيم لاهاى"، و" بات روبرتسون". لا يوجد نقص فى السياسيين بطريقة أو بأخرى فى عملهم، وقد نشأت إمبراطوريات الإعلام من نظرية لاهوتية تدبيرية.

مؤخراً، زعم التدبيريون أن المسيحيين الفلسطينيين هم سكان متناقصون فى العدد فى الأراضى المقدسة. هذا الزعم حقيقى بكامله. فالمسيحيون الفلسطينيون،

---

(١) طائفة بروتستانتية صاغت لنفسها عقيدة تتعلق بعودة المسيح، وتؤمن هذه الطائفة بأن الله هو مدبّر كل شيء. وأن في الكتاب المقدّس نبوءات واضحة حول الوصايا التي يحدد الله فيها كيفية تدبير شؤون الكون ونهايته: عودة اليهود إلى فلسطين، قيام إسرائيل، هجوم أعداء الله على إسرائيل، وقوع محرقة هرمجدون النووية، انتشار الخراب والدمار ومقتل الملايين، ظهور المسيح المخلص، مبادرة من بقى من اليهود إلى الإيمان بالمسيح.... (المترجم)

الذين شكلوا فى وقت من الأوقات نسبة من ١٥ – ٢٠ فى المائة من السكان العرب فى فلسطين، عددهم الآن يقارب اثنين فى المائة. إنه أمر متوقع بشكل نظرى أن تكون فلسطين بدون مسيحيين مستقبلاً. التدبيريون يرجعون تلك الهجرة الجماعية إلى وحشية المسلمين الفلسطينيين. وهذا الادعاء لايمكن إقامة الدليل عليه تمامًا وهو زائف بشكل معيب.

فى هذا النوع من الخطاب، استُخْدِمَ المسيحيون الفلسطينيون فى موقف سياسيى يعارضونه بشدة. هذا الموقف السياسى يؤدى إلى الظاهرة الحقيقية التى تسببت فى أعدادهم المتلاشية : الاستعمار اليهودى لفلسطين. إذا تمكن التدبيريون من فعل ما يريدون فإن المسيحيين المتبقِّين فى فلسطين سيتعرضون للإبادة الجماعية، كما سيحدث مع الملايين الخمسة من إخوتهم المسلمين.

الصهيونيون المسيحيون يؤمنون بلا كلل بحق اليهود فى استعمار فلسطين، وهى عملية ينظرون إليها على أنها استعادة لإسرائيل التوراتية، وأنها المبشّر الأساسى بفرحة عودة المسيح. وطبقًا لهذا المخطط، فإن الفلسطينيين، مسلمون ومسيحيون على السواء، لديهم خيارات قليلة، ولا واحد من هذه الخيارات يؤدى إلى القدرة على الوفاء بالمتطلبات السياسية، أو القدرة على الوصول إلى الحقوق الإنسانية. معظم التدبيريين ينادون بنقل الفلسطينيين بالقوة إلى الأردن، حيث من المفترض أن يمكنهم تكوين دولتهم الخاصة بهم (أو فعل أى شىء يريدونه، طالما أنهم لا يعطّلون الاسترجاع اليهودى لفلسطين). بعض من أولئك يرى، تدعيمًا لهذه السياسة، أن رفض الفلسطينيين للمغادرة سيحتاج ببساطة إلى أن يواجه بحسم. الصهيونيون المسيحيون الأكثر استنارة – وهم عدد لا يعدو كونه غير مهم وملىء بالتناقض – غير متحفِّظين على بقاء الفلسطينيين فى الأراضى المقدسة بأعداد صغيرة، ما دام هؤلاء الفلسطينيون القليلون يخضعون أنفسهم تمامًا للسيطرة اليهودية.

بمعنى آخر، تشجع الأيديولوجيا التدبيريّة إسرائيل على التطهير العرقيّ للفلسطينيين، جميع الفلسطينيين، بما فيهم هؤلاء الذين قد يتصادف أن يكونوا مسيحيين. لقد اكتشف التدبيريّون مؤخرًا أن المسيحيين الفلسطينيين يمكن مع ذلك استدعاؤهم للمساعدة فى هذه الإبادة الجماعية، ومصيرهم كضحية لها، بالطبع، على الرغم من ذلك. هذا الاستخدام قد يكون مستحيلاً دون تحويل المسيحيين الفلسطينيين من حالة البشرية المادية إلى مجاز مرسل.

هناك حقيقة أكثر ذاتية، ويقينية، وهى كالآتى: لأن الصهيونيين المسيحيين يستدعون المسيحيين الفلسطينيين لكى يسهّلوا الإبادة الجماعية، فأنا أصبح إذن متورّطًا على الأقلّ بشكل غير مباشر فى قاموسها الخطابى. إن إشفاقى لا يعنى شيئًا تجاه عملية التورّط هذه، وعلاقتى الابنيّة بالخاضعين لهذه الإبادة الجماعية هو اختلاف فضولىّ فقط. هؤلاء الذين يسمحون لأنفسهم بأن يوضعوا عن جهل فى مواقف يفترض أنهم يعارضونها بوعى، يصبحون متورّطين من خلال الغفلة أو فى النهاية من خلال اللامبالاة. مثل أى شخص آخر، المسيحيون العرب لديهم كل من الحق فى والحاجة إلى التعبير عن مواقفهم الخاصة.

وفيما يخص قضية الإبادة الجماعية الإسرائيلية هذه، والذى من المؤكد ألجأ بعض القراء إلى التركيز على الدلالات، أريد أن أضع فاصلاً بين الموقف السياسى الراهن فى إسرائيل / فلسطين والموقف المرغوب من قبل الصهيونيين المسيحيين، والذى له أهميته هنا. هناك جدال جاد حول ما فعلته إسرائيل بالفلسطينيين فى الماضى وما تستمر فى فعله ب-هم الآن، وجميع أنواع المفردات يمكن أن تطبّق (وقد طبّقت بالفعل) على سياسات وممارسات الاستعمار الإسرائيلى. عالم الاجتماع الإسرائيلى" باروخ كيمرلنج"، على سبيل المثال، استخدم كلمة **politicide**، وهى كلمة ملحقة على political access الوصول السياسى. العلامة الأديب الفلسطينى إدوارد سعيد كان مغرمًا بكلمة" نزع الملكية" dispossession، وهى عبارة واسعة فى المجال، لكنها مألوفة فى التأنيب الأخلاقى. عدد كبير من الكتّاب، ومنهم أنا،

يميلون إلى كلمة "التطهير العرقى" ethnic cleansing، وهى كلمة وصف واضحة، ومع ذلك، تشير ضمنًا بشكل مختلف أكثر من كلمة" الإبادة الجماعية" genocide.

بعض الناس، على أية حال، يفضلون كلمة الإبادة الجماعية genocide الصريحة الوحشية لمجموعة من الأسباب، وفى المقام الأول منها حقيقة أن هدف إسرائيل المعلن منذ مدة طويلة هو الإبقاء على أغلبية سكانية يهودية. هذا الهدف قد أفرز على مدى عقود سياسات كانت ترمى إلى إزالة أى وجود للثقافة الفلسطينية، بعضهم كان يستخدم القياس المنطقى الواضح، وهو أنه لإزالة أى شعب فالطريقة الأكثر تأثيرًا هى محو ثقافته من الوجود.

إن ما يتصوّره العديد من التدبيريين، من الناحية الأخرى، يمكن أن يكون إبادة جماعية نشطة، مقارنة بأسوأ الأمثلة لهذا العمل على مدى التاريخ. إنهم يقترحون نقلاً قسريًا للسكان على نطاق واسع، أو قتلاً صريحًا للعرقية الفلسطينية وحدها (أى غير اليهود)، وهو أكثر شكل مفهوم للإبادة الجماعية (على الرغم من أن الإبادة الجماعية لا تحتّم فقط القتل الفعلى للناس). دعونا نضع هذا الاختلاف فى الحسبان بينما نحن مستمرون، وهو الوحيد الذى يصوّر البديل الأكثر وحشية للبربرية الإسرائيلية المستمرة، مهما سميناها.

إنه بسبب هذه الإبادة الجماعية المأمولة، قررت أن أمارس حقى الابنىّ فى أن أتحدّث كمسيحى عربى. إنها طريقة لإعلان صوتى فى فضاءات بدأ يشغلها، على الرغم من إحجامى عن ذلك. وإنها لطريقة لتغيير إطار الحديث حول الدين والعرقية فى الولايات المتحدة.

لقد لاحظت أن الناس يحبون أن يشيروا إلى على أننى "مسيحى عربى" عندما يصفون عملى، على الرغم من أن عملى لا يصف هويّتى فى الواقع فى هذه الأحوال (استثناء واحد جدير بالذكر هو قسم حول "الصهيونية المسيحية" فى كتاب "العنصرية ضد العرب فى الولايات المتحدة" (Anti-Arab Racism in the

USA). رسالة فى إحدى المدوّنات، على سبيل المثال، تقول: "ستيفين سالايتا هو مسيحى عربى، أستاذ فى اللغة الإنجليزية، ومؤلف كتاب ...". (إذا كانت النتائج توضح المقدمات، فأنا عندئذ أفترض أننى يجب أن أوضح أن كونى أستاذًا جامعيًا هو شيء له أهمية أكبر بالنسبة لهويّتى من كونى مسيحيًّا). وكذلك هناك مدوّنات أخرى ومنتديات مفتوحة تلحق عبارة" مسيحى عربى" بنهاية اسمى .

فى تقديم حول الصهيونية المسيحية فى" مجلس المصلحة الوطنية " the Council on National Interest، أشار" روبرت أو. سميث" إلىّ على أننى "باحث مسيحى عربى". وقد سألنى الرجل المهذّب" سميث" سلفًا عما إذا كان بإمكانه أن يشير إلىّ هكذا، وقدد أجبته بأننى سأكون مسرورًا إن فعل ذلك، تمامًا لأن طبيعة الوصف، التى تفيد فى ذلك الإطار لتوضيح أن المسيحيين العرب لا يريدون أن يوضعوا كغرض فى الخطاب الحماسىّ لأناس مثل "بات روبرتسون" و"جارى باور". لقد حاول استعمال "سميث" للكلمة أن يوجّه الهوية المسيحية فى تطبيق عملى تاريخى وعرقى بوصفها مضادة لمغزاها السياسى الوقح فى استعمال التدبيريين لها.

إلا أنه ما زال مهمًّا أن نلاحظ أنه لكى أحدّد هويّة شخص ما عن طريق ميولى السياسية وانتماءاتى المعلنة ك-"مسيحى عربى"، فإن ذلك بمثابة تأدية عمل خطابى واضح، أنا الذى آمل فى إقناع الأمريكيين بالتواصل مع العرب على أساس أنهم آدميون وليسوا همجاً. كلمة "مسيحى" على الرغم من التعديل بصفة "عربى"، تنشىء تبادليّةً متخيّلة يمكن أن ينتج عنها نوع ما من الألفة. إنها هذه الألفة المتخيّلة (أو المرغوبة) التى من المفترض أن تلزم الأمريكيين بأن يعترفوا ب- إنسانية العرب بدلاً من النظر إليهم على أنهم غرباء، وخاصة الفلسطينيين. وهكذا فإن وصفى على أننى" مسيحى عربى" يتطلّب من أولئك الذين قرأوا أعمالى حول العنصرية ضد العرب والتطهير العرقى الإسرائيلى والإمبريالية الأمريكية، أن يعطوا تلك الأعمال الفرصة، بدلاً من تجاهلها على أنها غضبٌ إسلامىّ صميم.

المشكلة، رغم ذلك، هى أنها ليست فكرة جيدة أن نستخدم أعمالاً خطابية تحتاج من الآخرين إلى البحث عن الألفة على أنها أساس التواصل الفكرى، فالأمانة الأخلاقية يجب بدلاً من ذلك أن تكون هى المعيار. الألفة المتخيّلة لها أكثر من أثر للقرار الجماعى المتضَمَّن فيها، وبالتالى احتمالية حدوث جميع أنواع النتائج المزعجة.

أو، لتوضيح الأمر أكثر، ليس من العدل (بل وعنصرى بشكل مثير للجدل) أن نرجع الخلاف الإسلامى حول السياسات الإسرائيلية والأمريكية إلى المرض الثقافى أوالاتجاهات السياسية المكتسبة، والتى هى بالضبط ما يفعلها الناس عندما يقررون أنه من الأفضل للمسيحى أن يكون أول من يبلغ الأخبار الواردة عن الوحشية الإسرائيلية أو الغباء الأمريكى إلى المسيحيين الآخرين، حتى إن لم يكن هذا هو ما يقصدون فعله. إنه ليس من الصعب فهم الحقائق الأساسية لهذا القرار. وامتلاك المسيحى العربى المزيد من الشرعية كمُدافع فى الولايات المتحدة ضد التطهير العرقى الإسرائيلى أمر حقيقى على الأرجح. النقطة الأساسية هى أن نسأل ما الذى نضحّى به كقوى فكرية عندما نخضع لهذا الواقع. الشىء الأكثر وضوحًا أنه تم التضحية به هو قدرة المسلمين على توضيح الحقيقة بدون التشكك المسيحى. يجب على المسلمين العرب ألاّ يتوسّلوا بوجود المسيحيين العرب كمدخل إلى المنتدى العام. إن حقيقة هذه الشرعية المسيحية المتأصّلة هى سبب للانزعاج، وجديرة بالاجتثاث لأن التخلص منها سيبرز أهمية إجراء تغيير ضرورى فى مواقف الأمريكيين المسيحيين تجاه العرب والمسلمين.

يمكننى أيضًا أن أعبّر عن الأمر بطريقة مختلفة نوعًا ما: لا أريد أن أضطر لأن أكون مسيحيًا لكى أكون مستحقًا للاستماع إلىّ فى الولايات المتحدة. أنا وإخوتى المسلمين ينبغى أن نكون جديرين بالاستماع إلينا لأننا لدينا شىء ما ذو شأن نريد قوله. إذا توقفنا عن قول أشياء ذات أهمية عندئذ سيكون من اللازم تجاهلنا. المسلمون العرب، مهما يكن، يجب ألاّ يتم تجاهلهم، ببساطة لأن أصلهم

الدينى يفشل فى أن يثير التعاطف الابنى. الحيلة الخطابية لتحديد الخلفية المسيحية لدى المثقفين العرب تزيد من خطر تجاهل الأغلبية الكاسحة من الأصوات فى العالم العربى.

عاجلاً أو آجلاً، سيحتاج الأمريكيون إلى أن يكونوا على اتفاق مع العرب، مبنىّ على من هم العرب، وليس على ما ماذا يريد الأمريكيون من العرب أن يكونوا. على الرغم من أننى مسيحىّ إلا أننى لدىّ القليل من الاهتمامات والأفكار المشتركة مع الأمريكين المسيحيين غير العرب، إلاّ إذا كانت نشاطاتهم السياسية موجّهة نحو التحرر الفلسطينى الحقيقى، أو نحو القضاء على العنصرية الليبرالية فى الولايات المتحدة. إن كونى مسيحياً، عندئذ، ينبغى ألاّ يُضار كمصافحة خطابية إذا شككت أن يد زميلى اليسرى تخبّئ أصابع رافضة خلف ظهره. علاوة على ذلك، فإن تحديد هوية دينى شىء زائد عن الحاجة ولا يثبت سوى نوع الجهل، الذى أعتقد أنه يضيف إلى قدرة إسرائيل على تشريد الفلسطينيين واستعمار بلادهم. أى شخص يعرف أى شىء عن العالم العربى سيدرك أنه باسمٍ مثل "ستيفين" أنا أعتبر مسيحياً، والشخص الأكثر معرفة يمكنه أن يقدم تخميناً ملمًا (بدقّة) وهو أن اسمى يشير بالتحديد إلى خلفية مسيحية أرثوذكسية.

مسألة الاستراتيجية ليس من السهل تجاهلها، مع أن أحد أصدقائى المقرّبين، وهو أمريكى عربى مسلم ذكى جداً، يعتقد بشدة أن المسيحيين الفلسطينيين هم المفتاح لتحويل الأمريكيين المسيحين بعيدًا عن مواقفهم المؤيدة إلى حد كبير لإسرائيل. الفكرة هى استثارة دوافعهم العقائدية (والتى، مثل جميع الأشياء الأخرى التى تبدو أنها ناشئة عن دوافع، تكون مشتركة اجتماعيًا). هذا التفكير مشابه لبعض الفرضيات الأساسية فى مجالات مثل الأنثروبولوجى وحلّ الصراعات، التى تفترض أن الاهتمامات الجماعية تحكم النظام الاجتماعى وأن الهوية الجماعية تؤثر بشكل خطير فى صنع القرارات السياسية والاقتصادية. لذلك، إذا كان الأمريكيون مجبرين على الإقرار بارتباط حقيقى مع الفلسطيسنيين وليس الإسرائيليين، عندئذ

سوف تُملى معتقدات الهوية الجماعية تغييرًا فى المشهد السياسى. هذا النوع من الاستراتيجية واقعى فى الأساس ومناسب للاحتمالات الأخلاقية أو الفلسفية، بدرجة أقل منه للنتائج القابلة للقياس.

أنا أحترم هذه الاستراتيجية ولكننى أجدها فى النهاية تنطوى على مشاكل. لا أحب أن أعبر عن رد فعلى من خلال نموذج المؤيد/ المعارض، لأننى أريد له أن يكون أكثر تعقيدًا من مجرد الاتفاق أو عدم الاتفاق. (هناك طرق عديدة لإنجاز أهداف سياسية ولإنتاج تحليل أخلاقى، ولكن لا الأهداف ولا التحليلات يمكن إنجازها بدون الجماهير، والتى أحيانًا تكون منسجمة وأحيانًا متعارضة). وبالمثل، لا أريد أن أجادل فيما إذا كانت هذه الاستراتيجية رديئة أو حتى أنها سوف لا تكون فعالة. إنها من المحتمل إلى حد كبير أن تكون فعالة، على الأقل فى المجالات المحلية. أنا فضولى فقط فيما يتعلق بتكلفة فعاليتها، وفيما يتعلق بما يضحّى به على المدى القصير لتطبيق الاستراتيجية، وكيف تؤثر تلك التضحيات على المستقبل طويل المدى لكل من الفلسطينيين والأمريكيين العرب .

السكان الفلسطينيون فى الأراضى المحتلة، على سبيل المثال، هم ٩٧% مسلمون وتقريبًا ٢% مسيحيون (توجد أقليات دينية فلسطينية أقل عددًا مثل الدروز والبهائيين). نسبة الاثنتين فى المائة من المسيحيين يمكن أن تمثل بشكل مناسب نسبة السبعة والتسعين فى المائة من المسلمين إلى تلك الدرجة، حيث إن المسلمين الفلسطينيين والمسيحيين يشتركون فى تاريخ وثقافة ورؤية سياسية واحدة. إلاّ أنه بالضبط بسبب تلك الظواهر المشتركة فإن منح امتيازات للأقلية المسيحية على حساب المجتمع بكامله هو أمر مثير للشبهات. إن التعريف بالسياسات التحررية الفلسطينية من خلال متحدثين رسميين مسيحيين يجعل تلك السياسات تبدو أكثر شرعية بالنسبة للأمريكيين. لا يوجد شكّ فى أن تلك السياسات، التى ليست شرعية فقط بل واجبة أخلاقيًا، تحتاج إلى أن تؤخذ بجدية أكثر من قبل الأمريكيين. المشكلة هى أن تقديم هذه السياسات بواسطة مسيحيين فلسطينيين ذوى امتيازات لا

يمنح وحده الشرعية أو ينزعها عن تلك السياسات. إنه يضخّمها بدون أن يغيّر فيها شيئاً. بمعنى آخر، إن التعريف بالسياسات التحررية الفلسطينية من خلال متحدثين رسميين مسيحيين يجعل تلك السياسات تبدو أكثر شرعية فقط، لكنه لا يجعلها شرعية بالفعل. إنه يخلق فهمًا للشرعية يستمر فقط طالما بقى الإسلام مقموعاً. إن الأمريكيين يحتاجون فى النهاية إلى التعامل مع ترجمة إنسانية للإسلام تسمح لهم بالتعامل مع المسلمين وشكاواهم بجدية. وبدون هذا التغيير، فإن المسيحيين العرب ليسوا أكثر من وَهْمٍ خلاّب.

هذا واحد من المبررات التى بسببها أعتبر نفسى مشاركًا فى هويات عرقية وقومية وليست دينية. أريد للمسيحيين الفلسطينيين أن يتحرروا وأريدهم أن يعيشوا فى ديمقراطية فعّالة تحمى حقوق الإنسان، لكننى أريد لهم ذلك بالإضافة إلى المسلمين الفلسطينيين. لذلك أنا ملزم أخلاقيًا برؤى شاملة تقترح أهدافًا قومية ودينية متعددة.

على أية حال، فإن الأقليات العرقية فى الولايات المتحدة والشعوب المستعمرة حول العالم لديها رغبة مشتركة فى تدمير المعادلة الضمنية للسياسات الأمريكية السائدة عن طريق النزاهة المعيارية، من خلال الادعاء بأن الآخرين يتوافقون مع الأنماط الأمريكية السائدة للمعيارية. تصوير المسيحيين العرب على أنهم واجهة فلسطين من أجل إحداث مشاعر متعاطفة بين الأمريكين، يعزّز بذكاء هذا القاعدة المؤثرة للمعيارية .

إلا أن هذه اللحظة تتطلّب أن تتكلّم الأصوات المسيحية العربية فى الولايات المتحدة، بسبب ادعاء التدبيريين بأن المسيحيين يجبرون على الخروج من الأراضى المقدسة بسبب غدر المسلمين الفلسطينيين.

على مستوى أساسى، أنا أريد أن أؤكد على هوية مسيحية عربية، ببساطة لكى أستجمع الثقة بالنفس لأعلن قائلاً: أنا مسيحى عربى. لا تستخدمونى لتأييد

الإبادة الجماعية. ليس لكم الحق فى استخدام اسمى، ثقافتى، تاريخى، وأجدادى من أجل أن تشجعوا مستعمرينا. لم نطلب تدخلكم لصالحنا، نحن نرفض إيثاركم المستغرَب للغير. نحن نقف فى تماسك مع إخواننا وأخواتنا المسلمين الفلسطينيين، رفقائنا ضحايا التطهير العرقى الذى ينفذه اليهود الذين قدمتم لهم الدعم المالى والمعنوى المتواصل. نحن نرفض ادعاءاتكم الزائفة، ونرفض أن نُستخدم كجنود للمساعدة فى تدميرنا نحن أنفسنا.

لقد استجاب المسيحيون الفلسطينيون بدرجة أكبر أو بدرجة أقل هكذا. فى عام ٢٠٠٦، على سبيل المثال، أصدر رؤساء جميع الكنائس فى القدس بيانًا صيغ فى عبارات قوية ونشر على نطاق واسع، بدأ ب- : "نحن نرفض بشكل قاطع معتقدات الصهيونية المسيحية بوصفها تعاليم خاطئة تفسد رسالة الكتاب المقدس الخاصة بالحب والعدل والوفاق". كما أكد البيان على أن" الفلسطينيين شعب واحد، بكل من مسلميه ومسيحييه. نحن نرفض جميع محاولات هدم وتفتيت وحدتهم". وقد أعلن مسيحيون عرب آخرون مجاهرتهم بالتضامن مع نظرائهم العرب، مثلما حدث عندما عقد وفد أمريكى عربى شمل كلاً من "ديبورا ناجور" و"نادين نابر" و"وارين ديفيد" مؤتمرًا صحفيًا فى "ديترويت" فى صيف ٢٠٠٦ لإدانة إسرائيل، وخاصة بوصفهم مسيحيين عرب.

هناك مبررات أخرى للمسيحيين العرب للرد بوقاحة على التدبيريين. فبتعبيرهم عن الانزعاج، مهما كان صوريًا، من أجل مسيحيى فلسطين، يلمح التدبيريون على الأقل إلى صلة غير مباشرة بينهم وبين المسيحيين الفلسطينيين. فى الواقع، الفريقان لديهما بعض الأشياء المشتركة. المذهب المقتنع به بين مسيحيى فلسطين يؤمن بأن المسيح عيسى ابن الله، ويؤمن بصحة حادثة صلب المسيح الواردة فى الإنجيل، تمامًا كما يفعل جميع التدبيريين. هذا تشابههم الأساسى والوحيد. أريد أن أشكّ فى أن أناسًا مثل "توم ديلاى" و"هال ليندسى" يهتمون، لكن المسيحيين العرب يمقتون الصهيونيين المسيحيين بصفة عامة (أتصور أن الأسباب

واضحة الآن). إن المسيحيين العرب لا يشعرون أيضًا بأى صلة تاريخية أو ثقافية مع التدبيريين، الذين يتمسكون بنظرية لاهوتية وتفسير للكتاب المقدس مختلفين بشكل واضح. الأغلبية الكاسحة من المسيحيين فى فلسطين تُستغل بشدة كحالة مميزة بانتمائهم إلى المجموعة الوحيدة فى العالم للمسيحيين المتأصلين فى بلادهم، وبكونهم عنصرًا محوريًا فى أمة فلسطينية مضطهدة. إذا لم يتخلّ الصهيونيون المسيحيون عن مساندتهم لإسرائيل، فإنهم سوف لا تكون لهم أبدًا القدرة على التحدث لصالح المسيحيين الفلسطينيين باستثناء ما يفعلونه الآن ككذابين ومتطفّلين.

مبرر واضح آخر يجعل المسيحيين العرب بإمكانهم أن يدافعوا عن هوياتهم الابنية فى مواجهة التدبيريين، هو من أجل الحقيقة الأساسية، على الرغم من أنه لا حاجة لأحد فى الانتماء إلى أى جماعة عرقية خاصة أو قومية لإثارة الحقيقة الأساسية وهى أن الصهيونيين المسيحيين مخطئون تمامًا فيما يتعلق بأسباب الهجرة المسيحية من فلسطين. فى البداية، نريد توضيح أن عشرات الآلاف من المسيحيين الفلسطينيين قد شُرّدوا فى مواقع عديدة منذ سنة ١٩٤٨، وتصنيف هذا التشريد على أنه هجرة هو تزوير فاضح للتاريخ. المؤرخ "سامى هداوى" قد أوضح، لتقديم مثال واحد فقط، أنه فى عام ١٩٤٨ أكثر من نصف مسيحيى القدس الغربية قد طردوا من منازلهم بواسطة اليهود، وهذا أكبر انخفاض عددى على الإطلاق للمسيحيين الفلسطينيين. وقد كتب "إلياس شاكور" وهو أحد قسيسى طائفة الروم الملْكيّين، بتأثّر عن طرد كل السكان المسيحيين فى قرية "بيرام" بالجليل وتدميرها اللاحق بواسطة الجيش الإسرائيلى. إن المسيحيين الفلسطينين لديهم قصة بعد القصة البشعة لطردهم والتعاسات اللاحقة فى حياتهم تحت الاحتلال الإسرائيلى.

بعد ذلك، من المهم أن نلفت النظر إلى أن المسلمين الفلسطينيين فى الوقت الحاضر يهاجرون بأعداد أكبر من المسيحيين الفلسطينيين (حتى لو ضُبط التباين العددى). نظرية أن المسيحيين الفلسطينيين يهربون من غدر المسلمين، إذن، تواجه حقيقة مزعجة تفضح سببيّتها العنصرية. الرد العاقل الوحيد على هذه الحقيقة

المزعجة هو التفكّر فى لماذا يهاجر المسلمون (مفترضين، بالطبع، أننا سنستغنى عن نظرية أن المسلمين يهاجرون بسبب المسلمين). الإجابات متنوعة ولها علاقة معينة بالإمكانات الاقتصادية، والروابط العائلية فى الخارج، وعدم الاستقرار السياسى، وغياب الحريات المدنية، والفساد الحكومى. الهجرة الفلسطينية لها علاقة كبيرة أيضًا بالاحتلال الإسرائيلى، والذى يضخم الأسباب الأكثر عمومية التى تجعل السكان ينزحون أو يهاجرون.

إن أسباب هذه الهجرة الفلسطينية معقدة بشكل ملحوظ، والتى فى حد ذاتها تقوّض التفسير المضلل لوحشية المسلمين. على أية حال، فإن الفلسطينيين، الذين لديهم ارتباط عميق بأرض أجدادهم، لم يهاجروا فى أعداد كبيرة بشكل واضح، لقد فعلوا ذلك فيما يقارب المعدّل ذاته الذى فعله اليهود الإسرائيليين، الذين، بوصفهم المجموعة العرقية التى تستحوذ على كل القوة الاجتماعية والاقتصادية للأرض المقدسة، لا يمكنهم بحق إلقاء مسئوليتها على اضطهاد المسلمين. على كل حال، فإن الافتراض القائل بأن المسلمين الفلسطينيين يضطهدون المسيحيين الفلسطينيين هو افتراض خاطئ. الفريقان، اللذان يكوّنان معًا المجتمع القومى ذاته، لديهما تاريخ من التعايش السلمى الذى يعدّ نادرًا فى أماكن تشتمل على أقلية دينية واضحة. هذا إلى حد ما بسبب تأثير الإشفاق المسيحى على الأراضى المقدسة، ولكن أيضًا لأن المسيحين الفلسطينيين لعبوا دورًا قويًا فى تشكيل السياسات القومية الفلسطينية، وظلوا طويلاً قوة ثقافية واقتصادية فى المجتمع الفلسطينى. (انظر، سواء للأفضل أو للأسوأ، إلى أدوار شخصيات بارزة مثل جورج حبش، نايف المطوع، عطا الله حنا، حنان عشراوى، عزمى بشارة، إميل حبيبى، سها عرفات، جورج أنطونيوس، وهويدا عرّاف). أكثر من أى شىء آخر، مع ذلك، بإمكان المسلمين الفلسطينيين أن يفتخروا بتاريخ رائع من الانفتاح العقلى.

مسموح لنا أن نتساءل كيف، بافتراض دورهم المتكامل فى الثقافة والسياسة الفلسطينية، يكون المسيحيون الفلسطينيون مضطهدين من قبل مواطنيهم المسلمين.

الصهيونيون المسيحيون يدّعون أن ذلك بسبب تزايد التعصّب بين المسلمين والمبنى على صعود التيارات السياسية الإسلامية. هذا الادعاء جدير بالاهتمام لأنه حقيقى ظاهريًا ويقوم على أساس مجموعة من السياسات الشرق أوسطية المعاصرة وثيقة الصلة بالموضوع.

هناك بالتأكيد قلق بين أوساط المسيحيين العرب فى فلسطين وفى أماكن أخرى من صعود التيارات السياسية الإسلامية. كأقلية دينية، فإن المسيحيين العرب من حقهم أن يقلقوا مما قد يحدث لهم فى حالة حدوث انقلاب ثيوقراطى (كما يفعل أى شخص يقدر قيمة نوع الحرية التى لم توجد مطلقًا فى ظل الحكومات الدينية فى جميع الديانات). ومع ذلك، قد يكون الأمر خادعًا إذا تم قصر القلق على السكان المسيحيين فى العالم العربى، لأن العديد من المسلمين كذلك قلقون من التيارات السياسية الإسلامية. والأمر الأكثر أهمية هو أنه لا يوجد دليل على الافتراض القائل بأن القلق المسيحى العربى من الحركات الإسلامية يحفّز الهجرة بشكل حاسم أو حتى بشكل غير مباشر. القليل من المسيحيين العرب يذكر التيارات السياسية الإسلامية كسبب أساسى لهجرتهم إلى أوروبا أو الولايات المتحدة، إنهم يرجعونها بشكل ساحق، كما يفعل جميع المهاجرين الآسيويين، إلى الفرصة الاقتصادية. تسهم الحركات الإسلامية فى صنع حالة عامة من عدم الاستقرار السياسى فى العالم العربى، والتى بدورها تثير مشكلات اقتصادية، لكنها بشكل مطلق تضع هذه القوى فى حالة حراك. العوامل الأخرى مثل السياسات الخارجية الأمريكية العدائية والدعم المادى الغربى للطغاة العرب والتعدّى الإسرائيلى على الأراضى العربية، على الدرجة نفسها من الأهمية أو أكثر أهمية.

أخيراً، من الأهمية بمكان توضيح أنه بينما يلمح التدبيريون إلى أن هجرة المسيحيين من فلسطين تهدد وجود ثقافة متفرّدة، نجد الثقافة المسيحية الفلسطينية فى الواقع حيّة تمامًا فى أماكن مثل شيلى والولايات المتحدة وهندوراس وكندا وبريطانيا العظمى وفى أماكن أخرى. الثقافة المسيحية الفلسطينية كذلك سوف

تكون دائمًا حية فى فلسطين، لأنه طالما لا تمنع إسرائيل المسيحيين تمامًا من دخول أماكنهم المقدسة فإن وجودًا ثقافيًا سيستمر فى الانتشار فى أرجاء البلاد. إنه لا وجود لفلسطين بدون وجودٍ مسيحى. هذا الوجود جزء لا يتجزأ من المكان والثقافة الأصلية المنتمية لذلك المكان. وقد بدأت إسرائيل فى تدمير كلّ من المكان وثقافته الأصلية، وهكذا هى تشكّل التهديد الحقيقى الوحيد بتدمير الوجود المسيحى فى الأراضى المقدسة. سوف تتمّ إسرائيل تدمير هذا الوجود المسيحى فقط عن طريق طرد جميع الفلسطينيين. حتى لو رغبوا (وهم لا يرغبون)، فإن المسلمين الفلسطينيين لا يمكنهم تدمير الوجود المسيحى لأنه جزء من كينونتهم الثقافية والتاريخية. هذه حقيقة أساسية نجد الصهيونيين المسيحيين إما يرفضون فهمها أو أنهم يفضلون التعامل معها بجهل سافر.

وهذه هى النقطة الرئيسية فى الأمر كله فى تقديرى: لو أخذت لحظة لأؤكد هوية ابنية ولأتحدث كمسيحى عربى، فإن ذلك أساسًا لأنه توجد هناك حقائق متعلقة بوجودنا فى هذا العالم واختلافات بسيطة جدًا فى مشاركاتنا المتنوعة فى المجموعات القومية والثقافية. الصهيونيون المسيحيون لم يصلوا إلى أو يتلفظوا بأى من تلك الحقائق. إنهم غير مهيّئين ذهنيًا للاختلاف فى الرأى. إنه من واجبنا إذن أن نفعل ذلك – ليس لصالحهم، بل لمصلحتنا نحن كمسيحيين من أهل البلاد الأصلين .

إننى فى غاية الضّيق لكونى دعيت من قبل الأوغاد والثيوقراطيين لأبرر الاستعمار ونزع الملكية. لست منشغلاً بسخرية الصهيونيين المسيحيين المرَضيّة، الذين أجبروا المسيحيين الفلسطينيين على أن يحتفلوا بتشريدهم من بلادهم وتدميرهم. لقد دعونى لأرتكب الإبادة الجماعية. لقد شاركت فى تلك الإبادة الجماعية طوال الوقت الذى كنت فيه صامتاً. بعد ذلك أثبتُ حقاً مكتسبًا بالولادة كان قد سُرِقَ منّى، وتكلمت بوصفى مسيحيًا عربيًا. لكننى مدرك أنه ستأتى مرحلة عندها ستحتاج الأصوات إلى أن تعود إلى الترديد بشكل أكثر حميمية.

لذلك أود أن أسقط مرة أخرى هويتى الابنية كمسيحى عربى وأن أتحدث من خلال ابنية أكثر أصالة بوصفى إنسانًا: الرغبة الصهيونية المسيحية فى التحريض على الإبادة الجماعية للمسلمين تستحق الإدانة الصريحة، ولكنها تحتاج أيضًا إلى التدخل الفكرى الذى يتناول بجدية التكوين السياسى والثقافى المتعدد فى العالم العربى. وبهذا المعنى، فإن كل الحديث عن الإسلام والعرب فى الولايات المتحدة يجب أن يتطور إلى اختلاف أخلاقى، بدلاً من تكرار حقائق بديهية حول ثقافة ما قبل الحداثة والثقافة البدائية.

ينبغى أن أعترف فى رهان شخصى فى هذه المناقشة: إنه من خلال هذا الاختلاف الأخلاقى فقط أنا، الشخص المكوّن من هويات مشتركة، يمكننى أن أكون واضحًا أخلاقيًا. سوف لا أدخل فى هوية مسيحية، رغم ذلك، بدون كينونتى العربية الكاملة.

الانفتاح العقلى فى يوم الاستقلال

بالطبع، ليس كل الأمريكيين الأفارقة كسالى. بالطبع، ليس كل الهنود مدمنى كحوليات. بالطبع، ليس كل اليهود بخلاء. بالطبع، ليس كل الروسيات عاهرات. بالطبع، ليس كل المكسيكيين قذرين. بالطبع ليس كل الباكستانيين تفوح منهم روائح كريهة. بالطبع، ليس كل الأفارقة وحشيين. بالطبع ليس كل الإسكيمو يستخدمون (٢٥٠) كلمة كأسماء للثلج .

بالطبع ليس كل الآسيويين جبناء. بالطبع، ليس كل الأمريكيين جهلاء. بالطبع ليس كل اليابانيين طيارين انتحاريين. بالطبع، ليس كل الهنود رواقيين [١]. بالطبع، ليس كل الأمريكيين الأفارقة مجرمين. بالطبع، ليس كل العرب شرسين. بالطبع ليس كل الماوريين[٢] بدائيين. بالطبع، ليس كل الهاوايين راقصى هولا[٣]. بالطبع ليس كل السكان الأصليين فى أى بلد متخلفين. بالطبع، ليس كل التايلانديين مقامرين. بالطبع، ليس كل النساء مرهفات الحس أكثر من اللازم.

بالطبع، ليس كل المكسيكيين عمّال كادحين. بالطبع، ليس كل سكان جنوب شرق آسيا محتالين. بالطبع، ليس كل سكان الأبالاتشيا[٤] مغتصبين متخلفين. بالطبع ليس كل الناس الفقراء عديمى الذوق. بالطبع، ليس كل النساء قليلات الشأن فى القدرات العقلية. بالطبع، ليس كل البولنديين أغبياء. بالطبع، ليس كل الإيطاليين أعضاء فى "المافيا". بالطبع، ليس كل الإسبانيين منحطين أخلاقياً. بالطبع، ليس كل

---

(١) نسبة إلى المذهب الفلسفى الذى انشأه زينون حوالى عام ٣٠٠ ق.م. والذى يقول بان الرجل الحكيم يجب ان يتحرر من الانفعال ولا يتأثر بالفرح او الحزن وان يخضع من غير تذمر لحكم الضرورة .

(٢) أقلية عرقية تعيش فى نيوزيلندا .

(٣) رقصة شعبية تشتهر بها نساء جزر هاواى .

(٤) الأبالاشيا سلسلة جبال فى شرق أمريكا الشمالية تمتد من كويبيك حتى خليج المكسيك.

الأفغانيين قذرين. بالطبع، ليس كل الأمريكيين اللاتينين الذين يعيشون فى الولايات المتحدة ملوثين بالشحم. بالطبع ليس كل المثليين منتهكى أطفال. بالطبع ليس كل الأفارقة عرايا ووثنيّين. بالطبع، ليس كل سكان سريلانكا يستحقونها.

"بالطبع، ليس كل المسلمين إرهابيين". (توماس فريدمان، *نيويورك تايمز*، ٤ يوليو ٢٠٠٧) [١].

(١) عيد الاستقلال فى الولايات المتحدة يحتفل به فى الرابع من يوليو كل عام (المترجم).

مايكل مور يفعلها مرةً أخرى

عند الحديث عن شخص ما مثل "مايكل مور"، وهو فنان اهتمامه منصبّ على خيانة النظريات السياسية بدلاً من اختبارها، فإنه ربما يكون من الأفضل تجنب مظهر المكر أو المراوغة. دعونى إذن أنطلق إلى البداية وأعرّفها : إنها فعل المجاهرة بوجهات النظر السياسية الليبرالية من خلال الاستعمال الجزئى للعنصرية غير المشروعة كوسيلة خطابية غير معروفة. و"مايكل مور" يتفوق "فى ذلك". إن فيلميه التسجيليين الأخيرين "فهرنهايت ٩١١ ***Fahrenheit 911***" و"***Sicko*** سيكو"، يوظفان تلك الوسيلة بدرجة إتقان لا يصل الشك إليها غالباً. لم يخترع "مور" هذه الوسيلة بالضبط، لكنه يضرب مثلاً بفائدتها لفنّ الفيلم التسجيلى وضروريّتها للسياسات الليبرالية الأمريكية على نحو أشمل. الفيلمان يتبرآن من التحيّز، ويدافعان عن العدل من خلال الوجود الموازى وغير الموضوع فى الاعتبار للعنصرية ضد العرب.

أريد أن أركز هنا أولاً على فيلم "سيكو"، إلى حد ما لأننى علّقت فى حينه علنًا على فيلم "فهرنهايت ٩١١"، وإلى حد ما لأننى أجد فيه مثالاً أكثر مكراً، ومن ثم مفيد تحليلياً، لكيف يمكن لعنصرية ماكرة وغير منظورة ضد العرب أن تتخفى خلف واحدة من استراتيجيات "مور" الخطابية .

نفورى من "فهرنهايت ٩١١" يلقى الضوء على رد فعلى السلبى تجاه "سيكو". من السهل أن تكره "فهرنهايت ٩١١"، رغم ذلك. الفيلم لا يستخدم فقط العنصرية غير المشروعة كوسيلة خطابية غير مدركَة، بل يعتمد أحيانًا على الخيال العنصرى بشكل صريح. أنا أفكر فى المشهد الاستشراقى الذى يوظفه "مور" عندما يشير إلى المغرب والذى يشتمل على القرود - وما شابه ذلك؟ - والطربوش. لقد كتبت فى حينه عن اعتراضى على الطريقة التى يبحث بها "مور" قانون الوطنية الأمريكى" USA Patriot Act . باختصار، وجدت الأمر مزعجًا

حيث اختار "مور" مجموعة من المواطنين البيض كبار السن الذين كانوا مضيقًا عليهم إلى حد ما من ال- FBI كنماذج للخطر على "قانون الوطنية". لقد فهمت هذا الموقف على أنه موافقة ضمنية على العنصرية ضد العرب، لأنه بتجاهل الضحايا الأساسيين لقانون الوطنية Patriot Act، وهم العرب والمسلمون، يكون "مور" قد اختار أسلوبًا مضللاً اعتقد أنه سيكون مقنعًا لعموم الأمريكيين. هذا الأسلوب يمكن أن يكون مؤثراً، رغم أنه، بنى فقط على الافتراض فقط بأن النشطاء المسلحين البيض أبرياء بالضرورة من الجُرْم، بينما العرب والمسلمون مشتبه بهم لا محالة. بمعنى آخر، الحقيقة لا تهم بالنسبة ل- "مور"، فتحقيق هدفه هو الأهم فى نظره.

وهكذا فأسلوب "مايكل مور" المعتاد هو: أن يتجاهل أى شىء قد يقوّض أو يعقّد التزاماته الليبرالية المخلصة.

هذا الاعتراض لا يذكر شيئًا عن أكثر أشكال العنصرية مكرًا ضد العرب فى فهرنهايت ٩١١، وهو فيلم يصور العرب على أنهم بارونات بترول مشبوهون وشيوخ قبائل خطرين. فى الفيلم، جورج بوش الابن، أخرق، ومؤذٍ، يُظْهَرُ وهو متورط فى شراك مصايد أولياء نعمته العرب، الذين يقدمون النقيض الغامض للصلاح الأمريكى الأصيل الذى يحثّ "مور" جمهوره لاستعادته. إلى جانب الجشعين، وبارونات البترول المتشحين ب- "الجلابيب"، فإن العرب فى "فهرنهايت ٩١١" هم عراقيون، يقدمهم بشكل رومانسى تذكارى، والذين بحسب "مور" كانوا يعيشون بسلام فى عراق "صدّام حسين" قبل أن يسرع "دُبْيَا[1]" (جورج بوش) ويدمر كل شىء. بطريقة أو بأخرى، العرب لم يكن لهم فى الواقع أى صوت فى "فهرنهايت ٩١١". إنهم يوجدون كمشاهد متقنة الصنع فى خيال "مور" العقائدى .

لم يكن "مور" أبدًا أكثر من مجرد مؤيد للمراوغة. إن أعماله تستخدم الدليل بانتقائية لكى يتمكن "مور" من توصيل فرضية محددة سلفاً. عندما يستخدم طلابى

---

(١) من أسماء جورج بوش الابن .

اللامتخرجين تخصّص "مور"، ويلوون عنق الدليل لكى يناسب المناقشة بدلاً من طريقة أخرى من هنا أوهناك أعطيهم درجة أدنى. إن "مور" مخرج أفلام موهوب ذا شخصية محبوبة، مع أنه كخطيب فى مستوى طالب جامعى مبتدئ. على الأقل الطلاب قليلو الخبرة لهم عذر مقبول. مع "مور"، نحن مضطرون لاستنتاج عدم الأمانة إذا لم نقبل عدم القدرة كمبرر معقول. فى الواقع، إذا دوّى نجاح أفلامه، فأنا متأكد من أن إدارات السياحة فى كندا وفرنسا وبريطانيا العظمى وكوبا سترغب فى استئجار "مور". فهو يجعل كلاً من هذه الأمم رومانسيةً بوصفها النقيض الرائع لفشل أمريكى استثنائى (خاصة فيما يتعلق بتنظيم مبيعات الأسلحة والرعاية الصحية). فى فيلم "***Bowling for Columbine***"، على سبيل المثال، يقل "مور" آلة تصويره إلى "أونتاريو" لإظهار أن العنصرية هى مشكلة أمريكية واضحة، وغير موجودة فى كندا تقريباً. فى فيلم "***Sicko***"، يطلب منّا أن نصدّق أن نظام الرعاية الصحية البريطانى يوفّر أطباء ميسورين ماديًا وعناية طبية بلا مشكل. إن "مور" يتاجر فى فن الإقناع وليس فى فنيّة المصداقية. إنه يجيء بدقة بالنتيجة التى يشرع فى استكشافها .

حتى إذا ما اتفق المرء مع بعض أو كل حجج "مور" - وهناك الكثير فيما يخصها يمكن الإعجاب به - فإننى أجد من الصعوبة بمكان قبول الطريقة التى يقدمها بها، وهى طريقة منافقة ومهينة. إن "مور" نموذج مثالى لِلُغْزِ أن الفنانين والمثقفين يجب أن يمارسوا التفسير المستقل. أن نخدم انتماء سياسيًا معيّناً، هو أن نتخلى عن احتمالية كون الحزب المنتمين إليه جدير بالتدقيق الذى سنوجهه إلى الحزب المعارض له. أن ننتسب إلى أنفسنا، فهذا يضطرنا إلى ميدان فكرى توافقى. بإنتاج فيلم تسجيلى لخدمة " حملة "جون كيرى"[1] فى الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٤، على سبيل المثال، تجاهل "مور" تواطؤ الديمقراطيين فى الأمور ذاتها التى أصبح ساخطا عليها بشدة .

---

(١) ينتمى جون كيرى إلى الحزب الديمقراطى (المترجم)

الهدف هنا ليس أن نتجادل حول ما إذا كان "مور" مصيبًا فى أن الرعاية الصحية فى الولايات المتحدة غير عادلة وفضيحة قومية. طبعًا هى فضيحة، وليس سوى أن يكون أحد أفراد جماعات الضغط الخاصة بشركات التأمين أو غبىّ هو الذى سيجادل فى أن النظام الحالى لهيئات الحفاظ على الصحة والعلاج المشترك (HMOs) نظام عادل. الهدف هو أنه بعمله فيلمًا تسجيليًا عن هذا النظام الحالى، يلقى "مور" الضوء بالمصادفة على مشاكل قومية اخرى، مجرد وجودها فى فيلمه رسالة تذكير فاضحة لتورطه السياسى والفنّى.

أتمنى لو كان "مور" دقيقًا من الناحية التحليلية أكثر مما اختار هو أن يكون عليه. يلجأ فيلم "سيكو" إلى الاحتيال ليصنع ما هو بطريقة أو بأخرى موضوعًا نزيهًا وحاسمًا عن الحالة المريعة للرعاية الصحية فى أمريكا. الدليل الذى يجمعه "مور" ضد شركات التأمين المقتّرة مناسب وقوى فى آن واحد. نبرة الفيلم الغاضبة، وهى سلعة "مور" الرئيسية، تنبيهية أكثر منها أخلاقية. و"مور"، كما يشير كثيرًا فى المقابلات الصحفية، يستخدم موضوعًا هو أساسًا مؤيَّد من كلا الحزبين الديمقراطى والجمهورى، والذى يمكن أن يتجاوز المصالح الحزبية بين الأمريكيين. الكل يريدون الرعاية الصحية الكافية لأنفسهم ولأسرهم. فى ما يتعلق بهذا المطلب الأساسى (والحق الإنسانى)، أناس قليلون غير مدفوع لهم من قبل شركات التأمين من أجل تأييدها، ميّالون لتأييد هيئات الحفاظ على الصحة، المستقلة والقوية على ما يبدو.

لا يحتاج "مور" إلى أن يعتمد على التحايل، والذى جعل فيلم "سيكو" مصدرًا للقيم الجائرة. تضمين هذه القيم يضرب مثلاً على وقوع "مور" فى فخ نمط من الخطاب الليبرالى لن يمكّنه من أن يصنع شيئًا من التدخلات الثورية التى تلهم عمله ظاهريًا. (فى حالة ما إذا تخيّلنى أىُّ شخص مبالغًا أكثر من اللازم، فإن هذا الخطاب الليبرالى سوف لا يمكّن "مور" أبدًا من القيام بالتدخلات السلمية أيضًا). وبمعنى أشمل، تضمين تلك القيم فى فيلم "سيكو" يدلّ على قبول "مور" بالعنصرية

ضد العرب كقوّة محفّزة فعّالة فى الولايات المتحدة. القيم الظالمة التى يعيدها "مور" ثانية، والقيم الظالمة التى يهاجمها على صلة ببعضها البعض، على الرغم من بعدها عن التشابه، لأنها تنشأ من الدافع ذاته بين المدافعين عنها لترضى فى النهاية مراكز القوى.

التحايل الأكثر وضوحًا فى فيلم "سيكو"، والذى أضعه فى الاعتبار هنا، هو المنظر الذى يبحر فيه "مور" على ما يبدو من "ميامى" إلى خليج "جوانتانامو" فى كوبا. كان مع "مور" عمال إنقاذ ٩/١١ البيض - تقريبًا كل ضحايا صناعة الرعاية الطبية فى فيلم "سيكو" من البيض - ذوى المشاكل الصحية المتكررة. كان العمال غير قادرين على الحصول على الخدمة الطبية الكافية. "مور" - والذى كان قد استمع إلى السيناتور الجمهورى (والطبيب) "بيل فرست" يتباهى فى التليفزيون بأن الأسرى فى القاعدة العسكرية الأمريكية فى " جوانتانامو " يتلقون رعاية صحية ممتازة - قرر أن يتأكد من هل ستكون هذه الرعاية الصحية متاحة لعمال إنقاذ ٩/١١. الفضول هزلى، بالطبع. "مور" يعرف أن عمال إنقاذ ٩/١١ لن يتلقوا أى علاج فى "جوانتانامو"، ولذلك فبأخذهم إلى هناك فإنه يخرج مشهدًا مفعمًا بالتعليق الساخر. وكان يمكن للتعليق الساخر أن يكتسب وضع المهرّج أوالتنويرى لو لم يضطر إلى الاعتماد على التكتيك المعتاد بنزع صفة الإنسانية عن المسلمين من أجل التهليل للأمريكيين الوطنيين. أريد بدلاً من ذلك أن أصنّف المشهد على أنه حالة عنصرة ضمنية.

هناك أسباب عديدة لهذا الحكم. قبل أن أتطرق إليها، رغم ذلك، دعونا نفرّغ معانى مشهد "جوانتانامو". ينجح "مور" فى أن يقول أشياءً كثيرة مهمة فى آن واحد، وهو شىء من الصعب عمله. أنا لا أختلف مع صعوبة المشهد، أنا أختلف مع أحد تعليقات المشهد الضمنية. فى ظاهره، المشهد طريقة لجعل الناس يقبلون بفكرة أن نظام الرعاية الصحية الأمريكى غير عادل، باعتبار أنه يستبعد حتى هؤلاء الذين خدموا الولايات المتحدة بشرف. وبتوضيح أقل، المشهد يعيد إنتاج

نوع من العبث "الكافكوى" الذى يبرزه "مور" فى مكان آخر: الأبطال الأمريكيون فى احتياج لأن يزوروا سجنًا عسكريًا متكتّمٌ عليه ومحاطٌ بأراضٍ معادية من أجل أن يحصلوا على ما ينبغى أن يكون حقهم المكتسب بالمولد كمواطنى أمّة متقدمة تكنولوجيًا وغنية.

المشهد يقدم أيضًا تعليقًا ساخراً، لأن "مور" لم يعط المتفرجين الانطباع بأنه يصدّق بالفعل ادعاء "فرست" حول الرعاية الصحية الممتازة فى "جوانتانامو". إنه ينتقد السجن بكشف أن حديث الرعاية الصحية الموجودة به مجرد خرافة. يدين "مور" نوعين من النفاق، واحد متعلق بالرعاية الصحية الشاملة، والآخر بالتعذيب فى "جوانتانامو". ("مور" معروف بأنه معارض لوجود السجن). لا عمال إنقاذ ٩/١١ ولا السجناء فى "جوانتانامو" يعاملون بعدل. عمال إنقاذ ٩/١١ فقط، مع ذلك، يقدَّمون على أنهم مستحقون للتعاطف معهم .

قد يعترض أحد من الناس على مناقشتى بالتنبيه إلى أن "سيكو" فيلم حول نظام الرعاية الصحية الأمريكى وليس السجن العسكرى فى "جوانتانامو". أود أن أرد على هذا الاعتراض بالموافقة من كل قلبى، وأريد فقط أن أضيف أن "مور" ينبغى عندئذ أن يكون مرتبطًا بالموضوع. ففى اللحظة التى استخدم فيها "جوانتانامو" ومعاناة الناس فى سجنها، أصبح مسئولاً أخلاقيًا عن تلك المادة. وبعدم ممارسة هذه المسئولية، فوجئ "مور" باستغلاله لسجناء "جوانتانامو". أنا لا أستخدم فعل "يستغل" باستخفاف، ولا أريد أن ألمح إلى أن استغلال "مور" مساوٍ لاستغلال الحكومة الأمريكية إزاء السجن. وعلى عكس الحمل أو المصادفات، الاستغلال فيه مناطق رمادية، واستغلال "مور" ليس هدّاماً. لكنه برغم ذلك مثير للريبة.

هنا يتضح كيف يفسر "مور" المشهد فى "الديمقراطية الآن [1]"!

---

(١) برنامج إذاعى وتليفزيونى إخبارى (المترجم)

و"كنت أعتقد، إلى حد بعيد، أنكم تعرفون أننا هنا لدينا عمال إنقاذ ٩/١١ الذين لا يمكنهم الحصول على أى رعاية طبية. إنهم هنا يعلنون بصوت عال كيف أن لديهم رعاية طبية شاملة مجانية، فى مجال طب الأسنان والعيون واستشارات التغذية، للمسجونين. وفكرت، بشكل جيد، لماذا لا نأخذ الآن عمال إنقاذ ٩/١١ إلى "جوانتانامو"، ونرى ما إذا كنا سنستطيع أن نحصل على بعض من تلك الرعاية الصحية المجانية التى يتفاخرون بها؟ وهكذا، حقيقةً، عندما ترون الفيلم - لا أريد أن أفصح عن مضمون الفيلم كله - ولكن هذا أساسًا هو ما سنفعله.

هذا التبرير بارع فى ظاهره، لكنه مؤسف أخلاقيًا. يمكننا على سبيل المثال، أن نوسّع منطق " مور " : لماذا لا نرى ما إذا كنا سنستطيع أن نجرّب بعضًا من هذا التعذيب الذى يتستّرون عليه ؟

والأكثر استحقاقًا للإدانة، أن "مور" يثير مجموعة من القضايا الخطيرة التى يتجاهلها هو نفسه حالياً. المسجونون، الذين يشار إليهم كثيرًا على أنهم "مشتبهو إرهاب"، و"إرهابيون محتملون"، و"مقاتلون أعداء"، و"القاعدة"، يُعرضون كأدوات مساعدة فى سيرك "مور" الخطابىّ، وهكذا يُمنعون من ترَفِ ما يثبت الهويّة الإنسانية الأساسية. إنهم يُستغلّون إذن، لأن "مور" يخصصهم لغرض معيّن لا يتعلّق أبدًا بمصلحتهم الذاتية. هنا يصبح معتقلو "جوانتانامو" صورًا مجرّدة من الإنسانية. نحن لا يمكننا أن نتعامل معها بجديّة. فى الواقع، لسنا ملزمين بأن نهتم بهم مثقال ذرّة. لكنهم مثقلون بعبء إحداث التعاطف من أجل الأمريكيين.

يعتبر فيلم "سيكو" السجناء فى "جوانتانامو" مذنبين، برفضه التعليق على المبررات المريبة لأسرِ الكثيرين من المقبوض عليهم، والذين بين صفوفهم أطفال وأناس اكتُشفت براءتهم من قبل المحاكم الأمريكية والمحققين منذ وقت طويل. فى أكثر التفسيرات كرما، يتجاهل "مور"، وليس غير ذلك، لماذا يوجد السجن والسجناء من الأساس، وهو يتجنب مجرد الإشارة الروتينية إلى لماذا سجن "جوانتانامو" بائس جداً. إنه فى الواقع يقدم سخرية مؤيدة نظريًا للسجناء، ولكن هذه السخرية - السجناء لا يتلقون بالفعل رعاية صحية بل يتلقون التعذيب - خفيفة جدًا

لدرجة أنها غير مؤثرة. إن "مور" يبحث عن السخرية لوقت طويل بما يكفى لتوضيح وجهة نظره فيما يخص الأبطال الأمريكيين البيض المعذَّبين. وفيما عدا هؤلاء الأبطال البيض هو لا يرى شيئًا يتعلق ب- "جوانتانامو" على الإطلاق .

هذا النوع من التصرفات متوافق مع مضمون مجمل أعمال "مور". إن "مور" يمنح نفسه لما يتخيل أنه التحامل الخفىّ من جمهوره. إن أمريكا البيضاء الليبرالية والديمقراطيين الوسطيين لن يتعاطفوا مع السود؟ إنها ليست مشكلة. "مور" سوف يحتويهم بشكل هامشى فى آخر الأمر. سوف يرفض الأمريكيون المعارضون، الذين هم وطنيون فى النهاية، القبول بإنسانية العرب والمسلمين؟ رائع. سيحوّل "مور" موضوعات معارضتهم، مثل "قانون الوطنية"، إلى قضية بيضاء، ملقيًا ببضع صور للعرب الأوغاد ليوفر لهم الرضا. إن "جوانتانامو" أداة مفيدة، لكنها ثقيلة جدًا للعرض المتعدد فى آن واحد لدى "هارفى ويتشتاين" [١] و"صباح الخير يا أمريكا" [٢]. لماذا، الحل معدّ سلفًا بشكل عملى. سوف يكيّف "مور" جوانتانامو فى صيغة ليبرالية تتجنب الإشفاق على أسراه المسلمين، وتتخيل نفسها أنشودة شكر مناسبة للقائمين على السجن. هذه الخطوة الأخيرة ليست مجرد إخراج سيىء استنادًا إلى تحايله عديم الجدوى. بل هى أيضًا غير أخلاقية من الناحية الخطابيّة بسبب عدم رغبته فى التخلى عن الإساءة الأخلاقية الشاملة.

المشهد مذكّرٌ بأسلوب يستخدمه "مور" فى "فهرنهايت ٩١١"، لأن ذلك الفيلم الوثائقى كان مرتبطًا بمهمة تأييدية من أجل انتخاب "جون كيرى"، وأراد "مور" أن يصل إلى أكبر عدد ممكن من الجمهور. ومن الواضح أن هذه الرغبة تستلزم حدودًا منطقية، كما فعل القرار بإعلان تأييد الحزب الديمقراطى. (لقد منعت تلك الرغبة "مور" من نقد الديمقراطيين بشكل مقبول، على سبيل المثال). لم يلتزم "مور" بتلك الحدود بإخلاص فقط بل قلّصها فى الواقع. فى خضمّ حماسه لإنتاج

---

(١) منتج أفلام أمريكى وموزع سينمائى. (المترجم)

(٢) أحد أشهر البرامج التلفزيونية الأمريكية، تأسس سنة ١٩٧٥ (المترجم)

فيلم يهتم به العالم، وجد "مور" ملاذه فى ذلك المكان سيىء السمعة الذى يضم الأوغاد. إن "فهرنهايت ٩١١" ليس أكثر من إيماءة وطنية فجّة، متنكرة فى شكل الفن، قُصد منها تعبئة جماهيره فى خدمة السياسات المتضامنة، المتنكرة هى أيضًا (بشكل ركيك) على أنها راديكالية أو معارضة. إن "مور" يكرر تعويله على الوطنية فى فيلم "سيكو ، بإبرازه الواضح جدًا لعمال إنقاذ ١١/ ٩، وأخذهم إلى "جوانتانامو"، حيث وُضعوا إلى جانب الآخرين المناقضين، الإرهابيون المسلمون.

الغرض من هذا المشهد هو تأكيد فضيحة الرعاية الصحية الشاملة فى الولايات المتحدة. هذا الغرض يجب أن يكون سهلاً تحقيقه، كما يوضح "مور" بنفسه فى مكان آخر من فيلم "سيكو". لكنه قرر أن يزيد تأكيد غرضه، وبفعله هذا صنع ازدواجية خاطئة وقدم إطارًا ضعيفًا للتعاطف الانتقائى : "إذا كان مخزيًا أن عمال إنقاذ ٩/١١ قد حرموا من الرعاية الصحية، إذن تأمّل فقط كيف هو مُخزٍ أن الإرهابيين المسلمين المشتبهين لم يُحرموا منها". على أية حال، استحضار الوطنية من أجل الإقناع هو حيلة خطابية مملّة ورخيصة. إن "مور" ينجح حتى فى صبغ حجته باللغة والأفكار ذاتها الخاصة بأعدائه فى اليمين : "إذا كانت القاعدة تستطيع الحصول على الرعاية الصحية، إذن لماذا لا يستطيع أبطال ٩/١١؟". إن "مور" يكرر ازدواجية المحافظين الجدد الأصلية، وهو الذى قضى السنوات السبع الماضية فى إدانة أيديولوجيتهم.

والأكثر أهمية من ذلك، أنه لا يوجد أساسٌ سوى الإجمال العنصرى الذى من خلاله يمكن أن يُشار إلى معتقلى "جوانتانامو" بصورة متطابقة على أنهم "القاعدة". السجن واحد من التخبّطات المرتبطة بإدارة "بوش"، وقد أصبح مصدرًا للاحتجاج والغضب فى الفعاليات السياسية البريطانية منذ اكتشافه. إنه يمثل تعذيب ما بعد ٩/١١ السائد فى الولايات المتحدة. باختصار، الأمر ليس مزحة. إنه فى غنى عن أن يلعب دورًا فى مناقشة موضوع الرعاية الصحية الأمريكية. إنه يحتاج بدلاً من ذلك أن يلعب دورًا فى حديث غير موجود فى الولايات المتحدة غالبًا، حول لا أخلاقية التعذيب، والعنصرية فى كثير من التشريعات الجديدة.

إذا شعر "مور" أنه مجبر على الاستشهاد بالأسرى فى "جوانتانامو"، إذن كان عليه أن يخصص لحظة واحدة لينقل للآخرين (وما أتمناه كان أشياء بديهية) مسألة أن هؤلاء الأسرى بشر. إنهم ليسوا أدوات، إنهم بشر عانوا بشكل رهيب، بشر انتزعوا من عائلاتهم واعتقلوا دون استشارة قانونية فى وضع مجهول المصير. الكثيرون منهم مذنبون بشىء ما بالتأكيد طبقًا لشخص ما. ولكن الكثيرين، طبقًا للدليل الشامل، مذنبون بلا شىء سوى أنهم ذوو بشرة داكنة ويستخدمون كلمة عربية للإشارة إلى "الرب". بعضهم أطفال، والذين هم وفقًا للتعريف القانونى، أبرياء. ومثل عمال إنقاذ ٩/١١ الذين يكرمهم "مور"، فإن هؤلاء البشر قد عانوا من الظلم. جميعهم، الأمريكيون والمسلمون، أو كلاهما معاً، يستحقون منّا الإصغاء والتعاطف إذا كنا راغبين فى الاهتمام بهذه الأمور. يطلب منّا "مور" أن نهتم بهذه الأمور، لكنه يجبرنا على أن نهتم بها بشكل ناقص.

أخيراً، فإن فيلم "سيكو" يقدم لنا أسئلة حول استخدامات وفائدة الفن، ليس فقط فن العرض أو الإقناع ولكن المبادئ الأخلاقية للفن، الذى يسعى فى الوقت ذاته إلى ممارسة العمل السياسى. لقد أصبح الفن موضوعًا إيضاحيًا عاديًا منذ ظهور الكتابة، وقد ألهم سلسلة من الآراء المختلفة على امتداد الزمن منذ "أرسطو" حتى "جان بودريلار" [١]، وقد أصبح أيضًا موضوعًا للحوار المتنوع لآلاف السنين فى المجتمعات القائمة على الشفاهية. إذن فاعتبار "مور" شيئًا غامضًا جدًا يعدّ أمرًا غير ممكن، خاصة وأن مجمل أعماله لا يلائم فى الواقع نموذج البراعة الفنية، بل يلائم نموذج الغوغائيّة. إننى أتردّد فى أن أحول بين "مور" وبين عالم الفنّ، مهما يكن، لأنه يصنع غوغائيته من خلال وسيلة فنية، وهى الفيلم، ولذلك هو يضمن التقدير بواسطة هذا الإطار مثل أى مخرج تسجيلى آخر.

أود أن أخمّن، على اعتبار أنه نقاش مؤسّسى، أن الفن بالتأكيد له قواعد، وليس مجموعة ثابتة من القواعد. فقواعد الفن تتغير وتتطور طبقًا للمشروع. ومن

---

(١) جان بودريلار (١٩٢٩ ــ ٢٠٠٧) فيلسوف فرنسى ماركسى. (المترجم)

هنا يمكن أن يكون الفن جدليًا أو مثاليًا بكل معنى الكلمة. مع ذلك فهو دائمًا ما تكون له تعليقات، وبهذا المعنى فهو دائمًا سياسيّ. ليس الفن بالضرورة نتاجًا عن المصداقية، ولا حتى المصداقية الظاهرية. إنه يمكنه أن يكون ماكرًا أو متلاعبًا وأحيانًا يكون وضيعاً. أنا لا أتقيّد بأى اعتقاد غير عمليّ بأن الفن يحتاج لأن يكون جميلاً أو نبيلاً، أو حتى لأن يحتاج لأن يكون ذا معنى. بعض الأعمال الفنية جميل جدًا مثل : (The God of Small Things , Rabbit Proof Fence) [1]، والبعض نبيل، مثل : (Common Sense, In The Light of Reverence) [2]، والبعض له معنى، مثل : (Once Were Warriors, Power) [3]. وبعضها لا يمتلك أيًا من هذه الصفات الثلاث (معظم أعمال "جرترودشتاين" [4]، على سبيل المثال، أو بعض قصص "شيرمان أليكسى" [5] الأكثر وقاحة). لن أضع هذه الأعمال فى تسلسل هرمى مبنيّ على أى معايير مفترضة ترى أن الفن الجميل والنبيل أو ذا المعنى هو الأفضل. هذا النوع من التسلسل الهرمى سوف يكون تخمينًا إلى حد بعيد، وبسبب ذلك سيكون مضلّلاً. النقطة الأكثر إفادة هى أن الفن يأتى فى جميع الأشكال بغض النظر عن كيف نختار أن نحكم على جودته. (إننى، على سبيل المثال، أميل إلى كراهية الفن الذى يحمل أى لمحة من الوعظيّة، والذى أحكم عليه بأنه أقل جودة من العمل الذى يكون ذكيًا سياسيًا، إلاّ أننى لا أستخدم ردّ الفعل هذا كدليل على أن العمل الوعظيّ ليس فنًا).

---

(١) فيلم سينمائى أسترالى، عرض لأول مرة عام ٢٠٠٢، إنتاج وإخراج فيليب نويس. (المترجم)

(٢) فيلم تسجيلى أمريكى استغرق إنتاجه عشر سنوات، عرض لأول مرة سنة ٢٠٠١، من إنتاج كريستوفر ماكليود ومالينداماينور، ويدور حول ثقافات السكان الأصليين فى أمريكا. (المترجم)

(٣) فيلم سينمائى نيوزيلندى، من إخراج لى تاماهورى، ١٩٩٤. (المترجم)

(٤) جرترودشتاين (١٨٧٤ ــ ١٩٤٦)، كاتبة وشاعرة أمريكية حداثية .

(٥) شيرمان أليكسى (١٩٦٦ ــ ..) شاعر أمريكى وقاص وروائى وكاتب سينمائى ومخرج .

لكن الفن – ولا يهم أى شىء آخر يكون هو، وفى النهاية هو كل شىء – لا يمكن أن يكون شيئًا واحدًا على وجه الخصوص: مندمجًا بصلابة.

هذا المعيار، أكثر من أى شىء آخر، يميّز بين الفن والدعاية. إن فن "مور" مندمج بصلابة مع واحد من شيئين (وأحيانًا مع كليهما فى آن واحد) : جدول أعماله المعدّ سلفًا والحزب الديمقراطىّ. لقد برع الديمقراطيون فى فنّ الاستمالة، لكنهم على العكس سذّج تمامًا مثل حمّامات وسائل المواصلات العامة (التى، بالمصادفة، تتجه لأن تصدر روائح زكية أكثر قبولاً). جدول أعمال "مور" ليس مشكلة فى حد ذاته، على الرغم من أنه عادة ملىء بالمشاكل كموضوع سياسىّ. إن حقيقة أن جدول أعماله دائمًا ما يكون معدًّا سلفًا لأمر مثير للضيق. العمل بالتالى يفقد أهميته، مثل بثّ تليفزيونى محسّن قدر الإمكان لمادة انتقائية. خذ، على سبيل المثال، فرضيّة "مور" أن الرعاية الصحية فى الولايات المتحدة فظيعة. هذه فرضيّة سليمة، وقد قام بعمل معقول لتوضيحها وجعلها مقنعة. إلاّ أن "مور" كان قد قرر سلفًا ما سيكون كنتائج لتحقيقاته، ولذلك تكون فرضيّته أكثر إقناعًا من الاستقصاء الأمين، بالمصادفة. يتلاعب "مور" بفرضيّته عن طريق تصويرها بشكل رومانسىّ وبأكثر الأساليب فجاجة، لأنظمة الرعاية الصحية فى بريطانيا العظمى وكندا وفرنسا، والتى لديها جميعًا نظام صحى اجتماعى. وبدلاً من الحدّ بشكل مفيد من قوّة ادّعائه، عن طريق الاعتراف بوجود بعض المشاكل فى تلك الأنظمة، وبالتالى جَعْلِ حجّته دقيقة، فإن "مور" يعمل على إثبات أنها ستكون حلاً لجميع المشاكل.

هذا النوع من التصرفات يدلّ على تضليل فكرى. إنه يهين المشاهدين أيضاً، لأن "مور" لا يسمح لهم بأن يفكّروا مليًّا فى الدليل، أو أن يعتمد عليهم فى التحقق من الاستنتاجات الذكية من بين مسائل معقدة، حتى هذه الخيارات لا يتيحها لهم. إنه يقرر ما ينبغى أن يعتقدوه، وهكذا يشرع فى بناء قصة، أى قصة، من أجل تدعيم هذا القرار. بهذه الطريقة، يعمل فيلم "سيكو" كمسرح سياسى : فبدلاً من التوضيح من خلال إيقاع متميز لشروط الاكتشاف الدقيق، فإن "مور" يعزّز المغالاة

بلمحات شخصية، المقصود منها الإجبار على التعاطف. هذه اللمحات، التى عادة ما تصوّر الناس الذين تعرضوا لظلم بيّن، لا تهدف سوى إلى إرضاء العواطف الراعية للنزعة الخيرية الليبرالية.

إن "مايكل مور" محرّض بارع، إنه فنان ردىء. فى موضع واحد من فيلم "سايكو"، فى وقت الاستعداد لحيلة "جوانتانامو"، تشكو إحدى المجنّدات من المعتقلين: "إنهم يحصلون على رعاية صحية أفضل من التى أحصل عليها أنا". إن تضمين هذه الشكوى فى الفيلم تضرب مثلاً على قصور "مايكل مور" وفشله الأخلاقى فيما يتعلّق بقضية العنصرية. إنه يمثّل قصورًا فنيًا لأنه نشرة إعلانية مجانية، وكذب سخيف لا يهدف إلى شىء على وجه التحديد سوى نقل الكراهية الضمنيّة، علاوة على ذلك، يصوّر "مور" عاطفة المجنّدة بشكل رئيسى فى قصة "سيكو"، كما لو أن هناك حقيقة تستحق الفداء، راسخة فى اللامنطقيّة المرَضيّة لهذه القصة. ويمثل هذا التضمين فشلاً أخلاقيًا ل- "مور" فى قضية العنصرية لأن الجملة البسيطة المكونة من ثمانى كلمات يمكنها أن تنهى واحدة من القضايا المهمة للغاية فى وقتنا هذا فى الولايات المتحدة : التعذيب. قبل كل شى، من الواجب أن نعرف ما إذا كان المعتقلون فى "جوانتانامو" يتلقون رعاية صحية أم لا، وهو أمر أقل أهمية ، على ضوء حقيقة أنهم يعذّبون. إن المجنّدة فى فيلم "مور" لن تقايض أبدًا حالة الرعاية الصحية التى تحصل عليها بتلك التى يحصلون عليها. ولأنها لن تفعل – و"مور" يعرف أنها لن تفعل، لأنه لا هو ولا هى بذلك الأحمق – فإن تعليقها ليس له شأن بالفيلم. وهذا التعليق مضلل بشكل واضح، وأنا لا أفهم كيف يمكن ل- "مور" أن يكون غير واعٍ بتضليله الواضح. بإدراجه لهذا التعليق، ومن ثم الموافقة الضمنية عليه، يأخذ "مور" نصيبه من ذلك التضليل.

الأكثر أهمية من ذلك، أن شكوى المجنّدة تضع المسلمين مرة أخرى أيضًا كمناقضين لهويّة أمريكية وطنية. فكلمة "أنا" – كناية عن الأمريكيّ المتفانى – تحقّق المعيارية الإجمالية عندما توضع إلى جانب كلمة "هم" الإسلامية. ومن هنا

يكون البُعد المريب فى إخراج "مايكل مور". ولا يبدو أنه مهتم بتقديم حجة دقيقة. ويبدو أنه يفضل تصنيف الآخرين فى علاقات أقل شأناً، من أجل إحداث التأثير الخطابىّ. فى هذه الحالة، فإن تلك الخطوة أدت إلى النتيجة اللاأخلاقية المريعة بتحسين صورة التعذيب من أجل الدعاية لصالح الوطنيين الأمريكيين الحقيقيين.

لقد فعلها "مور" من قبل. عندما كتبت لأول مرة عن فيلم "فهرنهايت ٩١١"، كنت فى شوق إلى أن أقبل بأن "مور" يقول الحقيقة: لم أكن على استعداد لأن أبرهن على أن العنصرية ضد العرب فى هذا الفيلم منهجيّة. فقد تصورتها بدلاً من ذلك على أنها شىء من نتيجة هامشية غيرة مقصودة لأسلوب خطابىّ ركيك. بعد مشاهدة فيلم "سيكو"، على أية حال، يتضح أن "مور" يستغل بشكل معتاد أى "آخر" متاح، لكى يدعم فى هدوء أجندته الليبرالية المتعصّبة. فى هذه اللحظة، يتصادف أن يكون آمنُ "آخر" هم العرب والمسلمون – آمن، بمعنى أنهم بسهولة يمكن أن يُجعلوا قابلين للاستهلاك، مع خطر قليل للاحتجاج أو حتى الإدراك.

إذا حدث وصنع "مور"، رغم ذلك، فيلمًا حول السجناء فى "جوانتانامو"، بدلاً من أن يصنع فيلمًا يستغل فيه السجناء فى "جوانتانامو"، فإنه سيكون عندئذ ببساطة مخرجًا حقيقيًا آخر للأفلام التسجيلية. وهذا أقل إثارة للجدل إلى حد بعيد من كونه "مايكل مور"، البطل الليبرالى.

الطموح والإرهاب والتعاطف

هناك شيء مميّز نوعًا ما لجامعة "فرجينيا تِك"، وهى جامعة بحثية ممتدة المساحة فى مكان ريفىّ مفعم بالحيوية. إنه تَضارُبُ لونىّ الجامعة البرتقالى والأحمر الداكن. وأسماء الأماكن الشهيرة بها – النصب التذكارى وساحة التدريب العسكرى – تلمح إلى حضور عسكرى قديم جداً. اسم الجامعة لا يعكس بدقة اتساع مجال تخصصها العلمى، مما يشير إلى أنها تمارس انعدامًا لبرامج الفنون الليبرالية الشاملة .

إلا أنه يوجد شيء ما متوازن جدًا ومنطقى تمامًا فيما يتعلّق بتميّز جامعة "فرجينيا تك". وهو أن معظم الطلاب الذين يتخرجون فى جامعة "فرجينيا تك" يظلون أوفياء للجامعة كخريجين، وهواة رياضة، وسُيّاح فى نهاية الأسبوع، وسفراء غير رسميين. إنها ثقافة نوعيّة تخص جامعة "فرجينيا تك"، يشترك فيها الطلاب والخريجون، إذن فوصف هذه الثقافة بأنها بعيدة عن المشاركة المباشرة قد يكون أمرًا مستحيلاً تقريباً. تحثّ جامعةُ "فرجينيا تك"، لأسباب ليس من الضرورى أن تكون ملموسة، على التفانى المستمر والأكيد .

أنا لست من خريجى "فرجينيا تك". لقد حصلت على درجتين علميتين من جامعة "رادفورد" القريبة منها، وهى جامعة إقليمية شاملة مصدر دخلها الرئيسى هو التربية والتعليم، وقد اعتادت جامعة "رادفورد" أن تكون جامعة للبنات فقط وفرعًا لجامعة "فرجينيا تك" التى كانت سابقًا للبنين فقط (فى تلك الأيام التى كانت تعرف فيها ب–اسم "VPI" المكوّن من الأحرف الأولى لاسمها الرسمى: "جامعة ومعهد ولاية فرجينيا للعلوم التطبيقية Virginia Polytechnic Institute and State University). لقد حصلت على البكالوريوس فى العلوم السياسية والماجستير فى اللغة الإنجليزية من جامعة "رادفورد". كطالب، كنت أجد قسم اللغة الإنجليزية فى جامعة "رادفورد" ممتازًا جدًا، ووجدت قسم العلوم السياسية بها

مفتقدًا للأفكار الجديدة ومحافظًا فكريًا (باستثناء أستاذ واحد هو "ريجنالد شريف"). إننى سعيد بتعلّمى هناك، لكننى أعتبر تجربتى عادية.

بصدق، لقد التحقت بجامعة "رادفورد" لأننى لم أتمكن من دخول جامعة "فرجينيا تك". عندما كنت فى سن السابعة عشرة فى "بلوفيلد" المجاورة، لم أكن مثيرًا للإعجاب سواء كطالب أو كشابّ. وكانت درجاتى تتراوح بين المتوسط والضعيف، وكنت أتفاخر بدرجاتى المتوسطة فى امتحان ال- "SAT" (١). لم يكن لدىّ ما يمكن أن أكون جادًا بشأنه. لكننى وجدت لى فى "رادفورد" صوتًا ومجموعة من الاهتمامات مدعومة بالتشجيع من قبل بعض الأساتذة الملهِمين، لذلك سأكون معترفًا بالجميل إلى الأبد لتعليمى الجامعى. كنت أشعر أحيانًا ببعض الغيرة تجاه هؤلاء الذين درسوا فى جامعة "فرجينيا تك"، التى فى ظلالها أقمنا فى جامعة "رادفورد" الأصغر حجمًا والأكثر ريفيّة أيضاً.

بعد أن أكملت درجة الماجستير، سجّلت فى برنامج الدكتوراة فى اللغة الإنجليزية فى جامعة "أو كلاهما"، وهى جامعة تحث بطريقتها الخاصة على الولاء الدائم. (ما زلت متعلّقًا إلى حد بعيد بجامعة "أوكلاهما" كخرّيج، وأنا فخور بكل صراحة بكونى ذهبت إلى هناك). فى "أبالاتشيا" (٢)، وفى "فرجينيا" بالتحديد، جامعة "تك" عبارة عن شيء ضخم وقوى جداً، وحضور واسع الانتشار كشعار على القمصان ال- "تى شيرت"، وكملصقات على مصدّات السيارات، وكمكان مفضّل لطلب العلم. خارج "أبالاتشيا"، فى شمال "فرجينيا" يبدو خريجو جامعة "تك" فى كل مكان، وهكذا يكون حضور اللونين المتضاربين، البرتقالى والأحمر الداكن. وقد علمت، مع ذلك، أنه خارج "فرجينيا" و"أبالاتشيا"، جامعة "تك" غير معروفة

---

(١) امتحان يجرى فى أمريكا لطلاب المدارس الثانوية الراغبين فى دخول الجامعة. (المترجم)
(٢) منطقة فى شرق الولايات المتحدة تمتد من غرب ولاية نيويورك إلى شمال ولايات ألاباما والمسيسبى وجورجيا. (المترجم)

بسهولة جدًا. الجامعة مشهورة على المستوى القومى، ويدرس فيها آلاف الطلاب من أنحاء العالم، ولكن من نواحٍ كثيرة هى مؤسسة إقليمية.

بعد أن أنهيت الدكتوراة فى جامعة "أوكلاهوما"، بدأت أولى وظائفى التدريسية فى جامعة "ويسكونسين – وايتووتر"، حوالى خمسين ميلاً جنوب شرق "ماديسون"، وهى جامعة إقليمية شاملة، مشابهة من حيث عدد طلابها ورسالتها لجامعة "رادفورد". كنت سعيدًا ببدء حياتى العملية كأكاديمى، من خلال خدمة الطلاب فى مؤسسة مشابهة لتلك التى تعلّمت فيها كطالب. لم يكن لدىّ أبدًا شعور بالاغتراب فى "ويسكونسين"، رغم ذلك، لأى سبب، ما عدا الطقس السيىء. إن "ماديسون" مكان يعجز عن تحقيق عناصر صورته الخاصة من نواح متعددة. ولكن فى الواقع، أنا فتى "أبالاتشىّ"، أردت أن أعود إلى موطنى .

إننى أتذكر الجلوس فى غرفة المعيشة فى بيتنا ذى الطابق الواحد، فى مساء صيفى فى "ماديسون" مع زوجتى "ديانا". الهواء عابق بالروائح العطرة لأشجار منطقة الغرب الأوسط، ومثقل بالرطوبة، وملىء بالفراشات التى تصطدم بالباب السلكى، وطنين البعوض المنخفض. "ديانا"، مرتدية بلوزة بيضاء بلا أكمام وبنطالاً قصيرًا مموهاً، تمددت على الأريكة وهى ترتشف الشاى المثلج. وأنا، دون قميص، أشغل نفسى بصليب ذهبى يستقر فى عشّ من شعر الصدر، بينما أتململ فى الكرسى الوثير، كى أتجنب الالتصاق بقماش الكرسى. كان صوت الهواء الثقيل الهائج يحيط بنا من كل مكان. "أريد أن أعود إلى سوق العمل" أبلغتها، دون التفكيرفى أى مكان.

على دخان السجائر الكثيف، كان لنا حديث طويل فى تلك الليلة حول أين نريد أن تستمر حياتنا. مغادرة "ويسكونسين" لم تكن ذات أهمية فى الواقع، فما سيطر على مناقشتنا هو أين سينتهى بنا الأمر. كانت "ديانا" مرنة ومنفتحة العقل. فما إن أشعر بأن الوقت قد حان للبحث عن وظيفة جديدة أجدها تؤيدنى فى ذلك.

"أين تحب أكثر أن تُمنح درجة الأستاذية؟"، سألتنى بعد أن قررنا أن أعود إلى سوق العمل فى الخريف، وتلك مهمّة مستهلكة للوقت.

كنت قد نشرت فى ذلك الوقت أول كتبى، ولدىّ اثنان تحت التعاقد فى مطابع جامعية. لذلك شعرت أنه يمكننى أن أكون منافسًا على منصب الأستاذ المساعد. فكرت فى الاحتمالات المعتادة: "ستانفورد" و"هارفارد" و"كورنيل" و"نورث ويسترن". بالإضافة إلى شهاداتى العلمية العامة، على الرغم من ذلك، كنت أعلم أن الأمر يتطلب ما هو أكثر من الكتب المنشورة لكى تلفت انتباه تلك الجامعات. على أية حال، اتفقنا على أننا سنفضّل أن نكون قريبين من والدينا فى "فرجينيا"، لذلك فكّرت مليًا فى قائمة إقليمية لجامعات ممتازة أقل فى الأهمية: "ديوك"، "جورجتاون"، "يو فى إيه"، "جون هوبكنز".

وكانت جامعة "فرجينيا تك" هى التى رضيت بها فى النهاية. لم أكن قد فكرت فى "فرجينيا تك" حتى تلك اللحظة. الموافقة بدت وكأنها جاءت من خارج نفسى، ولكن ما إن جاءت لم أستطع أن أهرب منها. "نعم"، استمررت جاعلاً عقلى ممسكًا بالفكرة، "ألا يعد أمرًا رائعًا إذا حصلت على وظيفة فى جامعة" فرجينيا تك"؟".

"نعم، سوف يكون"، استطعت أن أرى "ديانا" تحاول أن تمسك بعقلها حول هذا الاحتمال، متحمسة بقوة للفكرة.

عندما نشر إعلان الوظيفة بالصحف بعد ذلك بشهور قليلة، فى سبتمبر، شعرت بالارتياح بأن أجد عددًا من الجامعات البحثية الرصينة توظف أشخاصًا فى مجالات اهتمامى. هؤلاء الذين جرّبوا البحث عن وظيفة فى مجال العلوم الإنسانية يعلمون أن المواصفات المعلنة للوظيفة غير جديرة بالثقة. فهذه المواصفات تتضمن عددًا ضخمًا من النصوص الفرعية والمعانى الخفيّة. لجان البحث التى وضعت هذه المواصفات لديها هى فقط الإحساس الدقيق بمن الذى سيكون أفضل من يلائم

متطلباتهم (وهذا ليس دائمًا القضية). المرشحون الذين يصادفون الوظائف التى يحلمون بها على الورق، عندئذ، وفى أحوال كثيرة، يقعون فى الحيرة، ويحبطون عندما لا يحصلون حتى على فرصة دخول مقابلات التصفية النهائية. لقد كنت على وعى بتلك الحقيقة. ومع ذلك لم أستطع أن أمنع نفسى من الشعور بالفرحة عندما قرأت فى الصحف أن "فرجينيا تك" تطلب أستاذًا مساعدًا فى الأدب الأمريكى. مواصفات الوظيفة بدت كأنها فصلّت خصّيصًا على مقاس اهتماماتى العلمية وسِجِلِّ مطبوعاتى. لقد كانت وظيفة أحلامى. وقررت حينها أنه يجب أن أكون الشخص الذى ستوظفه جامعة "فرجينيا تك".

أردنا "ديانا" وأنا، أن تمضى حياتنا إلى "بلاكسبيرج"(١).

بعد مقابلة شاملة، مُنِحتُ، وبالتالى قَبلتُ وظيفة أستاذ بقسم اللغة الإنجليزية. لقد صنعت علاقة ثقة بأعضاء لجان البحث، وشعرتُ بالسعادة فى حرم الجامعة أثناء زيارتى التى استغرقت يومين فى يناير. تلقّيت عروض وظائف أخرى، أحدها فكرت فيه بجدية، لكن "ديانا" وأنا قررنا فى النهاية أن نعود إلى "أبالاتشيا".

بعد شهور قليلة فى الوظيفة، أتممتها مستمتعًا أكثر حتى مما أتوقع، كنت فى حفل شواء فى "نورث كارولينا"، حيث أحد أصدقاء العائلة لم يصدّق أننى أريد أن أكمل مسيرتى العملية فى "فرجينيا تك"، فى "أبالاتشيا" الريفية - أو أننى يمكننى أن أجد بالفعل أن هذا النوع من العمل وافيًا بمتطلباتى. فى رأيه، دلّت سعادتى ب- "فرجينيا تك" على نقص فى الطموح. فالخطوة الطبيعية ينبغى أن تكون البحث عن مسار يشمل جامعة "يو إن سى تشابيل هيل" أو جامعة "إيمورى"، قبل الاستقرار فى النهاية فى مكان ما فى الشمال الشرقى.

"الأفضل لى أن أنظف الحمامات فى "فرجينيا تك" بدلاً من الكدح فى القلب النابض للصهيونية الليبرالية"، رددت عليه بطريقة مغالى فيها نوعًا ما.

---

(١) مدينة تقع فى ولاية فرجينيا .

بعد ذلك بشهور قليلة، صادفت موقفًا مشابهًا من ضيوف من أماكن مختلفة. مأخوذين بنظرية مشكوك فى صحتها حول سحر "فرجينيا" الشمالية، وألحوا علىّ فى السؤال حول خطوتى القادمة فى حياتى العملية. ابتسمت قائلاً: "أنتم ترونها الآن!". لقد أخذوا على عاتقهم أن يقنعونى بأننى لن أستطيع - فقط لن أستطيع - أن أقضى حياتى العملية كلها فى "فرجينيا تك". إن مدينة "بلاكسبيرج" صغيرة للغاية، ومنعزلة جداً. وشهرة "فرجينيا تك" صنعت من الهندسة وليس من اللغة الإنجليزية.

أقررت قائلاً : "واأسفاه!". "إننى أكسب أموالاً كافية. وأدرّس بالفصل يومين فى الأسبوع، وأعود إلى المنزل عند الظهيرة فى هذين اليومين. الجزء الآخر من وظيفتى يتطلب منّى أن أعمل ما أحب وما أريد أن أفعله على كل حال، وهو أن أكتب. بدأت أتفاعل فى جو هادئ وجميل مع شبّان أذكياء ومفعمين بالحيوية. إننى أؤكد: "إننى لم أستوعب الأمر أبداً، لكننى مجرد خطوة بعيدًا عن منجم الفحم" [1]. لذلك ظللت أنحت فى الصخر، باذلاً أقصى جهدى لأتفادى عبور الخط الذى يفصل بين البرج العاجى والممسحة وزجاجات الأمونيا وصفوف الحمامات القذرة.

اعتراضى على أصدقائى المهتمين بأمرى ليس بسبب إعلانهم النصيحة الجادة وغير المرحّب بها منّى، بل كان بسبب كيفية تعريفهم للطموح، والذى يبدو أنه ليس أكثر من التكيف مع الأشياء العادية. الناس، والأكاديميون، على وجه التحديد، غالبًا ما يبنون أحكامهم المتعلقة بالحياة والعمل على أساس أمور سطحية مثل الشهرة، والتى من المحتمل أن تكون المعيار الأكثر انعدامًا للفائدة لأنها لا تستلزم بشكل ضرورى الدقة التحليلية. الاستقرار فى مكان ما عملية معقدة. إننى شخص ودود، لكننى لست مرنًا بما يكفى لأستقر فى مكان ما إرضاءً لشخص

---

(١) كانت مناجم الفحم إحدى الثروات الطبيعية فى أبالاتشيا، حيث تقع الجامعة التى يعمل بها. (المترجم)

آخر. إننى أرحب بأن يعيش الآخرون مُثلهم الخاصة كما يريدون حول ما يشكّل الكيفية أو القابلية.

من الواضح أنه لا أحد من هؤلاء الناصحين الحاليين من خريجى جامعة "فرجينيا تك". فخريجو "فرجينيا تك" يميلون إلى الاعتقاد بأن وظيفتى خالية من العيوب، مما يثبت فى النهاية أن جامعة "فرجينيا تك" قدمت لهم تعليمًا جيدًا .

بالنسبة لرجل "أبالاتشى"، ضجرٍ من الطبوغرافيا المنبسطة، فإن "فرجينيا تك" كانت اختيارًا مهنيًا جذاباً. كذلك كان لموقفى القيمة المضافة لحافز أمريكى جوهرى: "الافتداء". ولعدم تمكنى من الدراسة فى جامعة "فرجينيا تك" كطالب، وجدت الأمر مبهجًا أننى قد أجد نفسى فجأة أعمل كأستاذ هناك. وعلى عكس الطرق الأمريكية للافتداء فإن طريقتى لم تتطلب أى نوع من العنف. نجحنا "ديانا" وأنا فى التدرّب على الطموح بسلام. فقد تغلبنا على معوقات هائلة من أجل أن نعود أخيرًا إلى "بلاكسبيرج". أن نصل إلى "آيفى ليج"، وهى مدرسة حكومية عريقة وبكل معنى الكلمة، قد يكون أمرًا ممكنًا جدًا.

موضوع الطموح متغلغل بأشكال كثيرة فى "فرجينيا تك".

بداية من يوم السادس عشر من إبريل ٢٠٠٧، كان وجود الإرهاب هكذا.

بأشكال عديدة، رغم ذلك، ظل الإرهاب عدمًا لا قيمة له. هذه العبارة لا توهم بتبرير الإرهاب، ولكن تهدف إلى تحديد هوية وجوده، فترك الإرهاب غير محدد الهوية يجعله غائباً، وبالتالى مفرّغًا من معناه. أنا أشير بشكل خاص إلى الخبر السار الذى انتشر بصورة مرَضيّة عن طريق وسائل الإعلام المشتركة بشكل جزئى خلال يوم ١٦ أبريل ٢٠٠٧، معلنًا أن المذبحة التى وقعت فى جامعة "فرجينيا تك" ليست عملاً إرهابياً. إنها مجرد مذبحة، أو نوبة قتل، أو قتل جماعى.

عدم تعريف نوبة القتل فى "فرجينيا تك" بأنه عمل إرهابى هو إغفال فعّال، بمعنى أنه إغفال يفعل الكثير من الأشياء. تعريف قتل اثنين وثلاثين شخصًا بريئًا

فى ١٦ إبريل على أنه إرهاب يجب ألاّ يغيّر أو يحول دون حقيقة أنه كان مذبحة أيضًا (كلاهما، على أية حال، التعريف أو عدم التعريف، الأمران يميلان إلى أن يحدثا فى وقت واحد). ومع ذلك الإشارة إلى الحدث بأنه إرهاب قد يضيف إليه معنىً. المعانى التى قد يضيفها غير ملائمة سياسياً، ولذلك تم تجنبها.

تصريحات وسائل الإعلام أشارت بصراحة وبأمانة أن عنف "سيونج هوى تشو" لم يكن اندلاعًا للإرهاب، مذيعو الأخبار كانوا يصدقون ما يقولونه، وأعلنوا هذا الخبر دون أى قدر من وضوح المعالم. إذا قرروا أن هياج "تشو" كان إرهاباً، فإنهم فى الوقت نفسه يتخلّون عن الإطار الأيديولوجى المستمر الذى يستخدمونه فى التمييز بين الإرهاب وأشكال العنف الأخرى. قرار تصنيف المذبحة على أنها شىء آخر غير الإرهاب كان بسبب ذلك مركّبًا أخلاقياً، ومحمّلاً سياسيّاً. إذا درسنا الفرضيات المتضمَّنة فى القرار، سنجد أنه فى العرف الأمريكى يجب أن يكون الإرهاب ملتصقًا بأيديولوجيا معيّنة . تحديد هذه الأيديولوجيا ليس عملاً محايدًا أو طبيعياً. إنه عمل ينشأ من سلسلة من المعارك الجيوسياسية الأمريكية.

وطبقًا لوسائل الإعلام المشتركة، فإن جميع أنواع العنف العربى إرهابية، ولا يهم مصدرها أو مقصدها، ولذلك من المعقول التفكير فيما إذا كان مطلق النار عربياً، فإن هياجه سيعتبر فى الحال إرهاباً. لم يكن " تشو " فارغًا أيديولوجياً، لقد عبّر فى الواقع عن أيديولوجيا، وهى أيديولوجيا موجهة بشكل مشوّش إلى إدانة "الشباب الأغنياء". إذا أعلن "تشو" أيديولوجيا سياسية أكثر وضوحًا – "الأيديولوجيا المعيّنة"، التى أشرت إليها سابقًا – عندئذ قد يتغيّر تفسير العمل الذى قام به، وخاصة إذا ازدرى "تشو" السياسة الأمريكية الخارجية أو أى إله زائف يُستخدم لتحديد مستوى مناسب للوطنية. الخيارات الاصطلاحية فى هذه الحالة تشير إلى الإرهاب الذى يعرّف عادة فى الولايات المتحدة مبنيًا على وجهة النظر والعرقية، أكثر منهما على الارتكاب الفعلى للعنف غير المبرر، حتى لو كان موجهًا دون تمييز إلى المدنيين.

حتى فى غياب رمز أيديولوجى مختزل للإرهاب، فإن بعض المعلقين حاولوا إيجاد رمز عن طريق وضع الإرهاب فى منطقة مألوفة، تُدْعَى "العنصر الإسلامى"، فى هذه الحالة، كان هناك توقيع فى نشرة موزعة باليد، باسم "إسماعيل إكس"، استخدمه "تشو" فى رسالة غير مترابطة، وفيها أيضًا شبّه نفسه - أكثر من مرة - بالمسيح عيسى. ولكون "إسماعيل" اسمًا إسلامياً، فقد جعل نوبة القتل إرهابية بشكل ممكن. أما مقارنة نفسه بالمسيح، فلكونها غير مفيدة أيديولوجياً، تم تجاهلها بشكل ملزم.

فلنضع هذا كله فى الاعتبار. "تشو" كان يفتقر بشكل واضح إلى المعرفة الكافية بكل من "إسماعيل" وهو أحد أبناء "إبراهيم"، أو "عيسى"، وهو أحد أبناء سلالة "إبراهيم". لقد ألّف خطبة طويلة فى إحدى حجرات السكن الداخلى الجامعى بين جرائم قتل جماعى مختلفة. وكونها أخذت توقيعًا غامضاً، مشيرًا إلى لا شىء سوى تلميح مضلل لوسائل الإعلام كى تفكر فى إمكانية كونه عملاً إرهابياً، فهذا يخبرنا فى الواقع بكل ما نحتاج معرفته حول اعتباطية الحدس وتسييس الرعب. إن القتل العشوائى لاثنين وثلاثين مدنيًا بريئًا ينبغى أن يكون به ما يكفى لتحذير الناس من إمكانية حدوث الإرهاب.

وبينما نحن فى موضوع الإرهاب فى جامعة "فرجينيا تك"، فمن المهم أن نلاحظ أنه فى أثناء تغطية مذبحة السادس عشر من إبريل، بذلت وسائل الإعلام المشتركة أقصى ما فى وسعها لتبرئة كل شىء أمريكى من العنف. لقد سمعت معلّقين كثيرين يعلقون بانزعاج على أن عائلة "تشو"، والذين هم مهاجرون كوريون، بدت أنها انصهرت جيدًا جدًا فى الولايات المتحدة. كيف، إذن، يمكن لواحد منهم أن يفعل مثل هذا الأمر؟ هذا السؤال يجعل الأمر يبدو كما لو أن العنف غير موجود فى الولايات المتحدة، وأن الأمريكى الحقيقى لا يرتكب العنف أبداً، أو على الأقل ليس العنف غير المبرر. (" تشو" لن يبلغ أبدًا منزلة أن يكون أمريكيًا). أود أن أبين، مع ذلك، إنه بالضبط لأن " تشو " انصهر فى المجتمع الأمريكى، فقد

أمكنه أن يفعل ذلك. حوادث إطلاق النار فى المدارس، على كل حال، لا تحدث فى كوريا الجنوبية. إنها تحدث فى الولايات المتحدة.

"وولف بليتزر" [١] قام بهذا التلميح فى مقابلة أجراها مع "جمال البرغوثى"، وهو طالب أجنبى، أخذا وقتًا طويلاً فى البث المرئى عن طريق الهاتف المحمول، خارج قاعة "توريس هول"، موقع جريمة القتل الجماعى الأساسى. سأل "بليتزر" "البرغوثى" من أين هو، وهو سؤال يعرف "بليتزر" إجابته مسبقاً. عندما أجاب "البرغوثى" بقليل من الارتباك: "فلسطين"، طلب منه "بليتزر" مناقشة كيف كان العنف مفاجئًا فى جامعة "فرجينيا تك" بالنسبة له. كان "بليتزر" يتصيّد شيئًا معيّناً، ومن أجل هذا الشيء "البرغوثى"، ربما دون وعى منه، قدم الشَرَك: الناس فى الشرق الأوسط معتادون على العنف، ولذلك فإن الأمر حتمًا كان صادمًا وربما مؤذيًا كذلك بالنسبة لهم، عندما يصادفون العنف فى الولايات المتحدة.

هذا النوع من الأسئلة، والشائع عقب حادث إطلاق النار، يصدّر العنف إلى بقية أنحاء العالم. الأكثر أهمية من ذلك أنه يتجاهل دور الولايات المتحدة فى ارتكاب وإثارة العنف فى أمكان اخرى. إنه نوع من الأسئلة يستخدم التعاطف الظاهرى ليخفى مجموعة كبيرة من الافتراضات الشوفينية. يمكننا أن نتظاهر بكل ما أتيح لنا من اعتداد بالنفس من أجل أن ننمّى ادّعاءنا بأن الأجانب فقط الذين يتصرفون بطرق عنيفة. ويمكننا أيضًا أن نلوم موسيقى "الراب" وألعاب "الفيديو جيم" بسبب تشجيعها للعنف، إلى أن تقرقع أسناننا. فى النهاية، مع ذلك، فإن الحقيقة المروّعة هى أن الحكومة الأمريكية تؤدى عملاً رائعًا لصالحها بتغذيتها لثقافة العنف فى الولايات المتحدة. أخيراً، الأمر يستحق أن نوضح أنه قبل أن يتم تحديد هويّة "تشو"، سمعت الآتى من أشخاص أعزاء كثيرين: "آمل ألاّ يكون عربيًا". أو بعد أن تم تحديد هويته: "الحمد لله أنه لم يكن عربيًا". ماذا تعنى هذه العبارات؟ كيف ستكون المأساة مختلفة لو كان "تشو" عربيًا؟

---

(١) صحفى ومذيع بشبكة CNN. (المترجم)

لا أحد قال هذه العبارة فعل أى شيء أكثر من التعاطف الكامل، معظمهم، فى الحقيقة، كانوا هم أنفسهم عرباً. إليكم التفسير الممكن للعبارة: إذا كان "تشو" عربيًا فإن ثقافته ودينه سيستخدمان لتعليل عمله الرهيب. كل العرب عندئذ سيلامون وسيكونون عرضة للعنف، والدعوات إلى الترحيل و/أو السجن فى مراكز الاعتقال السريّة العديدة فى الولايات المتحدة. كيف عرفنا ذلك؟ لأن ذلك تمامًا ما حدث للأمريكيين العرب بعد ٩/١١. عندما قال لى الناس: "الحمد لله أنه ليس عربيًا"، فقد كانوا فى الواقع يقولون: "الحمد لله أنك لست فى خطر".

هذه الاتجاه لإجمال المجموعات العرقية ينشأ من دوافع عنصرية قوية فى الولايات المتحدة. البيض يمكنهم ارتكاب جرائم كأفراد، لكن الأفارقة، والسكان الأصليين، والآسيويين، والأمريكيين اللاتينيين لا يملكون هذا الخيار. إنهم يرتكبون الجرائم كرمز للانحراف الثقافى. إنهم غير مسموح لهم بالعمل منفردين. كل شيء سيىء قد يفعله أحدهم يُستشهد به كدليل على الانحطاط الجماعى. بالنسبة للمجرمين الذين قد يتصادف أن يكونوا مسلمين، لا يمكن أن يكون هناك تفسير آخر لسلوكهم (إلا إذا كان هذا السلوك مرغوبًا).

وهكذا وفّر "تشو"، بمظهره غير الأمريكى التقليدى، على وسائل الإعلام عناء ممارسة الاستبطان لفحص دوافعه ومشاعره.

مع ذلك يبرز جانب إنسانى بوضوح فى مأساة جامعة "فرجينيا تك"، وأنا لست راغبًا فى إغفاله. إن ما حدث فى "فرجينيا تك" فظيع بشكل لا يوصف. إننى أفكر فى فظاعته كشخص كَبُرَ بالقرب من حرم الجامعة. ويربط تاريخ عائلتى حدث الهجرة بالوصول إلى "فرجينيا تك". إن حرم جامعة "فرجينيا تك" ومدينة "بلاكسبيرج" محفوران فى "دى إن إيه DNA" ذاكرتى. لدىّ ارتباط هائل بالمكان وإحساس عميق بالرعب مما حدث هنا. هذا المكان يربط حياتى فى الولايات المتحدة بأسلافى فى الأردن. ولكن حتى فى لحظات المأساة، فإنه من المهم مواصلة التفكير مليًا فى كيف أن المأساة مُثّلت من قِبل أناس مختلفين، بأنصبة مختلفة، وبأشكال مختلفة من التمثيل.

إن ما حدث للطلاب فى جامعة "فرجينيا تك" ليس مختلفًا كثيرًا جدًا عما يحدث بشكل معتاد فى العراق وفلسطين. الشىء نفسه موجود بأنحاء العالم الأخرى، لكننى أريد أن أركز على العراق وفلسطين باعتبارهما موضع اهتماماتى السياسية. وبلا شك، هناك اختلافات خطيرة بين المذبحة التى وقعت فى "بلاكسبيرج" والأشكال المعتادة للعنف التى يعانى منها العراقيون والفلسطينيون. لذلك، عندما أقول أن الاثنين ليسا مختلفين كثيرًا جدًا، فإننى أتحدث عن مستوى الخوف والرعب الناجمين بشكل روتينى عن العنف فى العراق وفلسطين. إنه مستوى مشابه لما عاناه سكان "بلاكسبيرج" للمرة الأولى فى السادس عشر من إبريل ٢٠٠٧.

الاختلاف الرئيسى هو أن الناس فى فلسطين والعراق ليس لديهم إمكانية الوصول إلى الموارد اللازمة لدخول ساحة جامعة وادعة وثريّة. وليس لديهم القدرة على زيارة المستشارين الاجتماعيين الذين يعملون "طوال أربع وعشرين ساعة". إنهم ببساطة لا يمكنهم أن يوقفوا سيارة ويهربوا. إنهم لا يستطيعون أن يكونوا واثقين فى وجود نظام أمنىّ فعّال. كل هذه الأشياء يجب أن تكون متاحة، وكانت متاحة بالفعل لمجتمع "فرجينيا تك". إنها ضرورية لجميع ضحايا العنف العبثىّ، وحقيقة أنها غير متاحة لضحايا العنف العبثىّ من العرب تخبرنا بالكثير حول كيف أن التعاطف تكون له الأولوية فى الولايات المتحدة.

أريد من الأمريكيين أن يتفهّموا العنف الذى يعانى منه الضحايا العرب، بدلاً من التفكير فقط فى كيف أن العنف الذى يعانيه العرب يؤثر على المصالح الأمريكية. أريد منهم أن يكون شاعرين بالأسف بسبب أن جنود الاحتلال الإسرائيلى أحيانًا ما يطلقون النار على مدارس عربية مليئة بالأطفال الأبرياء. أريد منهم أن يفهموا أن ما حدث فى "بلاكسبيرج" يحدث كل يوم فى العراق – وأحيانًا ثلاث أو أربع مرات فى اليوم. وشعب العراق ليس لديه مهرب من هذا الرعب. فى يوم السادس عشر من إبريل ٢٠٠٧، قُتل ١٩٢ مدنيًا عراقيًا. ما حدث

فى "بلاكسبيرج" صادم ومروّع ومفجع. وهكذا يكون ما يحدث للتلاميذ والمدنيين الفلسطينيين والعراقيين، مع التكرار المُعَذِّب. بإمكاننا أن ندين مذبحة " بلاكسبيرج" دون ندم أو تكفير عن إثم. يمكننا أن نحزن دون إحساس بالذنب. لكن هذا لا يحدث فى الواقع فيما يخصّ العراق وفلسطين. إننا نُستغلّ فى مواقع العنف تلك كدافعى ضرائب أمريكيين. ونحن متورطون فيها بعدم مبالاتنا.

إذا لم تكن مذبحة "فرجينيا تك" قد جعلت تعاطفنا شاملاً العالم كله، عندئذ نكون فقط قد أدينا تطهّرًا قوميًّا فى الأسابيع التى تلت للمذبحة. المآسى تخفّ وطأتها عندما تُعلّمنا دروس التحمّل، إنها تتكرر عندما نتعامل معها بسطحيّة.

فى يوم الأحد التالى لجريمة القتل الجماعى التى نفّذها "تشو"، جاء والداى بسيارتهما إلى "بلاكسبيرج" من "بلوفيلد" لزيارة وتحيّة الحرم الجامعى. وكما أنه أراد أن يعلن تنبّؤه بمصيبة أو أن يقرّ بالرمزيّة، صار الطقس باردًا وغائمًا فى الأسبوع السابق ليوم السادس عشر من إبريل. الصور الإخبارية ليوم السادس عشر من إبريل أظهرت ندف الثلج تنطلق هنا وهناك فى الريح الهائجة.

هذا اليوم، رغم ذلك، كان جميلاً، وسماؤه زرقاء صافية، ومنسّمًا إلى حد ما. البراعم كانت فى حالة إزهار جديد. والعشب نما إلى درجة الاكتمال الأخضر. هذا الطقس كان بالفعل رمزيًّا بشكل واضح.

فى صحبتهما أنا و"ديانا"، قضى والداى ساعات قليلة فى الحرم الجامعى، معيدين التواصل مع طيف ماثل باستمرار: كمهاجريْن طموحيْن وشابيْن، وكوالدين قلقيْن يتحركان جيئة وذهابًا فى انتظار مولودهما البكر، وكمصوّرين فوتوغرافيين فخورين ومتحمسين فى حفل التخرّج، وكحبيبين ناضجين يهتزان فرحًا بعودة أحد أبنائهما إلى البيت.

جموع من الزوار المحزونين، مرتدين اللونين البرتقالى والأحمر الداكن، كانوا يتجولون بتمهّل حول محيط ميدان التدريب، متوقفين أمام الملصقات العديدة

وعبارات الثناء والتقدير والتذكارات المعروضة فى مكان بارز، والكثير منها إهداءات من جامعات من مختلف أنحاء الدولة. يوجد هدوء مرغوب بشدة فى الحرم الجامعى بسبب موقفنا الجماعى المهيب. كان هناك ارتياح لمعرفتنا، على الأقل فى هذا اليوم، أننا جميعًا معًا. لا أستطيع تحديد ذلك الأمر. فى ذلك اليوم كنا جميعًا معًا ببساطة. إنه نوع من الصداقة الحميمة، والتى أحب أن تكون سائدة. أنا أشعر بالذنب مثل أى شخص آخر على أنها لم تكن موجودة فى الماضى، وسأستمر فى حالة الإحساس بالذنب إن ظلّت غائبة فى المستقبل.

كان والداى يدخلان فى المنطقة المجردة للمتقدمين فى العمر، أدركت ذلك. كانت أمى لا تزال جميلة، خاصة فى هذا اليوم، مع ضوء الشمس الذى يضفى جمالاً على بشرة بلون القرفة، والتى أصبحت شاحبة قليلاً نتيجة للعلاج الكيماوى. اللون الأسود السابق هجر شعر والدى الذى لا يزال كثيفاً، لكنه بدا وقورًا فى مظهره الفضىّ. كانا يمشيان ببطء أكثر هذه الأيام. إنهما يتعثران دون أن يصطدما بأى شىء. ويستريحان لوقت أطول بعد المشى لمسافات أقصر. لكنهما يمشيان معًا وأيديهما متشابكة. كانا مصدومين بسبب المأساة. إلا أنهما لم يمنعا نفسيهما من أن يكونا سعيدين أيضاً. لا يوجد تناقض فى هذه المشاعر المختلطة : فالمأساة تولّد الاتحاد، والسعادة لا تنشأ سوى من أناس متحابين يلتقون معًا.

"ديانا" وأنا أمسكنا بأيدى بعضنا البعض بإحكام. وأمكننا أن نرى مسار حياتنا، ومستقبلاً واعداً، حيث ينبغى أن نوجّه طموحنا. نعلم جيدًا أن حياتنا هذه لا يراد منا أن نعيشها وفقًا لمنطق الحكمة السائدة. فقد تكون هناك سعادة فى خوض المخاطرة العظيمة للبحث عن المألوف. إننا نطمح إلى إعادة تعريف الاحترام على أنه نتيجة لحب الواحد للآخر والبقاء معاً. مكان مثل جامعة " فرجينيا تك " يحدث نوعًا فريدًا من الهدوء.

هؤلاء المنتسبون إلى جامعة "فرجينيا تك" والأماكن المشابهة، لا يريدون أن يمعنوا النظر فى أن العنف يمكن أن يعتدى بوقاحة على هدوئنا، ونكون مصدومين

بشكل مبرر عندما يفعل ذلك فى الواقع. على كل حال، أماكننا تتواجد داخل مجتمعات عنيفة أكبر، والشباب المضطرب مضطر لأن ينظر إلى ما هو ليس أبعد من عقيدة الحق فى الاستيلاء على الشيء قبل الآخرين، والتدخل بالقوة ليعلم الآخرين أن البندقية تظهر الانفعال بطريقة أقوى من الحوار أو الدبلوماسية .

الهدوء الذى يسمح لمكان مثل جامعة "فرجينيا تك" كى يكون مرغوبًا جداً، يستحق القتال من أجل الحفاظ عليه. إنه يستحق الزيادة. إنه قبل، كل شيء، يستحق أن يُصَدَّر. "ديانا" وأنا أصبحنا مضفورين مع المكان فى "بلاكسبيرج"، إنه واقع متعدد المعانى. إن والدى تأثرت عواطفهما بسببنا بقائنا هنا. فقد أصبحنا الامتداد لماضيهما فى "فرجينيا تك". لم يستطع "تشو" تقويض هذه العلاقة. لقد ذكّرنا – مقابل ثمن باهظ – بأن هدوءنا دائما ما يشارك فى جدليّة مع أكثر أشكال الحياة همجية. علينا أن نحاول تذكير أنفسنا بهذه الجدلية من غير بدء المأساة .

إننى مرتبط بذكرى تقديمى لطلب العمل إلى قسم اللغة الإنجليزية فى جامعة "فرجينيا" تك. فقد كنت مناسبًا بشكل مثالى لمواصفات الوظيفة، وأخلصت الولاء لمثلٍ أعلى قبل الآن حول هذا المكان الذى وجهت إليه طلبى. تستخدم جامعة "فرجينيا تك" نظامًا إلكترونيًا لتقديم الطلبات. دخّنت ثلاث أو أربع سجائر أمام الكمبيوتر، وأنا أدرس وأعيد قراءة ملفات الـ PDF التى تحتوى سيرتى الذاتية وخطاب الغلاف. لم أستطع فى النهاية أن أضغط بسبّابتى على "الفأرة" لتوجيه المحسّ إلى زرّ "قدّم الطلب". كنت متأكدًا من أننى سأحقق الأفضلية المذهلة، لكننى كنت عصبيًا بسبب مكابرتى الزائفة. فحوارى الداخلى كان يطلب منّى أن أؤمن بأشياء مجرّدة مثل الحظ والقدر، أشياء لست مستعدًا ذهنيًا لأن أفكر فيها بجديّة .

خصّصت لزيارة الجامعة بعد ذلك بستة شهور ساعات أطول مما خصّصته من قبل لأى مقابلة وظيفة. لم يعد القضاء والقدر أمرًا يشغلنى. فبمجرد أن يعطونى فرصة العمل، سأكافح لكى أنجح بفضل جدارتى الخاصة. كما أننى لست مهيّئًا عقليًا للفشل.

"ديانا" وأنا خططنا جيدًا للانتقال إلى "بلاكسبيرج". عندما قبلت رسميًا وظيفة أستاذ فى جامعة "فرجينيا تك"، اتصلنا بوالدىّ فى جنوب "فرجينيا"، من أجل أن نربط الوقت فى الحال بما هو مخصص له. بعد ذلك اتصلنا بوالدىّ "ديانا" فى شمال فرجينيا "من أجل أن نربط فى الحال المكان بمهمته الزمنية. وعلى مدى الشهور القليلة التالية انتقلنا من" ويسكونسين "بسهولة. كنا عائدين إلى موطننا. وهذه الخطوة كانت مريحة.

لم يتخيّل أحد منّا أن عامنا الأول سوف يُميّز بجرائم قتل جماعى مختلفة. لا أحد منا، مع ذلك، عديم الخبرة إلى الحد الذى يمكن أن يصدق فيه أن العنف بدنىّ فقط. لقد فوجئنا، آنئذ، بمعنى الملاقاة من غير توقّع. العنف فى حد ذاته هو شيء ما ينتشر فى أرجاء الولايات المتحدة، حتى فى الأماكن الخالية من الأسلحة النارية والعابقة بالإيمان بدلاً من ذلك.

كانت نوبة القتل فى السادس عشر من إبريل ٢٠٠٧ شكلاً طموحًا من أشكال الإرهاب، لكنه ليس عنيفًا بشكل استثنائى. فى جامعة "فرجينيا تك" واجه الإرهاب أنواعًا أخرى من الطموح، البعض متعاطفون مع المتشابهين معهم، والآخرون متعصبون لعرقيّاتهم. لقد حدث هذا من قبل، بطرق كثيرة جدا، فى أماكن كثيرة جداً. وقد حدث مرة أخرى، فى مكانًا ما، وبطريقة ما، حتى عندما توقفنا، والداى و"ديانا" وأنا عن الابتسام، فى يوم ربيعىّ متألّق، وحللنا أصابعنا المتشابكة، ومشينا فوق دفقات الدم الجافة الملتصقة برصيف قديم.

هل جاكاس لا يمكن تبريره ؟

واحد من الجوانب الأكثر روعة لكونك أستاذًا هو أن تمتلك الفرصة كى تشارك فى المناقشة الشاملة مع الطلاب نافذى البصيرة والأذكياء. والشىء الأكثر إمتاعًا فى هذه المناقشات يتلخّص فى تصوير العرب فى الثقافة الشعبية الأمريكية، والذى أعتقد أنه سلبىّ بشكل لا يمكن تبريره.

ليس صعبًا أن تأتى بمجموعة من الناس ذوى اتجاهات سياسية متنوعة، لكى يتفقوا على أن العرب لا يصورّون بشكل إيجابى فى السينما وفى التليفزيون. إنها كلمة "بشكل غير مبرر" التى تسبب الجدال المثير. العديد من طلابى، عاكسين وجهة نظر معظم المعلقين المحترفين، يعتقدون أن العرب يُصورّون بشكل سلبى لأنهم يستحقون أن يصورّوا بهذه الطريقة.

يمكننى أن أفهم الأساس المنطقى لوجهة النظر هذه، ولكننى مع ذلك أجدها مشكوكًا فيها. إن تصوير العرب على أنهم إرهابيون ومتعصبون أو مشبوهون عاديون أمر غير مبرر، ليس لأن العرب لا يتصرفون أبدًا بشكل سلبى، ولكن لأن تلك هى الطريقة الوحيدة التى تصوّر بها السينما والتليفزيون الأمريكيان العرب. وفى حد ذاتها، الصور تلمح بشكل إجمالى إلى أن العرب غير قادرين على الإسهام بشىء فى المجتمع الأمريكى سوى العنف أو الغباء .

لذلك، عندما يقول لى أحد ما، "كيف للأفلام المتعلقة ب- ٩/١١ ألاّ تصوّر العرب على أنهم إرهابيون؟"، فإننى أجيب موضحًا أن ٩/١١ ليس هو الخلفية الوحيدة التى يمكن أن يصوّر عليها العرب. العرب يمكنهم أن يصورّوا كأطباء وطلاب علم وجال شرطة وعلماء وعمال بناء وآباء مخلصين ومواطنين ملتزمين بالقانون. فى الواقع، يوجد الكثيرون جدًا من هذه النوعية من العرب فى العالم أكثر من إرهابيى ٩/١١ الأربع والعشرين.

الهدف، بمعنى آخر، هو ليس أن نضع مختطفين أيرلنديين أو يابانيين فى الطائرات فى الأفلام السينمائية المنتجة حول ٩/١١. الهدف هو أن العرب ليسوا فى حاجة إلى أن يُحصروا فى هذه الطائرات، لأنها فى النهاية أشياء خيالية تُوظّف من خلال قصة لا يهم ادعاؤهم كثيرًا بأنها واقعية.

ل- "هوليوود" تاريخ بشع فى اختزال العرب إلى أغبياء وأوغاد. الوسائل الحديث للعنصرية ضد العرب مثل أفلام : 24 , Hidalgo , Jag , Fahreheit 911، ومجموعة كبيرة من الإعلانات التجارية التى لها سابقتها فى تلك الكلاسيكيات مثل: " Black Sunday , Sirroco , Follow That Camel، ومعظم أعمال "تشاك نوريس" [1].

شخصية العربى المخادع لها حضور فى السينما الأمريكية منذ اختراع السينما.

حجة أن أعمال العنف العربى تثبت هذه الصور، هى حجة عرضية وغير وافية من الناحية الخطابية. إنها حجة مشكوك فيها أيضًا: الأمريكيون البيض يرتكبون الإرهاب، لكن الأمريكيين البيض يصوّرون دائمًا على أنهم مسالمون.

على العكس، فإن العرب يقضون كل يوم غير مرتكبين للإرهاب، لكنهم نادرًا ما يصوّرون على أنهم مسالمون.

على كل حال، نحن لا نتحدث عن حقائق جيوسياسية. نحن نتحدث عن التصوير، الذى ليس هو الشىء نفسه كما فى الواقع. التصوير، مهما يكن، الذى غالبًا ما يخلط بالواقع، منتجًا ما يسميه المنظّرون الأدبيون الصورةَ الزائفة، وهى واقع زائف أو بديل. وفى واقع "هوليود" الزائف لا يُسمح للعرب بأن يكونوا أى شىء غير إرهابيين، وهو وضع يجعلهم نماذج قاسية للعنف وفاعلين له ليس أكثر.

---

(١) تشاك نوريس (١٩٤٠ ــ ..) ممثل سينمائى وتليفزيونى أمريكى شهير (المترجم)

لذلك عندما يحتج الناس بأن ذلك كافٍ تمامًا لإعادة اختراع الإرهابى العربى باستمرار، فإنهم يوظفون حجة تعتمد على واقع زائف لمنطق معيب غامض: العرب يُعتبرون نماذج للعنف ليس بسبب أنهم يرتكبون الإرهاب بأعداد متفاوتة، وإنما لأنهم يُصوّرون بشكل غير متناسب على أنهم إرهابيون. التصوير، بمعنى آخر، يصنع الواقع الزائف الذى يشير إليه الناس بعد ذلك على أنه حقيقى.

إننى دائمًا ما أوحى للطلاب بأننى، العربىّ الأمريكى الذى لم يرتكب العنف مطلقاً، يجب أن أكون متيقنًا من أن تصوير العرب بشكل مطلق على أنهم إرهابيون شىء غير مبرر أخلاقيًا وعمليًا على السواء. بهذه الطريقة، فإن طلابى الذين يصادفون على مدى حياتهم عرب الثقافة الشعبية فقط، يكون لديهم المدخل إلى واقع الحياة العربية الذى تم تعتيمه بواسطة التصوير السلبى.

أود أن أوضح أن هذه المواجهة بطريقة ما تخفف من عملية القولبة الفظيعة للعرب والمسلمين فى الولايات المتحدة اليوم. بطريقة ما، أنا متأكد أنها تفعل ذلك. ولكن مرة أخرى إذن، لم أكن أبدًا فى فيلم سينمائى.

نموذج بغيض لهذه القضايا يمكن أن يوجد فى "الغبى Jackass"، وهو سلسلة أفلام تليفزيونية تصور رجالاً يقومون بالأعمال البهلوانية، يعملون بأقصى جهد ليثبتوا أهليتهم باللقب الذى أطلقوه على أنفسهم. فيلما "جاكاس" الاثنان أبرزا، كما هى صفة هذا النوع من الكتابة، مجموعة من الشباب يتزعمهم 'جونى نوكسفيل'، وهم يمثلون أدوار بهلوانات عديدين أو يلقون بالنكات أحدهم على الآخر، مع الغرض الظاهر لإحداث ألم مقنن نوعًا ما. إن "جاكاس" خليع وفجّ ومتنافر وسخيف وثقيل .

إننى أعتبر نفسى معجبًا بالمسلسل.

أفهم أنه لأننى لست ولدًا له إخوة، نمطى وغير مشوش، أو سنّى ثلاثة عشر عاما ولا يفترض أن أستمتع ب- "جاكاس"، ولكن رغم الغرابة المنطقية، فقد

استمتعت به. إننى أستاذ جامعى يرتدى معطفًا رياضيا، به رقع كوع بيضاوية الشكل، ومجازفته الكبرى هى ركوب الدراجة مارًا بثلاث ساحات كبيرة حتى "ستارباكس" بدون خوذة، لذلك أتخيل على بعض المستويات أننى أجد شيئًا ما رائعاً، أو ربما مثيرًا للحسد فيما يخص الناس الشجعان بما يكفى لأن يُخضعوا أنفسهم لألم خيالى ومخاطرة بدنية. (أحد المهرّجين يورّط ثلاثة " أغبياء jackasses" يقفون أشباه عراة أمام سلاح يطلق فى انفجار واحد وابلاً من الطلقات الفولاذية المغطاة بالمطاط. لقد فوجئوا ببقع أرجوانية اللون، بصلية الشكل على أرجلهم وبطونهم، فى الوقت نفسه أنا أرتعد من فكرة قطع الورق - الموضوع الذى، بالمصادفة، يخص مهرّجًا آخر).

إعجابى بالمسلسل، مع ذلك، يذهب إلى ما هو أبعد من الحسد الضمنى أو اكتشاف أنانية "أنا" أخرى. وأعتقد كذلك أن "الغبى Jackass" قد حقق دون قصد مستوى من السخرية اللاذعة. هذه النقاط، لكى نكون متأكدين قليلة، وبعيدة عن بعضها البعض، لأن المسلسل يبقى عادة محصورًا فى السلوكيات الغريبة التى تشمل نوعًا ما من الإيلاج الشرجى، أو شكلاً آخر من اللواط المكبوت بالكاد. وإذا كان تصورى للسخرية اللاذعة العرضية كشىء غير مقصود يبدو غير كريم، فإن ذلك فقط بسبب أن طاقم مسلسل "Jackass" مهتم بتقويض التقاليد الاجتماعية، وليس مجرد السخرية اللاذعة. السخرية اللاذعة تحدث عندما يؤدى تقويض القيم الاجتماعية ليس فقط إلى العبث المادى ولكن أيضًا إلى نقد واضح للعبث بالتقاليد.

فى فيلم "الغبى Jackass" الأول، على سبيل المثال، اختبأ "نوكسفيل" ورفاقه فى دغل من أشجار الصنوبر وأطلقوا نفيرًا هوائيًا - من النوع الذى يستخدم فى الأحداث الرياضية. مماثل للضوضاء التى تحدث عن معدة جرّ ذات ثمانى عشرة عجلة - بينما يضرب لاعبو الجولف الأغنياء كرتهم بقوة. لاعبو الجولف، بشكل متوقّع يصبحون مغتاظين. وفى النهاية يقذف أحدهم "نوكسفيل" الضاحك بعصا الجولف.

لن أناقش أن هذا المسلسل الهزلى هو سخرية، ولكنى أعتقد أنه يحتوى على عناصر ساخرة انتقادية إلى تلك الدرجة، لأنه يقوّض تمامًا كلمة "دماثة الخلق" المحفوظة بصرامة فى ثقافة الجولف الخاصة بالطبقة العليا. "نوكسفيل" البربرى (المدّعى) ونظراؤه الوحشيون يقحمون أنفسهم فى مكان استثنائى وكريه. وبدورهم يظهرون اعتماده على تلك الاستثنائية من أجل الحفاظ على منزلة زائفة، كما تفعل كل المجتمعات المتحفظة على مدى التاريخ. يقصد من الاستثنائية الإعلان عن الهيبة، لكنها فى الواقع تحجب وتصون فقط صورة ذاتية مضلِّلة. السخرية هى أنه بسبب المكاسب السينمائية من هؤلاء المهرجين (وبسبب بياضه الواضح) استطاع " نوكسفيل " بالفعل أن ينتهك الشخصية، ويحصل على حق الدخول المشروع إلى هذا المكان الحصرى. وكونه اختار أن يدخله بشكل سرّى، فهذا يضيف بعدًا مركّبًا للملهاة.

هل يشير هذا المثال إلى أن هناك شيئًا ما يمكن إصلاحه فيما يتعلق بملهاة "جاكاس"؟ أشك فى ذلك. إنه يعنى ببساطة أن هناك شيئًا ما ممتعًا فيما يخصه، حتى من السكان المكونين من أناس وقورين وحذرين بشكل مفرط.

القصة الهزلية القصيرة البالغة ذروتها فى "جاكاس رقم ٢" تجعل الفيلم من لحظة إلى لحظة مثالاً لقضايا التصوير النظير للعرب. تحت عنوان "تاكسى الإرهاب" تتضمن التمثيلية مزحة مزدوجة مستهدفة واحدًا من الأغبياء (jakasses)، "إهرين ماكجيهاى"، الذى يُخدع باعتقاده أنه يقوم بالتندر على أحد الأجانب.

"ماكجيهاى" يعتقد أنه سينفذ حيلة مثيرة على سائق تاكسى عابر بالصدفة والذى سوف ينقله إلى مطار "بيربانك". كان "ماكجيهاى" يخطط للتسلل إلى سائق التاكسى الذى هو على وشك أن يرتكب عملاً إرهابياً. سائق التاكسى، مع ذلك، هو ممثل، والمزحة ستكون على "ماكجيهاى".

القصة الهزلية هى سيناريو أكثر من كونها طرح عروض "جاكاس" النمطية، وتشتمل على قدر معقول من التخطيط. "ماكجيهاى"، قبل كل شىء، يحتاج إلى أن يبدو كإرهابى، وهى النقطة التى يبدأ عندها التقييم العرقى فى العمل الدخول إلى حيز التنفيذ. ومن أجل إنجاز هذا الهدف، تم تزويده ب- "كوفية" حمراء، وصندل، وثوب أبيض فضفاض، وحزام ديناميت مقلّد، ولحية مستعارة - هذا هو "جاكاس" مع كل ذلك - مصنوعة دون علمه من شعر عانات الأعضاء الآخرين بالفرقة. وهو أيضًا يستخدم طريقة نطق مصطنعة تبدو أكثر مثل حوار "هوليود" الإنجليزى العربى المفتعل من كونها إنجليزية حقيقية مستعملة كلغة ثانية من قبل متحدثين من العالم العربى. هذه اللهجة مضاف إليها التشدق والترديد الفارغان اللذان يميزان الصوت العربى فى وسائل الإعلام الأمريكية.

من البداية، هؤلاء المتورطون فى التخطيط للمزحة يبدون متوافقين مع نوع الخيال الذى يوظفونه. "لا تخبر (سائق التاكسى) بأنك من أى بلد معين"، يحث عضو الفرقة" بريستون لاسى" "ماكجيهاى". وليس واضحًا لماذا يوجه "لاسى" هذا التحذير. ربما من أجل أن يقتنص شحنًا عنصريًا ممكنًا، أو ربما لكى يُشرب "ماكجيهاى" بدرجة أكبر بالتنبه للتدقيق المطلوب من أجل مهمته. ومهما كان السبب، فإن ذلك يدل على فهم للكلمات والأفكار بالغة الدقة. "إنه مصنوع بدون براعة، لكنه عظيم" قالها عضو آخر بالفريق، منغّمًا صوته، وهو "بام مارجيرا". مرة أخرى فإنه غير واضح ما إذا كان "مارجيرا" يشير إلى حقيقة أن "الأغبياء jackasses" موشكون على أن يأكلوا لحم أحدهم بمزحة قذرة إلى أبعد الحدود، أو ما إذا كان يشير إلى نوع الخيال الذى تستخدمه المزحة. مهما يكن، العبارة تدل على وعى بالمادة بالغة الدقة مفتقد فى الحيل الأخرى.

السبب فى أن عبارات "لاسى" و"مارجيرا" ينبغى أن يتم فهمها على أنها أكثر من مجرد ملاحظات بلا فائدة، هو إنكار مواكب يبديه "مارجيرا" عندما يلبسون "ماكجيهاى" على أنه عربى. يشرح قائلاً: "إننا نجعلك تبدو مثل ما نعتقد أن هذا

الرجل (سائق التاكسى) يتوقع الإرهابى كيف يبدو. نحن لا نسخر من أى شخص. نحن فقط نحاول مجرد ترويع سائق التاكسى".

حجة "أننا لا نسخر من أى أحد" مشكوك فيها، وفى الوقت نفسه فيها مبالغة. "الأغبياء" يمثلون القصة الهزلية بدقة من أجل أن يسخروا من الناس. "لاسى" كان يلمح إلى أن هدف المزحة ليس السخرية من العرب، أو حتى تكوين فكرة غير حقيقية عنهم". إن هدف المزحة بدلاً من ذلك هو جعل "ماكجيهاى" خائفاً بشدة، وإقناعه بأن يتقيّأ أمام الكاميرا عندما يكتشف أن لديه شعر عانة مؤلف من عناصر مختلفة ملتصق بوجهه. "الأغبياء" ينشرون صورة مهينة للعرب فقط كخلفية درامية لعقدة القصة الهزلية ، والتى تسمح ل- "لاسى" بأن يعتقد أنهم لا يسخرون بالفعل من العرب، مع أنه، رغم كل شيء، ليبرالى أكثر مما ينبغى فى حكمه على نواياهم.

بالنسبة لدوره، فإن "ماكجيهاى" مناسب للدور بتشدّقه بالتصريحات البلهاء، مثل "أنا لا أحب هذا البلد، لكننى أحب النهود"، من الكرسى الخلفى لسيارة التاكسى، وتنغيمه تلقائيًا لكلمة "بووم" [١] كما لو كان مبرمَجًا جينيًّا من أجل الإرهاب. هذا التصوير يلخص فى الغالب كيف يُوظّف العربى فى السينما الأمريكية، على الأقل "جاكاس" يُسَوِّق ككوميديا، ولا يمتلك إطلاقًا أى ادعاء بالجودة أو عمق الرؤية، كما يفعل العديد من الأفلام التى تصور العرب تمامًا كما يصورهم "تاكسى الإرهاب" (أفلام مثل: أكاذيب حقيقية True Lies والحصار The seige".

فى الواقع، أنا لا أعتقد أن "الأغبياء" يحاولون بالفعل السخرية من العرب جميعاً، بوصفهم مجموعة عرقية أو ثقافية. فالمسلسل التليفزيونى ضد الجماعية بشكل عميق، فى الحقيقة، باعتماده على أفعال الشجاعة الفردية (أو الغباء) من أجل

---

(١) صوت دوىّ الانفجار. (المترجم)

إحداث التسلية المحايدة. "الأغبياء" يحاولون بوضوح أن يسخروا من صديقهم "ماكجيهاى"، لكن الحيل الغريبة لهذه المحاولة النوعية احتاجت إلى وجود إرهابى مصطنع لكنه واقعىّ.

وهكذا يكون غرس الاتجاهات السياسية الثقافية فى "جاكاس".

من أجل عمل محاكاة لإرهابىّ حقيقىّ، اضطر "الأغبياء" لاستحداث مظهر مختلق. وقد استعملوا بدورهم جميع الملامح الملحوظة للسيماء العربية مثلما كانت مشهورة فى الثقافة الشعبية، وجاءت بشكل أكثر تأثيرًا لكى تشير إلى وجود شخص إرهابىّ. هذه الملامح مناسبة لأى ادعاء بأن "هوليود" تصور بشكل غير مبرر العرب على أنهم إرهابيون، لأنها تكرر عيبًا أساسيًّا: الإرهابيون الحقيقيون والذين يكونون عربًا لا يرتدون ملابس مثل ملابس العرب: لأنهم ببساطة عرب. إن تلك الأفلام تحس بحاجتها إلى تصوير الزىّ الرامز إلى وضع عرقىّ، لكى تبرز الاستعداد الثقافى الذى يجعل المشروع الكامل لمساواة العرب بالإرهاب عرضيًا ومختلقًا فى الأساس.

إنه بهذه الطريقة تسير الأمور: قل هذا بالنسبة لعيد "الهالووين" إنك تريد أن ترتدى زىّ الإرهابى. ما نوع التنكر الذى ستطلبه؟ إذا أجبت بأنك ستطلب الزىّ الغريب الذى ربما يمثل بإتقان قاعة اجتماعات مجلس الإدارة الرئيسية، فاعتبر نفسك مستنيراً، ولكن تمامًا ضمن أقلية سياسية صغيرة جداً. اعتبر كذلك أن لا أحد من ضيوف الحفلة الآخرين سيعتبرك إرهابيًّا.

الجزء الأكثر إثارة للأسف فى "تاكسى الإرهاب" هو أنه إلى حد ما "الأغبياء" على حقّ: فإذا أرادوا تعظيم إمكانية مزحة ناجحة باستخدام زىّ يقصد منه الرمز إلى إرهابىّ، عندئذ لن يكون أمامهم خيار باستثناء استحضار زىّ عربى نمطى. إن مناقشتنا الأخلاقية يجب ألا تُركِّز فقط على استخدام الزىّ، ولكن أيضًا على إنتاج التمثيلية الهزلية ذاتها، لأن "الأغبياء" من الناحية الاستراتيجية

استجابوا ببساطة للقوانين الثقافية المألوفة لديهم. تلك القوانين الثقافية تملى عليهم أن الإرهابيين خير من يمثلهم هم العرب، لأن العرب لديهم احتكار للإرهاب.

هذه الحقيقة هى انعكاس ردىء جدًا ليس فقط لهوليوود ولكن أيضًا للسياسات الأمريكية الرامية لتصوير العرب بشكل إجمالى. فالخطاب الحكومى فيما يخص العرقية والإرهاب متورّط بشكل أساسى فى هذه السياسات. بهذه الطريقة يضرب "جاكاس" مثلاً لأمة ما عن طريق أشخاص رمزيين.

"تاكسى الرعب" قد يكون أفضل كثيرًا كمزحة إذا لم يكن سائق التاكسى حاضرًا فى التمثيلية الهزلية - بمعنى آخر إذا ارتدى "ماكجيهاى" ببساطة زىّ العربىّ لكى يخيف ضحية مجهولة. على افتراض الحساسية فيما يتعلق بالإرهاب فى الولايات المتحدة، فقد يبدو من المستحيل تقريبًا تنفيذ ذلك النوع من العمل البطولى المثير الذى يعتقد "ماكجيهاى" أنه يقوم بتنفيذه. من وجهة النظر هذه، فإن "الأغبياء" متورطون فى زيادة العنصرية ضد العرب من خلال مساواة الصورة الشرق الأوسطية بالإرهاب، لأنهم استطاعوا أن يؤدوا جميع الدعابات المقززة ضد "ماكجيهاى" بدون استخدام تلك الصورة. باستخدام الإرهاب كملمح رئيسى للمزحة فإن "الأغبياء" يكونون قد سلموا أنفسهم للحاجة إلى الصورة العنصرية، كمنتج إضافى لقوانين ثقافية معينة، حتى لو لم تكن المزحة بالضرورة تقرّ بأخلاقيّة تلك القوانين.

حتى لو استمر "جاكاس"، وبالتالى أعاد إنتاج هذه القوانين الثقافية، فإنه سيكون المؤسسة الترفيهية الوحيدة التى أعرف أنها تعترف بأنها تنشر الآراء الشائعة، وتفصل نفسها بوعى عن هذه الآراء الشائعة، المتزامنة مع نشرها لها. وهكذا فإن "الأغبياء" السياسيين وغير الناضجين بشكل واضح أكثر حساسية تجاه العنصرية ضد العرب من نماذج المجتمع الراقى، المفترض كونها سامية المبادئ مثل "جيرى بروكهايمر" و"جويل سيرنو" و"آن هندبرج" و"أرنولد شوارزينيجر" و"أهارون سوركين". ومما يثير الاهتمام، ما يوضحه "تيم جون سمرلنج" فى كتابه

الممتاز "الشرّ، العرب فى السينما الشعبية الأمريكية: الخوف الشرقى"، فإن كيانًا ثقافيًا شعبيًا آخر مشكوكٌ فى صدق تعليقاته التصويرية المبتذلة، هو المسلسل التليفزيونى الداعر المماثل، "ساوث بارك "South Park".

كون مسلسلى "جاكاس" و"ساوث بارك" المنحطّين ثقافيًا يبدوان على وعى بمدى سخافة الرمز العرقى كمرجع سياسى، فهذا يخبرنا بشىء ما حول قدرة الفن الذى يسمى نفسه ثقافة راقية على أن يوجّه رقيّه الخاص من أجل أن ينشر العنصرية المتوطّنة .

أعتقد أنه، كمنهجية، مسلسل "جاكاس" له ما يبرره. فى أى سياق، رغم ذلك، يمكن أن يكون مبرّرًا؟

إنه مبرّر لأنه له حقّ فى أن يذاع على الهواء. إنه مبرّر لأنه على الرغم من أنه مبتذل وصبيانى، فإنه قلّما يكون عدوانيًا. (الشىء نفسه لا يمكن قوله فيما يتعلّق بالعديد من نظرائه الأكثر تهذيبًا على الشاشة الكبيرة). إنه مبرّر لأنه يسدّ فجوة فى سوق الثقافة الشعبية.

وكذلك، نعم، إنه مبرّر من ناحية القيمة الترفيهية. فمسلسل "جاكاس" مضحك بشكل عجيب.

السؤال الأكثر إثارة يتعلق بمحتوى المسلسل: هل التمثيلية الهزلية "تاكسى الإرهاب" "Terror Taxi" كانت مبرّرة؟

إننى أعتبر نفسى متأثرًا بانتشار الصورة السلبية سواء كانت بشكل ماكر أو بصراحة فى الأفلام السينمائية وعلى شاشة التليفزيون. مع وضع هذا التوصيف فى الاعتبار، أودّ أن أضيف ملاحظة وهى إننى لا أرى أن "تاكسى الرعب" عدوانيًا بشكل خاص. (هذه الملاحظة ينبغى ألاّ يُساء فهمها من أجل الادعاء بأن "تاكسى الإرهاب" غير مسىء للعرب الأمريكيين). إننى بالفعل أرى التمثيلية الهزلية

مزعجة بشكل واضح، لكننى ألقى بمعظم اللوم على النماذج الثقافية الموجودة والتى تأثر بها "الأغبياء" Jakasses " فقط لا غير.

على أرض الواقع، فإن المساواة الدرامية للعرب بالإرهاب مألوفة جدًا لدرجة أن الأغلبية الساحقة من مشاهدى الجزء الثانى من مسلسل "جاكاس" من المحتمل ألاّ يفكروا حتى فى الظروف التى يمكن أن يحدث فيها التهديد الإرهابى. إن "تاكسى الإرهاب" بالتالى ذو دلالة على الأدوات السينمائية والسياسية التى من خلالها يُستغلّ الإرهاب على نحو واسع من خلال الرموز العرقية التى تحاكى الثقافة العربية.

إن هذا كافٍ لأن يجعلنى أفكّر مليًّا بطريقة أكثر مباشرة.

ربما ينبغى أن أترك عادة الكتابة هذه وأذهب للاستماع إلى ومشاهدة بعض الأفلام. فيلم "جاكاس" يبدو أنه يحتاج إلى قليل من التدريب الدرامى. وإننى متأكد إنه واحد من التراخيص السينمائية القليلة التى لا تتورط فى التفرقة العنصرية. سوف أراهن على أن "جونى نوكسيفيل" قد يكون متأثرًا فقط بشخص رياضى متهور يرتدى معطف قتاليًا ويقود دراجته أحيانًا دون أن يضع خوذة على رأسه .

مخاطر ومكاسب أداء عمل مقارن

لقد دُرّبتُ أكاديميًا كمتخصص فى الثقافة القومية الأمريكية، وهو مصطلح أجده غير جذّاب، وعلى الرغم من أن المصطلح ليس له تأثير كبير هذه الأيام فى مجال الدراسات القومية الأمريكية (أو فى الأسماء العديدة الأخرى التى تتأثر بها الدراسات الأمريكية أو تكون مرتبطة بها: الدراسات الأمريكية الهندية، الدراسات القومية، الدراسات الخاصة بأهل البلاد الأصليين، الدراسات المقارنة الخاصة بأهل البلاد الأصليين، دراسات العالم الرابع). أجد المصطلح غير جذّاب لأنه يشير إلى نوع من الملكية التى ليس لدى أى باحث حق فى ادّعائها إمّا فكريًا أو أخلاقيًا. الأشخاص المنهمكون فى الدراسات الخاصة بأهل البلاد الأصليين، كما أفضل أن أسمّيها، يميلون إلى التطابق مع الرؤى الشاملة للعالم والحياة، بدلاً من مواقع السلطة الفعلية أو المؤسسية. المجال يحتاج بحقٍ إلى هذا النوع من التوجية هذه الأيام.

الشيء الأكثر جاذبيّة فيما يتعلّق بالعمل فى مجال الدراسات الخاصة بأهل البلاد الأصليين هو القدرة على التفاعل مع الشعوب الأصلية فى كل مكان، الناس الذين ينتمون إلى مجموعات عرقية وثقافية لا حصر لها، والذين برغم ذلك يلتقون حول مجموعة من الطموحات العادية ووعى عام معتاد على العدالة الشاملة. إنه مجال متمركز ليس على الوضع بل على العلاقات. وهناك استثناءات، بالطبع، وهناك النطاق العادى للذوق والأسلوب الفرديين والجغرافيين. إننى أتحدث عن الروح المميزة للمجال، التى تطورت إلى وضع للاختصاصات المتعددة موجّه من قبل المجتمع بحماس. فى مايو ٢٠٠٧، واتتنى فرصة الحضور بجامعة " أوكلاهوما " للملتقى الأول للباحثين المهتمين بتكوين رابطة علمية للدراسات الخاصة بأهل البلاد الأصليين. كان الاجتماع مفعمًا بالنشاط وغطى بتفصيل شديد هذا المفهوم الخاص بتوجيه المجتمع. معًا وفى آن واحد، لم يستغرق الاجتماع وقتًا

طويلاً فيما يتعلق بالسكان الأمريكيين الأصليين والماوريين [1] وأهل البلاد الأصليين، وسكان هاواى، وشعب الإسكيمو للتعبير عن نظام أخلاقى للمسئولية إزاء دراسة الشعوب الأصلية .

خاصيّة أخرى جذّابة فى العمل بالدراسات الخاصة بالسكان الأصليين هى الحضور المنهجى لتلك الأخلاقيات. كثير من الناس – "ليندا توهيواى سميث"، "أليس تى بونجا سومرفيل"، "توينوى سيلفا ، "يل تيرنر"،"أنريا سميث"، وآخرون كثيرون – يفكّرون ويستفيدون، بتنوّع مفعم بالحيوية، من الابتكارات المنهجية المرتبطة بالطرق التقليدية للمعرفة والوجود. قسم كبير من هذه الابتكارات يدور حول اعتباره المقصود من تصريف العمل من خلال وبواسطة المنهجيات الجماعية والمقاومة للاستعمار. مهما يكن الأسلوب أو الحجة التى يقدمها كل كاتب أو منظّر، فإن منظومة المبادئ الأخلاقية المستنتجة من خلال مجال البحث هى أن الدراسة الفردية أو المستقلة لن تقدم شيئًا للدراسات الخاصة بالسكان الأصليين. هذه المنظومة الأخلاقية تمثل تطورًا مثيرًا فى الميدان الأكاديمى لأنها تعمل ضد منظومة قيم تكافئ الشهرة الأدائية، وتحرم الاستقصاء من المجتمعات، مما يحول دون أى مسئولية باقية لها فيما وراء مجموعة الأخلاقيات التى تحكم البحث المعنىّ بالبشر، والذى يحاول حماية الناس من أن يتم استغلالهم. إن حماية الناس من الاستغلال لا تشبه بالضرورة ممارسة مسئولية جماعية.

بدأت غزوتى للعمل المقارَن، مثلما يجب أن تبدأ جميع تلك الغزوات، بنزهة خلوية. تصورت أننى إذا أردت أن أدرس الأدب القومى فمن الأفضل أن آخذ نفسى إلى إقليم الهنود الحمر، وهو مكان كنت محظوظًا أن أقمت فيه لمدة سبع سنوات. ولأننى عدت إلى منطقة فى "فرجينيا" لا تشبه تمامًا إقليم الهنود الحمر، تمكنت من أن أعيد زيارة أماكن السكان الأصليين لمرات قليلة. وكلما أفعل ذلك، كنت أعامل بحفاوة أكثر، مع اندهاش أقل بحسن الضيافة والكرم الهائلين اللذين

---

(١) هم سكان نيوزيلندا الأصليون. (المترجم)

ألقاهما. إقليم الهنود الحمر هو بمثابة مرجع مثالى، يشير إلى كل من الجغرافيا والرؤية الشاملة للعالم والحياة الإنسانية على حد سواء، لكن لا ينبغى أن ننسى أبدًا أنه أيضًا موطن مادى ملموس يمتد اتساعه فى أمريكا الشمالية والجنوبية. هناك شيء ما حقيقى بشكل مذهل فيما يتعلق بإقليم الهنود الحمر الذى يندمج واقعه مع الروح والمعرفة. إقليم الهنود الحمر، بمعنى آخر، لا يمثل وجود السكان الأصليين فقط. بل يمثل أيضًا استمرارية الأسلاف.

عندما بدأت عملى المقارَن، كان التفكير فى طرق لوضع إقليم الهنود الحمر فى حالة انتقال عملاً طموحاً. لقد واجهت التحديات ذاتها عندما فكرت فى أفضل طريقة لتقديم رحّالى فلسطين. (فلسطين، بالمناسبة، تحتل موقعًا جغرافيًا وفكريًا مشابهًا لإقليم الهنود الحمر، إنه مكان رمزى تمامًا وواقعى موجود فى كل مكان على حد سواء). لقد شغفت بالتواصل مع هذين المكانين منذ ١٩٩٧، عندما دخلت بشكل رسمى إلى مجال الدراسات الأمريكية القومية للسكان الأصليين. أتذكر أننى وجدت شيئًا ما مفعمًا بالحيوية ومألوفًا فيما يتعلق بمشاهد الأدب القومى وأسلوب ومغزى النقد الناشئ عندئذ والمصاحب له. فى السنوات العشر منذ ذلك الحين، أصبحت دراسة السكان الأصليين شيئًا عالمياً، وصارت الأكثر حداثة فى العالم.

أردت أن أقدم إقليم الهنود الحمر ورحّالى فلسطين لأننى اكتشفت أن شيئًا ما يربطهما بالحاجة نفسها إلى الحركة. بدأت فى إنتاج تحليل للاستعمار فى العالم الجديد والأرض المقدسة. هذا المحور أدى إلى الكتاب الأول الذى ألّفته، والذى كان الثانى الذى أنشره، "الأرض المقدسة فى حالة انتقال". إن افتراض المقارنة أمر بسيط: استعمار فلسطين من قبل اليهود الأوروبيين فى القرنين التاسع عشر والعشرين الماضيين لم يكن ليحدث إذا لم تكن أمريكا الشمالية خاضعة لاستعمار أوربى سابق. استعمار أمريكا الشمالية، على أية حال، لم يكن ليحدث دون وجود أرض مقدسة أسطورية. السكان الأصليون فى أمريكا الشمالية والفلسطينيون، بالتالى، كانوا ضحايا ل– وفاعلين فى مجموعة أساطير متماثلة. لقد فعلت

الأساطير الكثير من الأشياء، ولكن ميزتها الرئيسية كانت منح الشرعية المقدسة على أعمال غير أخلاقية إلى أبعد الحدود. الأساطير، بمعنى آخر، ألهمت وسوّغت في آن واحد الاستعمار الاستيطاني بالتوسّل بإرادة الربّ أو بنشر الكتاب المقدس كصكّ واعد بذلك. في هذه الأساطير البشر نشطون فيما يتعلّق بأمور الربّ، والتي تحوله بالتالي إلى إله ضعيف .

عندما بدأت في إنتاج هذا العمل، كنت مندهشًا من أن كثيرين من الكتّاب والباحثين لم يكونوا يبحثون في قوّة تلك الأساطير. "هيلتون أوبنزينجر"، "نورمان فينكلشتاين"، "روبرت واريور"، و"ساكفان بيركوفيتش" استكشفوا بدرجات مختلفة خرافة الميل المؤقت لأسطورة الأرض المقدسة. كتّاب آخرون - "كاثلين كريستيسون"، "جاس ويفر"، "لويس أوينز"، "يوري أفينري" - وضعوا السكان الأصليين والفلسطينيين جنبًا إلى جنب إمّا على عَجَلٍ أو بوضوح، ولكن لا أحد فعل ذلك بطريقة منهجيّة. كنت أعتقد أن الفلسطينيين على وجه التحديد سيكونون مهتمّين بتأملّ تواريخ السكان الأصليين في سياق ما يحدث لهم من نزع ملكيتهم. إسرائيل أصبحت مستعمرهم، ولكن الولايات المتحدة هي الراعي لإسرائيل - بشكل مطّرد، ومعنويّاً، وماليّاً. هذه الحقيقية وحدها تُحدث صلة مع السكان الأصليين حتى إذا لم تقدم كنتاج خاص بها، الأساسَ للمقارنة العلمية. لا يزال الفلسطينيون يقاسون من الواقع البغيض للاستعمار العسكري، ولذلك هم لديهم مصلحة استراتيجية في كسب حلفاء، بالإضافة إلى تحقيق فهم أفضل لأكثر الميول تجزّذًا والتي تحفّز إسرائيل والولايات المتحدة.

مقارنة خطاب الاستعمار في أمريكا الشمالية وفلسطين بشكل مبدئي تبدو بسيطة: وصل "التطهّريون" [١] إلى ما يسمى الآن "نيوإنجلاند" ملأىً بالحماس المسيحيّ. وفي الحال تصادموا الهنود الحمر وعلى الفور اعتبروهم كنعانيين

---

(١) حركة دينية ظهرت في إنجلترا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت تدعو إلى المزيد من الطهارة في العبادة والعقيدة .

وعماليق وحيثيّين وقبائل العهد القديم الأخرى، متصورين أنفسهم أنهم إسرائيل فى التّيه وأنهم مُنِحُوا الأرض مع ثروة متخَيلة من اللبن والعسل. فى القرون التالية غلب على الأمريكيين ما سمّاه "أوبنزينجر" "هوَس الأرض المقدسة" الذى انتشر فى اللاهوت والأدب والسياسة، مؤثّرًا بشكل جوهرىّ فى تشكيل هويّة قوميّة حديثة. القصة ذاتها سافرت مرة أخرى عبر الأطلنطى: اليهود الأوربيون نشروا قصصًا عن الانتماء المتوارث كأساس أخلاقى للصهيونية، وبالتالى اختزلوا علاقة أسطورية بأرض مقدسة أسطورية، أرض العودة الموعودون بها. الزعماء الصهيونيون بما فيهم "ديفيد بن جوريون"، اتجهوا ناحية استعمار أمريكا الشمالية من أجل الإلهام عندما بدأوا فى نزح المستنقعات وتذليل برارى بدائية مسكونة بشكل متشتت بِهَمَجٍ متخلفين والذين تحت ولايتهم عانت الأرض من الإهمال. فى العقود التالية أصبحت إسرائيل قلعة أمريكية فى العالم العربى، متلقيّة معظم معونتها الخارجية بالإضافة إلى دعمها المعنوى والعسكرى.

من هذه النقطة الأساسية والحاسمة كذلك، تكون المقارنة عادلة، لأن المبدأ الفلسفى للاستعمار من قبل الأوروأمريكيين والصهيونيين مشابه وبطريقة ما مساوٍ له. لكن المقارنة المنهجية ليست بسيطة جدًا اعتمادًا على الاستقصاء المتعمق، خاصة عندما نضع فى الاعتبار الصعوبة المتأصّلة فى العمل المقارن الجاد من أى نوع. فى حالة السكان الأمريكيين الأصليين والفلسطينيين، واللذين كلاهما شعوب مستعمرة، نحن بحاجة إلى توجيه النشاط البحثىّ - أخلاقيًا ومنهجيًا - نحو رؤى خاصة بالسكان الأصليين، وعندما نقوم بذلك التوجيه ستنشأ مضاعفات معينة. هذه المضاعفات خاصة بهذه الشعوب وعامة بالنسبة للعمل المقارن عادة. المضاعفات علاوة على ذلك ضرورية إذا أريد لأى مقارنة أن تصل إلى نضج مقبول، ولذلك ينبغى أن يُرَحَّب بها. لكنها ليست سهلة التصنيف.

إحدى هذه المضاعفات واضحة: وهو أنها فى الواقع ليست متشابهة إلى حد كبير فيما يخص السكان الأمريكيين الأصليين والفلسطينيين. فى الواقع لا يوجد

هناك أشياء متشابهة كثيرًا فيما يخص السكان الأمريكيين الأصليين أنفسهم، عندما ننظر إليهم بدقّة على أساس أنهم مئات من الأمم المتمايزة والتى تشغل أجزاء مختلفة من أمريكا الشمالية والجنوبية. "السكان الأصليون"، "الهنود الحمر"، و"الأمريكيون الأصليون" هى محددات فضفاضة للهويّة واختزاليّة على عكس التجربة التاريخية الفعلية، وهى تصنع أساسًا للتصنيف القانونى والدراسة الأكاديمية، لكنها لا تفيد كثيرًا فى توضيح التمايز القومى والتنوع فى إقليم الهنود الحمر. إضافة الفلسطينيين إلى هذا الخليط يضخّم عملية الاختزال، لأن تلك الإضافة تمنح بالضرورة ميزة لأساس المقارنة، وبالتالى تطمس الظواهر الأخرى المتساوية فى الأهمية فى أمريكا الأصلية. هذه المضاعفة عامة مع ذلك : المقارنة بطبيعتها يجب أن تكون دقيقة، مفردات الدقة تحقق الميزة لأن وضع شيئين معًا هو طريقة لإلقاء الضوء عليهما وإعطائهما أهمية خاصة.

فى مقارنة السكان الأمريكيين الأصليين والفلسطينيين، يجب علىّ أن أمنح ميزةً للغةِ القوى الاستعمارية وهكذا انتهيت، على الرغم من كرهى لذلك، بإعطاء مزايا للقوى. بمعنى من المعانى، يقارن عملى بين الولايات المتحدة وإسرائيل أكثر مما يفعل فيما يتعلق بالسكان الأمريكيين الأصليين والفلسطينيين. إلا أننى عملت بكل قوتى، مع الالتزام بأخلاقيّات الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين، لأتأكّد من أن دراستى سخّرت نفسها من أجل الرؤى الفكرية للسكان الأمريكيين الأصليين والفلسطينيين. هذا الأسلوب ثنائى القطب يبرز مدى تعقيد أداء العمل المقارن. من الصعب أن تحتفى بمكان شعب ما عندما يرتبط هذا المكان بأماكن أخرى، مهما كانا متعادلين. عندما نقرّ بأنه لا يوجد تشابه كبير فيما يتعلق بأناس مختلفين فإننا نضيّق النطاق المنهجى فى اللحظة نفسها التى نتوهم فيها أننا نوسّعه.

هذه العوامل تثير سلسلة من الأسئلة حول أداء العمل المقارن، والذى أريد أن أثيرها وأستكشفها فى إطار استعمار السكان الأمريكيين الأصليين والفلسطينيين. هل العمل المقارن ينتهك بشكل أساسى أخلاقيات الاستثمار العام فى مجال

الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين؟ هل الاعتراف بالاختلاف بين الشعوب يدين أساليب المقارنة، أو هل هو يزيد من حدة وضوحها؟ ما الذى نحصل عليه من الناحيتين الأخلاقية والفكرية عندما نجرى مقارنة تحوّلية بين ثقافات مختلفة؟ أى احتمالات نضحّى بها؟ كيف نتّحد دون التطرق إلى أو تثبيت التجانس؟

كل هذه الأسئلة تشارك فى جدليّة مع سؤال أكثر أهمية، أريد أن أبحثه هنا: إلى أى أهداف ينبغى أن نوجّه العمل المقارن؟

أريد أن أبدأ هذا البحث بتنبيه: أنا منزعج قليلاً من كلمة "ينبغى". اعتمادًا على كيفية استعمالها، فإنه يمكنها أن تلمح إلى تنازل. يمكنها أيضًا أن تستخدم بعدوانية على أنها فرض. علاوة على ذلك، أنا منزعج من قطعيّتها الضمنيّة (رغم أنه أحيانًا تكون القطعيّة الخطابيّة مبرّرة). مع ذلك أقحمتها فى السؤال السابق بدلاً من "يمكن" أو "ربما"، لأننى آمل أننا سوف نصوغ بوضوح برنامجًا أخلاقيًا وسياسيًا للدراسة المقارنة، والذى لن يمكن تنفيذه بطريقة فردية.

يجب أن نواكب العمل المقارن حتى أقصى حالات ثورانه وعودته إلى وضعه السابق. أفضل تبرير للعمل المقارن أيضًا هو حصيلته المرغوبة إلى أبعد حدّ : إننا لا يمكننا تقويض الأنظمة الاستعمارية وإرجاع أفضل السبل للحياة فى عزلة. العمل المقارن فى مجال الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين، عندئذ، يكون بالضرورة يكون ناشطًا ومحفزاً. إنه "ينبغى" أن يستخدم فى مشروعات بناء الأمة، ليس كقضية تحذيرية، بل كنموذج أخلاقى. وقد صاغت الدراسات الخاصة بالشعوب الأصلية بفصاحة ملحوظة سلسلة من البدائل للانطباع التقليدى (والراسخ) عن الباحث الموضوعى والحر. هذه البدائل تتخطى الحدود بالضرورة. إنها لا تملك خيارًا آخر، على أية حال، لأنها تقلل من أهمية الحدود ونظريات المعرفة الناشئة عن العواصم الاستعمارية. للعمل المقارن دافع رئيسى هو أن ييسّر توجيه التحليل والتطبيق العملى نحو أماكن السكان الأصليين. هذا النوع الأهمية يسمح له بأن يتكامل مع مشروع التمكين الثقافى والسياسى.

لكى أقدم مثالاً شخصيًا موجزًا : إننى لا أريد لعملى ألاّ يساهم بطريقة أو بأخرى فى مشروع تقويض إسرائيل. حتى إذا لم يغيّر عملى أىّ شىء بالفعل على الأرض فى فلسطين فإننى أودّ أن يُستفاد منى هناك كمادة للضرورة المنهجية. الهدف الضمنىّ من عملى، بمعنى آخر، ليس تعزيز الفهم العلمى، بل تعزيز قدرتنا على فهم التورط العلمى فى العنصرية والاستعمار. العمل عندئذ، بشكل واقعى بدلاً من الطريقة المخادعة، يمكنه أن ينتج نماذج للمسئولية العلمية. إنه يمكنه فعل ذلك، على أية حال، فقط من خلال التفكير المثمر فى الأمور على ضوء المواقف التى تحدث فيها. كيف يمكننا أن نفهم إسرائيل كما ينبغى إذا لم نكن نفهم الولايات المتحدة كما ينبغى؟ إننا لا يمكننا أن نفهم الولايات المتحدة كما ينبغى، إذا تجاهلنا منشأها الذى قام على الإبادة الجماعية. المقارنة، فى هذه الحالة، تنشأ من وتعود إلى الصلات المشتركة بين القوة الاستعمارية والخطابات المثالية عن اختيار الأفضل وحب الغير.

المقارنة يمكن أن تكون مثمرة لأسباب أخرى. الباحثون المقارنون خارج الولايات المتحدة يخشون من تناقص عدد الشعوب الأصلية لما يتصادف على أية حال أن يكون الأساس للمقارنة، فى حالة السكان الأمريكيين الأصليين والفلسطينيين تتمثل تجربتهم فى كونهم مستعمرين. السكان الأمريكيون الأصليون والفلسطينيون على حدّ سواء، مع ذلك، هم أكثر من كونهم ضحايا للغدر الاستعمارى. لقد كانوا يعيشون بخير قبل هجوم الاستعمار، واستمروا يعيشون بعيدًا عن متناوله وتأثيره. لقد تشارك السكان الأمريكيون الأصليون بعمق فى تجارب روحية واجتماعية وثقافية خصبة، وقد فعلوا ذلك منذ بداية وجودهم. وقد استقر الفلسطينيون فى الأراضى المقدّسة منذ الوقت الذى كانت فيه المنطقة لم تستغل بعد من قبل قدسيّة نصيّة. إنهم عاشوا كذلك قبل وبعد وجود إسرائيل .

أن تجرى تحليلاً مقارنًا للاستعمار فى أمريكا الشمالية وفلسطين، إذن، هو أن تصنّف السكان الأمريكيين الأصليين والفلسطينيين فى قاموس الاستعمار

الأجنبى، تمامًا مثل المكان الذى هم غالبًا محصورون فيه سياسياً. هذا الواقع صعب البتّ فيه، لأنه يحدد ارتباطًا بظواهر تاريخية وثقافية لا حصر لها. الموازنة، على أية حال، فى النهاية تجعل التحديد أمرًا جديرًا بالاهتمام. إذا اخترنا أن نتخلى عن التحديد، فإننا فى الوقت نفسه نتخلّى عن العمل المقارن على وجه العموم، لأن الدقّة التى يسعى وراءها الباحثون المقارنون حتمًا تؤدى إلى التحديد .

على أيّة حال، فالعلم، مثل الكتابة بصفة عامة، دائمًا ما يستلزم الموازنات. العقلاء لا يكتبون لكى ينهوا الخلاف أو ليمنعوا التعقيد. المتمكّنون منّا يكتبون لكى يحوّلوا الواضح إلى لغز ولكى يسقطوا عديم الضرر. ثمّة شىء ما يتم تبادله دون تغيّر، جمالىّ أو خطابىّ عندما نبدأ فى إنتاج المعنى من خلال فعل الكتابة. إذا حاولنا أن نقارن، فعندئذ نحن نتبادل القدرة على أن نكون واسعى الإدراك بالقدر الكافى. وإذا حاولنا أن نكون واسعى الإدراك بالقدر الكافى، فعندئذ نقوم بتبادل القدرة على أن نكون مقارنين بشكل فعّال .

من خلال المقارنة، ربما نكتشف فائدة معرفة أشياء عن أنفسنا. بغموض أقل، أريد أن أقول إن الناس يبررون المقارنة على أنها أسلوب للتواصل والفهم بشكل أفضل للثقافات والتقاليد والجغرافيات الأخرى. هذا التبرير سبب جيد لمواصلة العمل المقارن، وتوسيع معرفة المرء عن الناس والأماكن طموح معقول. يمكننا أيضًا أن ننظر إلى المقارنة على أنها مشروع تثقيف ذاتى. لا أقصد أن أقترح مشروعًا يكون أنانيًا بطريقة واضحة أو ضمنية. إننى أقترح بدلاً من ذلك أن هناك شيئًا ما ذو قيمة على نحو رائع فيما يتعلق بالتفكّر فى محيط جماعى. أن نأخذ فى الاعتبار ما يعنيه انتماؤنا إلى جماعة معينة لها ممارسات ثقافية وقصص تاريخية وتداخلات جيوسياسية، هو شىء مثمر إلى حد بعيد عندما نرحب بالآخرين إلى_العملية. على سبيل المثال، فى مارس ٢٠٠٧، فى برنامج "الديمقراطية الآن" Democracy Now، كشفت "إيلى بينتيد كرو"، وهى من إحدى قبائل السكان الأمريكيين الأصليين، وقد خدمت برتبة رقيب فى الجيش أثناء الحرب على

العراق، أن مسئولى الجيش الأمريكى كانوا يشيرون إلى أرض العدو بأنها "إقليم الهنود الحمر". هذا الكشف، والذى أعلن أيضًا أثناء غزو "فيتنام"، مثير للاشمئزاز فى دلالاته الأيديولوجية، ويربط بوضوح بين الماضى الاستعمارى والحاضر. استطاعت "بينتيد كرو" أن تضع الحرب على العراق فى سياقها عن طريق فهم أوسع للاستعمار، وهذا الفهم أصبح تثقيفًا ذاتيًا لأنه وسّع مجال تحليلها.

هذا المثال يوضح خاصية مفيدة أخرى للمقارنة، وهى القدرة التى تعطيها لنا لإنتاج نماذج ثقافية جديدة. المشاركون فى مؤتمر جامعة أوكلاهوما درسوا مع نتائج عديدة هذه الخاصية المحتملة للدراسة الخاصة بالجماعات العرقية والثقافية. ومن المتفق عليه بصفة عامة هو ضرورة العمل خارج نطاق الحدود الطبيعية والمفاهيمية، الموروثة من المنظومات المعرفية الأوروبية (بل قُلْ: الاستعمارية). إن فكرة عمل وضع مهنىّ للدراسات الخاصة بالسكان الأصليين، فى حد ذاتها، فكرة متخطّية للحدود القومية بشكل أساسى. النموذج الجديد للاهتمام الأساسى هو قومىّ منهجيًا، والذى قد يبدو أنه ينفى التأكيدات المقارنة. فى سياق الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين، على أية حال، تصوّر المنهجية القومية توجيهًا أخلاقيًا وفكريًا أكثر من أى شىء آخر فى الدول المكوّنة من جماعات عرقية وثقافية، وبطريقة مماثلة، تصور تحولاً بعيدًا عن النظريات المعرفية الموضوعية والوضعية. إن الإقرار بهوية قوميّة هو فى الوقت نفسه الالتزام أخلاقيًا تجاه مجموعة من المجتمعات العالمية بدلاً من أى دولة قومية. هذه المجتمعات، أحيانًا ما يشار إليها إجمالاً بالعالم الرابع، تعترف بقواسم مشتركة كشعوب الأصلية.

نتيجة مهمة لهذا الاشتراك ربما تكون إمكانية استخدام العمل المقارن لعمل قاعدة للاتحاد السياسى، حتى لو بقى هذا التحالف افتراضياً. فكرة استخدام البحث العلمى لتشكيل العمل السياسى تمثل فى حد ذاتها تحولاً مهمًا عن الروح الأكاديمية التقليدية، التى تحافظ على خرافة الحياد القديمة. هذه الخرافة مزعجة، وذلك لأربع أسباب رئيسية: (١) إنها توحى بأن الأكاديميين المتميزين يمكنهم إحراز مكانة

عالية تسمح لهم بتجنّب السياسة، (٢) إنها تفترض أن تجنّب السياسة أمر مفيد، (٣) إنها تجعل صفة " سياسىّ " كلمة مرمَّزة يمكن أن تبيّن للنخبة أى شىء يفهم على أنه مهدِّد أو غير مرغوب، و(٤) إنها تخلّد الكذبة القائلة بأن الملوّنين فقط هم سياسيون أو على العكس، الكذبة القائلة بأن الأساتذة البيض ينقلون المعرفة الموضوعية فقط. فى الواقع، التأكيد على توجيه غير سياسى هو عمل سياسى إلى حد كبير - إننى أستخدم كلمة "سياسى" هنا لكى أظهر الطريقة المستنكرة التى يستخدم بها غير السياسيين الكلمة ظاهريًا.

تطوير العمل السياسى من خلال الدراسة العلمية ينبغى ألاّ ينظر إليه على أنه عمل هاوٍ أو تعليمى. فى الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين تم دمج الاحتياجات الناشطة والجماعية - بمعنى الأمور "السياسية" - فى التحليل العلمى بتعقيد كبير. (انظر أعمال "روبرت واريور"، و"وينونا لاديوك"، و"فاين ديلوريا"، و"جى آر"، و"إنيز هيرنانديز أفيلا"، و"جى كيهاولانى كوانوى"، و"مايلى بلاكويل"، أو مجرد أى شخص آخر منحاز للدراسات الخاصة بالأمريكيين الأصليين والسكان الأصليين). باستكشاف الاندماجات العرقية والمتخطية للحدود القومية، فإن المثقف والناشط سيكونان امتدادًا عاديًا لأى اعتقاد بأن البحث يجب استغلاله بشكل مشترك. يمكننا الآن أن نرى اندماجات مثيرة للانتباه تظهر فيما بين أمم المحيط الهادىء، وبشكل أكثر شمولاً من خلال الحوار فيما بين دول نصف الكرة الأرضية. فى عصر الاتصال الجماهيرى هذا، من السهل - يستطيع أن يقول واحدٌ: من الضرورى - الانتقال عن قصد بعيدًا عن النظريات المعرفية الاستعمارية، وبدلاً من ذلك دعم، من خلال الدراسة العلمية، إحياء قومية السكان الأصليين الكاملة.

علينا أن نفكّر مليًا فى الدافع إلى العمل المقارن ضمن مفهوم السيطرة، حتى إذا جعلنا ذلك نبدو أننا انتقاديين أكثر مما ربما نكون عليه. من الذى يستفيد من المبدأ القائل بأن الدراسة العلمية يجب أن تظل مستقلة؟ المستفيدون هم بالطبع الذين

يستفيدون من الدراسة العلمية المفترض أن تكون مستقلة (ومن المواطنين المستقلين جميعًا على وجه العموم). الشعوب الأصلية من جميع الجنسيات تشترك فى رغبة أساسية فى المطالبة بحق الملكية فى منظوماتهم الأخلاقية الخاصة بهم. وتتسع الرغبة إلى ضرورة دمج هذه المنظومات الأخلاقية فى الطريقة الذى تدير وتقدم بها هذه المنظومات البحث العلمى.

إننى أؤيّد العمل المقارن بحماس شديد فيما يتعلّق بالإمكانية التى يتيحها للتعاون السياسى، على الرغم من أن التعاون الفكرى أكثر جاذبية ولا ينفصل عن التعاون السياسى. هذه الأنواع، على أية حال، لا تضيف كثيرًا وتُبقى فقط على استخدامها المؤسَّس على نموذجها التصنيفى الغربى، المسيّس بالتأكيد، وإن يُفترض كونه محايداً. فى هذا التصنيف، يصبح العمل السياسى أى شىء يهدد الوضع الراهن. لهذا السبب أعتبر العمل السياسى فى الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين مثله فى الأهمية مثل العمل الفكرى المفيد. لا أريد أن أشجع على الاحتفاظ بالثنائيات، ولكن لا توجد طريقة لتطوير الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين بشكل مقبول دون تهديد الوضع الأكاديمى الراهن. الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين سوف توسَم باستمرار بعلامة العمل السياسى أينما تظهر للوجود، وحيثما توجد. الشعوب الأصلية لديها القوة فى رؤيتها الفكرية، مهما يكن، وهى تمتلك القوة السكانية على نحو متزايد. إذا أمكن لظهور العمل المقارن أن يربط المجتمعات المختلفة بمجموعة عامة من الطموحات، عندئذ ستكون واحدة من الحالات النادرة التى تؤدى فيها الدراسة العلمية دورًا حيويًا فى العالم وتؤثر فى ما يزيد عن أربعة وعشرين شعبًا .

لا توجد طرق سهلة لجمع المجتمعات المختلفة معًا والتعبير عن مجموعة عامة من الطموحات، لذلك أنا غير راغب فى أن أصبح متفائلاً جداً، لكن الناس غالبًا ما يخلطون بين جدوى هدف ما وقيمته الأخلاقية، والتى تبدو بالنسبة لى طريقة لوضع العربة أمام الحصان. فقط بسبب إنه قد يكون أمرًا صعبًا - ومن

المحتمل أن يكون مستحيلاً – فإنه لكى نفعل هذه الأشياء لا يعنى أننا لا يجب أن نستحضر الهدف لكى يوجّه أخلاقياتنا المنهجية. حتى كمبدأ منهجىّ، فإن العمل المقارن يقع فى مشكلة الاختزال، ولذلك من المهم توجيه نقد أمين حول كيف أن مجتمعات السكان الأصليين تعوّض ما تضحّى به، ولماذا (إن وجد) الثقافات العابرة جديرة بوعدها. التحدى الاستثنائى، هو أن تجعل مجتمعات السكان الأصليين قابلة للحركة، مع السماح لها بأن تظل قائمة بذاتها بكبرياء .

الآن قد يكون وقتًا مناسبًا لتغيير الاتجاه للحظة. من المؤكّد أن أى شخص يقرأ هذا المقال سيتساءل: "من هو المواطن الأصلى؟" من الذى يتحدث عنه "سالايتا" فى هذا المقال؟". هذا سؤال مهم، يحتاج إلى أن يجاب عليه، ولكنه سؤال محيّر بشكل ملحوظ. إذا كان الهدف هو جمع الشعوب الأصلية من خلال الدراسة العلمية المقارنة والنشاط السياسى المتعدد العرقيات، ومن خلال اتحاد مهنى، عندئذ، لكى نفسر "تى بانجا سومرفيل" [١]، من الذى يجب أن يكون فى قائمة الضيوف؟ أريد أن أضيف الآتى إلى مجاز "تى بانجا سومرفيل": من الذى يملك أن يعدّ ويوزّع قائمة الضيوف؟ المشكلة الأولى التى نواجهها عند التفكير فى هذه الأسئلة هى معلومة أن أخلاقيات الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين قد ترفض العرقية أو الأصالة المعيارية. من المفترض أنه لا ينبغى لأحد أن يكون فى موقع من يعدّ قائمة الضيوف، وكذلك من المفترض أنه لا ينبغى لأحد أن يمتلك الحق الأخلاقى فى أن يستبعد أناسًا منها.

إلا أنه بعيدًا عن المفترض فإن "تى بانجا سومرفيل" محقة بلا ريب. فالناس يحتاجون بالفعل إلى أن يُدعوا بالتأكيد تمامًا مثلما يحتاج الآخرون إلى أن يستبعدوا. هذه الحاجة، مع ذلك، هى الأساس الكامل للانفصال عن الاتحادات المهنية المجودة وتكوين واحد عن طريق ومن أجل الشعوب الأصلية. وبالمثل،

---

(١) باحثة مهتمة بالدراسات الخاصة بالسكان الأصليين، ولدت ونشأت فى نيوزيلندا، وتعمل أستاذة فى جامعة فيكتوريا أوف ويلينجتون بأستراليا. (المترجم)

فإننا لا يمكن أن نفكر مليًا بشكل مفيد فى العمل المقارن بدون أن نحدد ضمنيًا على الأقل مَنْ الجدير بالمقارنة. هذا الموقف جرئ أكثر منه مفارقة، إنه أشبه ما يكون بأداة فلسفية تقدم تحليلاتُها المتنوعة توجيهاتٍ ضمنية.

أريد أن أستحضر روحَ كتاب "روبرت واريور" "أسرار قبلية Tribal Secrets"، حيث يشجعنا على تجنّب الأسئلة المرهقة حول الهوية والانتماء. إنها ليست فكرة جيدة أبدًا أن تقضى كثيرًا من الوقت فى مناقشة أسئلة مطلقة، حتى إذا بدت تلك الأسئلة ذات أهمية قصوى. إن نقل المناقشة إلى موضوعات أكثر واقعية ليس هو نفسه بالضرورة التهرّب من تلك الأسئلة الصعبة. بالطبع، إنه قرار منهجى أن نكون واثقين فى أهمية التأكيد على الأصالة كهويّة سياسية ودستورية، وأن نعترف بأن أسئلة الحق والأصالة لا يمكن أن يجاب عنها بشكل مرضٍ، الاستشهاد بها مراراً وتكرارًا سينتهى بها فى صالح الثقافة المسيطرة ذاتها، التى منحتها الأهمية فى المقام الأول. مبدأ أخلاقى مختصر فيما يخص قائمة الضيوف يمكن أن يظهر فقط أن مجتمع السكان الأصليين هو مجتمع يحدّد هويته بذاته، وأنه مجتمع مقبول بحد ذاته من قبل أشقّائه.

إنى أدرك أن هذه الإجابة غير مرضية وأنها لا تعبّر على نحو كافٍ عن تأكيدى الخاص على أن الناس فى حاجة إلى أن يُقبلوا وأن يُستبعدوا. أريد أن أضيف أن الأصالة شيء معنوى بطبيعته وبالضرورة ولذلك لا يمكن تعريفها، حتى كمعنى شامل، باستخدام الأساليب المنطقية للدراسة العلمية الغربية، أو حتى من خلال الاتصال اللغوى الأساسى. إنها تُعرَّف بالطريقة التى يعرِّف الناس بها أنفسهم، وعائلاتهم، ومجتمعاتهم، وكيف تكون علاقاتهم بالبشر الآخرين فى العالم، ونوع الاهتمام الذى يولونه للكائنات الحية، والطريقة التى يختارونها للوفاء بما عليهم، وكيف أن الإحساس بالعالم والحياة يورّث وينقل. الأصالة، بمعنى آخر، هى هويةُ ممارسة، إنها ليست تصنيفًا سياسيًا يمكن أن يُعدّ من أجل معايير واضحة. الناس ينتمون إلى الطبقة عن طريق المشاركة فى مجتمعات أصلية بالنسبة للأماكن

العالمية التى تفعّل الأصالة. إننى أتحدث فى هذه المقالة، إذن، عن هؤلاء الذين يسمّون أنفسهم أصليين دون أن يضعوا فى الاعتبار دائمًا مجموعة من المعايير تحدد هذه الهوية.

عملية الدمج والاستبعاد بكاملها تحتاج إلى أن تكون ذاتية التنظيم. وحتى إذا حدث عيب فى هذا الخيار، فإنه سيكون أقل أخطاءً من بدائله، والتى جميعها حتمية إلى حدّ ما .

إننى أستطيع أيضًا أن أجيب عن سؤال الدمج والاستبعاد من خلال مناقشة مثال معيّن : هل الفلسطينيون سكان أصليون؟ لقد أثرت هذا السؤال فى كتابى "The Holy Land in Transit" واستنتجت أنه، نعم، فحتى الآن لأن الفسطينيين يتألفون من شعب غُرِسَ فى مكان معيّن، فهم مواطنون أصليون. إننى أبيّن أن الفلسطينيين مواطنون أصليون من الناحية السياسية حتى الآن ، لأننا نستخدم المصطلح لكى نشير إلى شعب محتل أو مجرد من ملكيّته، والذى له حق مشروع فى الأرض التى اغتصبت من قبل محتلّ أجنبىّ. إن التأصّل الجغرافى وتجربة الاستعمار كلاهما وثيق الصلة بالهوية الخاصة بالسكان الأصليين، لكنهما ليسا الشيئين الوحيدين اللذين يصنعان أو يحددان هوية. داخل المجتمع الفلسطينى ذاته، على سبيل المثال، توجد مجتمعات - بشكل أساسى، بدو صحراء النقب - يمكن تصنيفها على أنها مجتمعات سكان أصليين مختلفين عن بقية المجتمع الفلسطينى. إنهم يصنّفون على أنهم مجتمع سكان أصليين قائم فى الدرجة الأولى على نمط حياتهم التقليدى ومظاهره المصاحبة له: السكن، التنقّل، الزى، الإحساس بالعالم والحياة، بنية العائلة، واللهجة. فى الغالب، رغم ذلك، فإن البدو معروفون بأنهم سكان أصليون لأنهم يمارسون حياة من الأصالة. عندما نضيف إسرائيل مرة أخرى إلى المعادلة، فذلك يجعل بقية المجتمع الفلسطينى سكانًا أصليين، وهنا يكون الفلسطينيون ملزمين بالمجاهرة بموقف معادل يربط الأرض المقدسة بوجودهم التاريخى والثقافى. مثل هذه المجاهرة بالرأى هو تعبير أساسى عن الأصالة.

لنرجع قليلاً من حيث أتينا: نعم، لقد اعتقدت أن الفلسطينيين يقعون فى قائمة الضيوف، رغم أنهم ليسوا خيارًا ماثلاً للعيان، كالعراقيين والشعوب القبلية أو البدوية الكثيرة فى العالم العربى التى شرّدت من قبل الدولة لأسباب عديدة (لتغتصب الأرض الزراعية، ولتستبيح الموارد مثل البترول أو المياه، ولتشيّد مشروعات الأشغال العامة مثل السدود، إلى آخره). قائمة الضيوف يجب أن تشمل كذلك جميع المجتمعات حول العالم التى صُنعت هويتها ب–واسطة أماكن معيّنة ورُبطت بها، وأصبحت هذه الأماكن أكثر قداسة أيضًا إزاء الاعتداءات الشاملة بالتواطؤ مع الدولة. هذه الشعوب تعيش فى جنوب ووسط آسيا، وأمريكا اللاتينية، وجنوب الصحراء الأفريقية، وأوروبا الشرقية، وجنوب المحيط الهادى – فى كل مكان، فى الواقع، حيثما توجد مصالح مشتركة لا يمكن تحقيقها سوى من خلال الإبادة الثقافية والبيئية. إذن فالقوة التى تربطنا معًا : الشعوب الأصلية هى التى ترفض بثبات وحماس شديدين الحداثة الشاملة، ولكن مع ذلك يمكنها أن تحاكى نجاح هذه الحداثة بشكل غير مباشر – ويمكنها أن تختار توقّفها مباشرةً.

إذا لم تستطع الدراسة العلمية الخاصة بالسكان الأصليين أو لم تُرِدِ المساهمة فى هذا المشروع، فعندئذ لا حاجة لتسميتها ب– "الخاصة بالسكان الأصليين". بدون هذه الرسالة، فإنها لن تجد فى الواقع ما تقدمه للمجتمعات التى تلصق نفسها بها. وبدون الاستفادة من التراث الثقافى والعادات والتقاليد لكى تنتج مدلولاً علمياً، فإن العمل سيفقد الخصوصية المنهجية والأخلاقية التى تمكّنه من أن يكون متعلّقًا بالسكان الأصليين. الدراسات العلمية الخاصة بالسكان الأصليين، بسبب ذلك، تحريضية بشكل أساسى، ومقارنة فى حد ذاتها. نعم توجد مخاطر فى أداء هذا النوع من الأعمال – ولكن ما نستجيب له، معاً، عن طريق الرؤية المختلفة، أكثر خطورة إلى حدّ بعيد.

عن أى شىء يتحدث مايكل ليرنر فى الواقع ؟

بسبب ثقله بين الليبراليين الأمريكيين، وصل "رابى مايكل ليرنر"، مؤسس "Tikkun Community" ورئيس تحرير مطبوعتها "Tikkun Magazine" [(١)]، إلى عدد من المنافذ الليبرالية اليسارية البارزة. فى الواقع، ليس سوى الأمريكيين العرب أو المسلمين الذين يتنصّلون من الإسلام والثقافة العربية من خلال الإعجاب بإسرائيل (مثل إرشاد منجى، وفؤاد عجمى، ونونى درويش) هم الذين لديهم حرية الوصول إلى جمهور عريض تمامًا مثلما لدى "ليرنر".

هذه الحقيقة ليست مصادفة. فوراء المنابر فيما قد يسمى باليسار الصارم hard left، الأصوات العربية غائبة فى أغلب الأحيان عن وسائل الإعلام غير العربية. إننا نقدَّم غير مرئيين كممثليين لحكاياتنا الخاصة، لأن الناس يتكلمون بالفعل لمصلحتنا : الصهيونيون التقدميون والليبراليون، الذين جاءوا ليمثّلوا الموقف المضاد لإسرائيل فى مواجهة المعلّقين المؤيّدين لإسرائيل (بدءًا من نوعية هؤلاء الذين لم يعترفوا مطلقًا بالاعتداءات الإسرائيلية، مثل "ألان ديرشويتز" و"تشارلز كروتهامر" و"دانييل بايبس"، إلى آخره).

قبل كل شيء، ينبغى أن نلاحظ أن هذه الفئات المؤيّدة لإسرائيل والمضادة لإسرائيل حمقاء. إنها غير مفهومة حتى كإشارات موجزة وفى الواقع ضارة ضمنياً، لأنها تساوى بين متابعة العدالة (بمعنى: إدانة إسرائيل) ب– / واللاعقلانية أو الكراهية العمياء، إن كلمة الوصف "مضاد لإسرائيل" تؤكد على وجود كراهية متأصلة أو موروثة، وتلمح إلى أن الشخص يعارض إسرائيل بقوة القانون، بدلاً من أن يعارض إسرائيل بسبب سلوكها المرفوض، والأخير موقف رائع بلا جدال. قد

---

(١) مجلة نصف شهرية تعنى بشئون بالسياسة والثقافة والدين فى أمريكا وإسرائيل من منظور يهودى يسارى تقدمى (المترجم)

يكون الأمر أكثر إفادة إذا تم تصنيف الناس طبقًا لمواقفهم الأخلاقية – على سبيل المثال، "دعمًا لحقوق الإنسان"، فى مقابل، ربما، "مُدافِعٌ عن التطهير العرقى الإسرائيلى".

الفئات ضارة بوضوح أيضًا لأنها كُوّنت بتلك الطريقة التى استُبعد بها العرب منها بصورة كاملة تقريباً. فى الصراع الطويل الذى حرّض اليهود الإسرائيليين ضد الفلسطينيين العرب، قد يرى المرء أن المناقشات حول الصراع ينبغى أن تشمل كلاً من اليهود والفلسطينيين. وبدلاً من ذلك، حلّ محل الفلسطينيين الصهيونيون التقدميون والليبراليون الذين، مثل خصومهم المزعومين، رفضوا مساءلة الأدبيات المدعّمة للأسس المقدسة لإسرائيل، ونادرًا ما يتحركون أبعد من الانتقادات الليبرالية الواهية لنشأة الدولة والوحشية التى تلتها (والمستمرة). لذلك فإن هؤلاء الصهيونيين التقدميين والليبراليين لا يمثلون بالفعل الفلسطينيين الذين يزعمون الحديث لصالحهم. إنهم يؤدون أفضل وظائف الجهل، وفى بعض الأحيان المعرفة ، ممثلين لمصالح إسرائيل أكثر من إبداء أى اهتمام بالسلام والعدل .

الشىء نفسه حقيقى، بالمصادفة، فيما يتعلق بالليبراليين البيض الذين على صلة بكل المجموعات العرقية حول العالم التى تواجه بعض أشكال الظلم. العينة الاختبارية الأكثر وضوحًا لهذا التأكيد هو العلاقة بين الليبراليين البيض والشعوب الأصلية فى أمريكا الشمالية. الليبراليون البيض، بأعداد ساحقة مؤسفة، يتجاهلون أو يقبلون بشكل إلزامىّ التواريخ العديدة للإبادة الجماعية التى تحمّلها السكان الأصليون أثناء العملية الطويلة لتكوين الأمة فى الولايات المتحدة. التجاهل والقبول كلاهما ممقوت فى حد ذاته، لكنهما يصيران ممقوتين بكل معنى الكلمة فقط عندما ندرك تورّط الليبراليين البيض الحاليين فى أشكال مستمرة لتشريد السكان الأصليين، ونزع الملكية، والإبادة الجماعية الثقافية من خلال الانتهاك الشامل للجغرافيا المقدسة والنقض المستمر للاتفاقيات العديدة.

الليبراليون البيض، إذن، لديهم سجلّ ردىء فى مجال تأييد الاستقلال عن المستعمر. فى الواقع، الاستعمار لن يستمر لمدة ربع ساعة فى أى مكان بالعالم إن لم يكن بسبب القبول من الليبراليين فى العواصم الاستعمارية. (انظر الغزو الأمريكى للعراق سنة ٢٠٠٣ كمثال جيد).

لهذا السبب، فإن الصهيونيين التقدميين والليبراليين ليسوا جبناء سياسيًا فحسب. سيكون أمرًا غير حكيم بالنسبة للفلسطينيين إذا أنقذوهم من الموقف الصعب، باعتبارهم طيّبى القلب لكن سذّج قليلاً. إنهم يلعبون دورًا رئيسيًا فى قدرة المستعمرين على اختراع الأساس المنطقى للبربرية التى لا تغتفر، عن طريق التطبيع من خلال القبول المنطقى لأدوات الدولة التى تسبق وتعتمد على قمع قومية السكان الأصليين، فيما عدا اللحظات التى يمكن تخصص لغرض إضفاء الشرعية على وجودٍ استعمارى أجنبى. إنهم يلعبون دورًا أكثر حسمًا لصالح إسرائيل عن طريق منع الفلسطينيين من دخول أماكن النقاش العام حيث تلائم وجهات نظرهم وقصصهم عن استحقاق - والتى تُخشَى بحق من قبل الصهيونيين التقدميين والليبراليين، الذين لا يستطيعون تخيُّل أى نوع من التمكين العربى، والذى لا يمكن أن يعمل وفق الحدود السياسية الواهية التى أقاموها بدقة شديدة. نتيجة لذلك، أصبح الصراع الإسرائيلى الفلسطينى شأنًا يهوديًا يهوديًا مجردًا من أى مشاركة عربية، وبهذه الطريقة يؤيّد النماذج العنصرية التى تمنح اليهود امتيازًا على أنهم الحرّاس الشرعيون للأرض المقدسة بالإضافة إلى الأمور العديدة التى تتخلّل ذلك.

فلنعد إلى "مايكل ليرنر"، الصهيونى التقدمى بلا منازع والمعلّق المعتمد عليه من قبل وسائل الإعلام الليبرالية الباحثة عن صوت معارض. إنه يؤدى وظيفة ضرورية لوسائل الإعلام هذه - بما فيها صحيفة "نيويورك تايمز" - لأنه يوفر عليهم عناء إظهار معلّق فلسطينى قد يصف بدقةٍ بشاعةَ ماضى إسرائيل وحاضرها.

يفضل "ليرنر" إلقاء الضوء على ما يعتبره لاأخلاقية إسرائيلية وفلسطينية على حد سواء، ويناقش كلا الفريقين كما لو كان هناك تكافؤ سياسى وتاريخى بين أفعالهما، وهو يقبل بكل ثقة أيضًا وحشية إنشاء إسرائيل، ويصوغ نقده الأخلاقى فى إطار يقلل من شأن المعاناة الفلسطينية، عن طريق إلقاء الضوء على ما يتصوره أنه إرهابهم المفرط.

على سبيل المثال، فى تعليقه على تدمير إسرائيل للبنان، والذى يسمّيه "دورة عنف لا معنى لها" و"حلقة من مسلسل اللاعقلانية"، يكتب "ليرنر":

فى سياق اللوم، هناك ما يكفى لنذهب هنا وهناك. ويعتمد ذلك على من أين تبدأ القصة. اعتمادًا على فقدان الذاكرة التاريخية، يختار المناصرون فى كل جانب المكان الذى يلائمهم بشكل أفضل فى قصة هم فيها "الضحايا الطيبين" أما الآخرون فهم المعتدون الأشرار. يحب الفلسطينيون أن يبدأوا قصتهم فى سنة ١٩٤٨ مع طرد مئات الآلاف من الفلسطينيين من بيوتهم أثناء الحرب على إسرائيل المعلنة عليها من قبل الدول العربية المجاورة، ورفض الحكومة الإسرائيلية السماح لهؤلاء الناس بالعودة حالما تتوقف الاعتداءات. الإسرائيليون يفضلون أن يبدأوا القصة عندما كان اليهود يبحثون فى يأس عن مهرب من من الإبادة الجماعية التى يواجهونها فى أوروبا، وقيادة عربية كارهة للبشر أقنعت الجيش البريطانى أن يقف إلى جانب الفلسطينيين المحليين الذين سعوا لمنع هؤلاء اللاجئين اليهود من اللحاق بأمثالهم من اليهود المقيمين فى فلسطين فى ذلك الوقت.

يحكى "ليرنر" القصة ذاتها فى كتابه "Healing Israel / Palestine"، ويحب أن يعيدها فى المقالات وفرص الظهور العلنى. القصة حقيرة ليس فقط بسبب عدم صحتها التاريخية واختزالها الاستعمار العسكرى إلى مجرد سوء تفاهم فاشل، ولكن لأنه أيضًا يلقى باللوم على أصل النزاع، وليس على القائمين بالتطهير العرقى من اليهود، ولكن على ضحاياهم الفلسطينيين. إنه ينهى هذا الانقلاب بإدانة الفلسطينيين على عدم فتح بلدهم للاستيطان اليهودى، ناسياً، بالطبع، أن الفلسطينيين لا شأن لهم

بالهولوكوست وأن الصهيونية تلك، التى تتوق دائمًا إلى تطهير الأرض من الفلسطينيين، هى ظاهرة موجودة قبل "هتلر".

(لام "ليرنر" بشكل عرضى، "إدوارد سعيد" - بعد موت "سعيد"، وهو ما يتفق مع شجاعة "ليرنر" الأخلاقية - لعدم تعاطفه بالشكل المناسب مع اليهود الأوروبيين العائدين إلى "وطنهم القديم").

يمتلك "ليرنر" تاريخًا طويلاً من إدانة إسرائيل عن طريق لوم الفلسطينيين على أنانيتهم. فى مقال رأى نشره عام ٢٠٠٢ فى مجلة "The Nation"، على سبيل المثال، يلوم "الجماعات المؤيدة للفلسطينيين التى تزعم أن الفلسطينيين يتعرضون لإبادة جماعية شبيهة بالنازية على أيدى الشعب اليهودى"، ويدعو إلى "المصالحة بين شعبين يتقاسمان بالتساوى اللوم على المأزق الراهن". الجزء الأكثر إثارة للأسف فى هذا الرأى، بعيدًا عن التكرار الذى يعيده به، هو نزعه صفة الإنسانية عن الفلسطينيين باختزاله مقاومتهم الطويلة والشجاعة إلى الدرجة ذاتها من اللاأخلاقية الملازمة لمائة عام من التطهير العرقى الصهيونى.

عند اعتداء إسرائيل على لبنان، أدان "ليرنر" إسرائيل " ظاهريًا بدون أن ينتقدها فعلاً. لقد جمع ثلاثة وخمسين موقّعًا على إعلان نُشِرَ فى "لوس أنجليس تايمز" و"نيويورك تايمز". الشرط الأول للسلام الذى يتحدث عنه "ليرنر" يشمل "الاعتراف الكامل والمطلق من قبل الفلسطينيين والدولة الفلسطينية وجميع الدول العربية المحيطة بحق إسرائيل فى الوجود كدولة يهودية". بالنسبة ل- "ليرنر"، السلام متساوٍ فى الأهمية مع الحفاظ على أكثرية إسرائيل اليهودية - بمعنى، حقها فى أن تكون عنصرية بشكل مؤسّسى، ببقائها دولة عرقية بشكل قانونى. بدلاً من الدعوة إلى حق العودة، كشرط أساسى لأى سلام دائم، يدعو "ليرنر" إلى "تعويضات سخيّة"، وبالتالى ضمان الحرمان المستمر من الحقوق المدنية لملايين اللاجئين، وتقديم حب الغير الليبرالى، ذلك الذى جعل الفلسطينيين وجميع الشعوب

المستعمرة الأخرى التى لا تحصى تعانى لما يزيد عن مائة عام. الإعلان بكامله لم يرتفع أبدًا عن مستوى خواء التفاهات الليبرالية.

من الجدير بالملاحظة أنه من بين الموقّعين الثلاثة والخمسين على إعلان "ليرنر"، اثنان فقط يبدو أنهما مسلمان، أحدهما عربى (عراقى). ولم يمثّل لبنانى أو فلسطينى. هذه الإحصائيات المخجلة تتفق مع خطاب آخر تم توزيعه على نطاق واسع كتب عنوانه "نوام تشومسكى" ووقعه ثمانية عشر من النجوم المشاهير، ولا أحد منهم عربى أو مسلم. خشية أن يُكرِه دافعٌ عنصرى المرءَ ليتساءل عما إذا كان الكتاب العرب المشهورون قد أُغفلوا لأنه لا يوجد أحد منهم هناك، فإنه من الصعب أن نتخيّل أن لا أحد لديه بعد النظر ، ليتصل ب- "نعومى شهاب ناى"، "أهداف سويف"، "ليلى أحمد"، "نوال السعداوى"، "محمود درويش"، "أدونيس"، "ناتالى حنضل"، "إيتيل عدنان"، "سلمى خضراء جيّوسى"، "أمين معلوف"، أو "حنان الشيخ".

ربما يكون خيرًا أن "ليرنير" نشر إعلانًا حول إسرائيل ولبنان وفلسطين أغفل اللبنانين والفلسطينيين، وذلك لأن تلك الأصوات لا تتلاءم معه، فهم سيكونون أكثر إفادة إذا تخلصوا من عبء وصمة التردد الأخلاقى الذى لدى "ليرنر". إنه لم يفعل أكثر من الانشغال بتوافه الأمور وجنّد كثيرًا من الناس المشهورين الذين يجب أن يعرفوا أكثر، لكنهم وقفوا بجانبه لأنهم أقروا بنزعته إلى عمل الخير، أو لأن "ليرنر" لجأ إلى صورتهم الذاتية المستقيمة أخلاقياً، دون إدخالهم فى أى مشكلة حقيقية، مثلما قد يفعل الارتباط الحميم بالفلسطينيين بكل تأكيد.

يحسّ المرء فى كتابات "ليرنر" قتالاً صهيونيًا أيديولوجيًا مخلصًا، بالإضافة إلى الأيديولوجيا المهذبة للتعايش المتعدد الثقافات، شخصية المتعدد الثقافات فى "ليرنر" تنجح فى صنع بريق من التسامح، لكن القراءة الدقيقة لأعماله دائمًا ما تكشف المتعصّب العرقىّ.

يتوهّم "ليرنر" أيضًا أنه زعيم للفلسطينيين. هذا الوهم واضح فى مقالة رأى بمجلة "Nation" فى عام ٢٠٠٢، حيث يشجّع قراءه أن "يقوموا بمطالبة المؤسسات اليهودية والعربية بأن تتبنّى مسارًا إلى مبدأ اللاعنف". وددتُ أن أحثّ "ليرنر" على أن يقوم بأى مطالبات يرغبها من اليهود، ولكنّى أبلغه بأنه ليس له حق فى أى مطالب من الفلسطينيين. وإذا كان القراء الذين يخاطبهم من الصهيونيين التقدميين أيضًا (أو أى نوع من الصهيونيين)، عندئذ هم بالمثل ليس لهم حق فى أن يفعلوا أى شىء إزاء الفلسطينيين سوى تنظيف بيوتهم من النَتَن بدلاً من نقل الرائحة المنتنة إلى بيوت الآخرين.

يرمز " ليرنر " إلى فشل الليبراليين البيض المتورطين فى أنشطة استعمارية بالطريقة ذاتها، مثل شخصية "سوزان بارتون" فى التأمل الإبداعى الرائع فى رواية "Foe" ل– "جيه. إم. كويتزى"، حول الفصل العنصرى بجنوب أفريقيا. بالتفكير فى " فرايداى "، العبد الذى يعاد تخيّله فى رواية "Foe" كرجل أسود قُطع لسانه افتراضيًا، لم تستطع " سوزان " تجنّب لحظة قصيرة من الوضوح:

" أقول لنفسى إننى أتحدث إلى " فرايداى " كى أعلّمه بعيدًا عن الظلام والصمت. ولكن هل هذه هى الحقيقة؟ هناك أوقات تهجرنى فيها النزعة إلى عمل الخير وأستخدم الكلمات فقط كأقصر الطرق لإخضاعه لإرادتى. فى تلك الأوقات أفهم لماذا كان يفضل "كروسو" ألاّ أعكّر صمته، إننى أفهم، ما معناه، لماذ يفضّل الإنسان أن يكون مالكًا لعبد. هل صغرتُ فى نظرك بسبب هذا الاعتراف؟

بهذا المشهد، يقوم "كويتزى" بمناورة خطابية مدهشة. إن " سوزان " إما أن تأمل أو تتخيل أن صدقها اللحظى قد برر التعاطف، كما تميل تصرفات الصدق إلى فعل ذلك مع هؤلاء الذين يتطوعون بها. إلا أن هذا الصدق العارض يشير ضمنًا إلى "سوزان" على أنها فاسدة أخلاقياً، على عكس الصورة الذاتية المحبة للخير التى عملت بجدّ لتهذيبها وتسليط الضوء عليها، من خلال حديثها المكتوب .

إن "ليرنر" مثل "سوزان بارتون" تماماً، لكن دون أى لحظات من الوضوح أو الصدق العارض.

إننى أؤكد على حق "ليرنر" فى حديثه، بغضّ النظر عن كونه خطيرًا بشكل غادر. يجب على "ليرنر"، بأى حال من الأحوال، ألا يدّعى أنه يمثّل وجهات نظر أو مصالح الفلسطينيين. فهو لا يفعل ذلك. بتبرئة تأسيس إسرائيل، والدعوة المتكررة للمحافظة على دولة عرقية عنصرية، وتصوّر نفسه صهيونيّاً، يمثّل "ليرنر" فى النهاية مركزًا للقوة، والذى لن يرغب فى أن يتنازل عنه أبداً.

من الحكمة بالنسبة للفلسطينيين وأولئك الذين يهتمون حقًا بصالحهم أن ينصرفوا عن "مايكل ليرنر" بناءً على ذلك.

المهاجرون ليسوا متجانسى التكوين

لقد كنت فى مرحلة ساذجة آنذاك، سن الخامسة عشرة، كنت طويلاً وهزيلاً وعظام ركبتىّ بارزة قليلاً، مع شعر جسدى الجديد الداكن الذى يغطى بشرة سمراء مصفرّة، مع تسريحة شعر سوداء كثيفة، تزيد طولى أربع بوصات، مكمّلاً كل ذلك بنظارة بلاستيكية معرّقة الألوان كالرخام .

كان ذلك فى وقت مبكّر من سنة ١٩٩١. أشجار القيقب الكبيرة فى الفناء الخلفى الواسع لبيتنا "الأبالاتشى" كانت عارية من الأوراق، تحولت بسبب الشتاء إلى عيدان مفككة، تقرقع فى بعضها البعض فى الريح الموسمية الكثيفة الهائجة. الحقل الذى كان مخضرًا منذ وقت قريب اتخذ مظهرًا متلبّداً، أشبه ما يكون ب- "الشمبانيا" فى مظهرها العام، ولكن دون أى من نغماتها التردّدية الاحتفالية. مَرْبَىَ ماشيتنا المبنى من الطوب الأحمر، الذى تم توسعته بمساحة إضافية جديدة، لم يكن بالضرورة دافئًا لكنه كان آمناً، السخانات الكهربائية المثبتة فى الجدران كانت تبعث بالدفء مع ضوضاء متواصلة .

كنا نحب أن نتجمع حول التليفزيون فى ليالى الشتاء، فى حجرة تكفى لخمسة أفراد بالضبط، وثيرة بما يكفى للإيحاء بالحميمية الحقيقية، ولكن مع فراغ يسمح للفرد بأن يتمدد فى جلسته. فى تلك الأيام كان الشيء الوحيد الممكن مشاهدته هو الاجتياح الأمريكى البادئ للتوّ فى العراق، أول حرب على الهواء بالصوت والصورة. لدرجة أننا كنا نشاهد بثّ ال- CNN فى القسم الثانى من حصة الجبر وأثناء فترة مذاكرة وقت الغداء .

جميعنا كان يعرف أن صدّام حسين كان يُصوّر بشكل شرّير، فمه المتكلّف الابتسام رامزًا لحدّة الطبع العربى، شاربه الكثيف ليس زينة شخصية أكثر من كونه رمزًا للمتحجّر الفظ فى الخيال الغربى. كان ذلك قبل أن يتدلّى من حبل المشنقة فى "اليوتيوب YouTube" بستّة عشر عاماً. كان يمكن أن يبقى على قيد الحياة فى هذه الحرب. لكن ملايين من الشعب العراقى لن يكون بإمكانها ذلك .

كان زملائى فى المدرسة يتعاملون مع هذه الحرب كأنها لعبة فيديو video game، كانوا يهلّلون ويصفرون عندما كانت محطات التليفزيون تعيد بغطرسة تشغيل رسوم جرافيك متطورة، توضح الصواريخ وهى تضرب أهدافها، مربعات باللون البيج مع حرف (X) كبير مغروس فوقها، قبل أن تحولها الخطوط الرمادية الملطخة بألوان مختلفة إلى سحب من الدخان. لا أحد منا كان يعتقد أبدًا – أو حتى دُفِعَ إلى الاعتقاد – فى أن أناساً، بشرًا حقيقيين لديهم أصابع يدين وأصابع قدمين، يسكنون تلك المربعات الرمادية المبهمة. فى البيت، كان والداى أقل اهتمامًا بالأمر، كانا يهزّان رأسيهما ببطء، وأحيانًا ما يصدران صوتًا قصيرًا منخفضًا من خلال الشفاه المزمومة.

لم أكن متذمّرًا بصخب على وجه التحديد، لكننى كنت مراهقًا فضوليًّا رزيناً. كنت أحب الكتب وأقضى معظم وقتى، داخل وخارج الفصل، فى قراءة أى شىء يقع تحت يدى، فى أى مجال. كنت أسعد بكل من كوميديّات "أرتشى" وأعمال "تشارلز ديكنز"، معتبرًا الاثنين أنهما أفضل مَنْ صوّر العلاقات الإنسانية الأساسية بلا منافس. لم أكن أُولعت بالكتابة بعد، لكن ذلك كان بداية لتنمية موهبة تمييز الأعمال الجيدة. كان عقلى غير منتبه للدراسات العلمية ، ولكنه كان نشطاً. لم أكن مستهترًا بشكل نمطى، ومراهقًا هرمونيًّا .

وقد أدركت أن لدىّ اهتمامًا عميقًا مختلفًا نوعًا ما عن زملائى الأبالاتشيين بالحرب. بمعنى، عرفت أننى لست أمريكيًّا فحسب. بل عربىّ، تمامًا مثل العراقيين. مثل صدّام حسين.

هذه الحقيقة لم تكن غائبة عن زملائى فى الفصل، الذين أخذوا يطالبون بشكل روتينى بأن أعيد تأكيد ولائى للولايات المتحدة. أفضل طريقة للتعبير عن إعادة ذلك التأكيد، كانت مدّ كفّى للضرب بها على كف شخص آخر، تعبيرًا عن الابتهاج، عندما تدمّر الطائرات الحربية الأمريكية الأشياء. إنها غريزة حب البقاء على الرغم من ذلك. أحسست بطريقة ما أننى خائن فى مثل تلك اللحظات، رغم

أننى أفهم الآن أن أفعالى لم تكن خائنة، ولكن لاأخلاقية، وهو شيء لم أفكر فيه آنذاك.

لكن كان من الصعب الانشغال بالحرب فى وسائل الإعلام مع أى نوع من التأكيد على الأخلاقيات. إذا لم يرغب الإنسان فى أن يفكر بطريقة عملية فى موت العراقيين نتيجة الضربات الجوية، فعليه إذن ألا يفكر فيهم. لقد كانوا غائبين تمامًا عن رسوم الجرافيك الخيالية وعن تحليل الخبير. لم أشعر أننا نشاهد شيئًا خطيرًا ، كالحرب، كان لدينا إحساس مجرد، بدلاً من ذلك، بأننا نشاهد فيلمًا سينيمائيًا متواصلاً. كان صدّام هو الوغد المنتشر فى كل مكان فى وقت واحد .

كان زملائى فى الفصل يقولون إننى أشبه صدّام. فكلانا لديه شعر أسود وله لون البشرة نفسه، شيء ما مثل اللون الزيتونى المركز، هذان العاملان – لم يكونا أوجه شبه بالضرورة – كانا كافيين لمعظم الناس لأن يتخيّلوننا متماثلين، أو قريبين فى الشكل بما يكفى. لقد كان الأمر أصعب وأصعب أن أتجاهل ما يُرمز إليه بهذا التشابه المزعوم، وهى أننى عربىّ، حقيقة يفهمها زملائى فى الفصل، عبّر عنها أحدهم ببساطة، لأن الأمريكيين معتادون على فعل ذلك، من خلال التعليق على المظهر .

كانت هناك شائعات حول مشروع قانون. سمعتها لأول مرة من والدة صديقى، حيث كانت تشتعل غيظًا بسبب أن زوجها المصاب بالعرَج، والذى كان محاربًا قديمًا فى حرب فييتنام، سيتم استدعاؤه للقتال مرة أخرى. طلاب صفّ التخرّج فى المدرسة ناقشوا أيضًا إمكانية إذا كان خطاب القبول يمكن أن يؤهلهم للإعفاء، كان الجنود أكثر انفعالاً، بينما هم يتفاخرون، من أجل، "تضرب مؤخراتهم ونأخذ بترولهم" "kick their ass and take their gas". بالتأكيد، نحن كنّا نضرب صدّام، ولكن لا أحد كان يعلم متى ستنتهى الحرب. كان بينى وبين حصولى على حق التصويت على مشروع القرار أقل من ثلاث سنوات. ماذا كان سيحدث لو أننى، كعربى، أُجبرت على الذهاب إلى الشرق الأوسط لقتل عرب آخرين؟

بالنظر إلى الوراء، أدرك أن أزمتى لم تكن ضرورية، والتى كانت مبنية على افتراض ميلودرامى. فى حينها، أبرزت هذه الأزمة، مع ذلك، مأزقًا أخلاقيًا لم أجد له مخرجًا بالفعل، وهو واحد من مآزق المهاجرين العديدة منقطعة النظير، الخاصة بالولايات المتحدة. ذات مساء، بينما استمرت الحرب الإعلامية، بحسب البهجة البادية على وجوه المذيعين، قررت أن أسأل والدىّ عن رأيهما.

ردّت والدتى دون تردد: "أنت مواطن أمريكى. إذا دعيت للقتال من أجل وطنك فستفعل ذلك، لا يهم ضد من أو أين".

أجاب والدى: "هراء".

الخطر والتهديد فى كولومبيا،

أو يوم دُعِىَ محمود أحمدى نجاد إلى العالم الأكاديمى ومثّل الإرهاب مباشرة

فى سبتمبر ٢٠٠٧، سافر الرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد إلى جامعة كولومبيا ليلقى خطابًا كضيف على كلية الشئون العامة والدولية. وقد أدّى كل من الدعوة وما تلاها من مظاهر إلى جدل متوقّع. كانت تصريحات أحمدى نجاد المثيرة للاستهجان وسياساته الداخلية المريبة فقط هى الأساس الظاهرى لهذا الجدل، رغم ذلك. كثير من الجامعات الأمريكية، على كل حال، تستضيف الطغاة والحكام الديكتاتوريين والأنماط الكريهة الأخرى، وتعاملهم كضيوف شرف فى أوقات خالية من أى شىء ما عدا الجدل الهامشى (الملك عبد الله، برويز مشرّف، هنرى كيسنجر، بنيامين نتنياهو، وجورج دابليو بوش، هم من أتذكرهم الآن). الجدل حول أحمدى نجاد، إذن، يكون له معنى فى سياق جيوسياسى معيّن فقط، الادعاءات حول تصرفاته المريبة انتقائية جدًا لدرجة أنها لا يمكن أن تؤخذ على محمل الجد مثل أى شىء آخر فيما عدا تبرير الجدل. أدّت زيارة أحمدى نجاد إلى جامعة كولومبيا إلى الاحتجاج بسبب ما استخدمه من صفات مجازية ، خاصة إشارته إلى إنكار الهولوكوست وإلى الإرهاب (بشكل أكثر شمولاً بينما تزداد الدعوات لغزو إيران). الكثيرون من هؤلاء الذين احتجوا يبحثون باستمرار عن مبرر للداعين إلى التدخل العسكرى المباشر ولا يفوّتون أى فرصة للتذمر. كانت زيارة أحمدى نجاد نعمة لأولئك الذين يبدو أنهم يعرفون أنهم لا يفعلون شيئًا آخر سوى التهليل للحرب.

إن هدفى ليست تبرئة أحمدى نجاد من إخفاقاته فى القيادة، التى وثّقتها وسائل الإعلام الأمريكية بدقة (وبالغت فى ذلك). هدفى هو أن أطلب من القراء أن يفكروا فى الظروف التى يمكن فيها لشخصية ممقوتة أن تسبب الهيستيريا، وتصل

إلى أن تمثّل العنف غير المبرر، بينما الشخصيات الممقوتة المماثلة ترمز فقط إلى الفتور أو اللامبالاة. الخطوة الأكثر إمتاعًا هي التفكير في الظروف التي وصلت فيها شخصيات ممقوتة إلى أن تدفع إلى الاحترام (رونالد ريجان، حسنى مبارك، وشيمون بيريز، الذين الذين أتذكرهم). إن إدانة أحمدى نجاد والصياح بغضب من شرّه هو المعادل الفكرى للقرع بملعقة على مقلاة، والمعادل الأخلاقى لضخّ البترول إلى دبابة من طراز "أبرام". إذا رمزت زيارته بالنسبة الأمريكيين إلى خلاصة الخسّة، وأثارت جدلاً حول قوانين محلية مثل حرية الرأى، عندئذ تستحق هذه الزيارة أن تدرس بشكل تحليلى. التحليل الأساسى يوضح أن خطاب أحمدى نجاد فى جامعة كولومبيا حرّك، أكثر من أى شىء آخر، عاطفة الوطنية المتطرفة الكامنة، التى تشكل أساس الحركة الإنسانية الأمريكية. إن أحمدى نجاد سيظل مهمًا فقط ما دام الأمريكيون يحتاجون شخصًا يجسد مخاوف سياسية خارجية. كعنصر بشرى أو كمشارك فى صنع السياسات العالمية فإن أحمدى نجاد شخص خارج عن السياق تقريباً، إنه مفيد أكثر للأمريكيين كاختراع لنزعتهم العنصرية الخاصة.

لكن هذا المقال لا يسعى فى الواقع ليكون عن محمود أحمدى نجاد (تمامًا مثما لم تكن زيارة محمود أحمدى نجاد لكولومبيا فى الواقع حول محمود أحمدى نجاد). إنه سيكون حول العوامل الرمزية الضمنية فى دعوة أحمدى نجاد، والمعاملة السيئة اللاحقة من قبل رئيس جامعة كولومبيا "لى بولينجر" ووسائل الإعلام الأمريكية الرئيسية. إن "بولينجر" يتصوّر نفسه الدرع لحرية الرأى والمدافع عن الحقوق، لكن أفعاله خيبت التصوّر. إن رفضه الحديث عام ٢٠٠٦ دفاعًا عن أعضاء هيئة التدريس الذين تعرضوا لهجوم من قبل صهيونيين رأسماليين كان دالاً على الجبن أكثر منه على الشرف. عندما استغل مناسبة الخطاب لكى يلوم أحمدى نجاد فيما يتعلق الحقوق المدنية وخطابه بالجامعة، حوّل نفسه منافقًا متبجحًا. لسنا بحاجة إلى استحضار دفاع "بولينجر" المزعوم عن حرية الرأى لنقدم هذا التعليق، فإنه يمكن أن يُقدَّم بأن نلفت انتباهنا إلى رئيس "بولينجر"

نفسه، الذى لم يوبّخه "بولينجر" أبداً. لم يدل أحمدى نجاد أبدا بأى تصريح مثير للاعتراض أو يقم بأى عمل غير إنسانى، إلا وكانت كلمات "بوش" وأفعالة متفوقة عليه. فى الواقع، إذا تجاهلنا ميدان الحديث (والذى يعتبر مهماً، ولكن ليس كأهمية الفعل) وركزنا بدلاً من ذلك على الفعل، عندئذ يكون "بوش" رئيسًا أكثر خطورة إلى حد كبير من أحمدى نجاد. وإلى أن يكون هناك شىء لدى " بولينجر " ليقوله ل- "بوش" - ليس عنه فقط، ولكن له علانيةً - يصبح انتقاده ل- " أحمدى نجاد " لا شىء سوى مجرد تأثير فى نفوس المشاهدين.

وشمل سياق هذا التأثير فى نفوس المشاهدين الخوف المرَضى من الأجانب ومن الإسلام. على المنصة فى كولومبيا، دخل "أحمدى نجاد" إلى مكان مقدّس كالدخيل الأجنبى، وكرمز داكن البشرة للغيريّة غير القابلة للتغيير. إنه من خلال الاختلاف الراسخ أمكن للأمريكيين أن يتجنبوا، وهم معتدين بأنفسهم، رؤية خطاب "بولينجر" على المنصة إلى أحمدى نجاد، كإسقاط يدل على فسادهم الأخلاقى. لقد اعتاد الأمريكيون منذ عام ١٩٧٩ على منع الإيرانيين من مستوىالإنسانية ذاته، الذى خصصوه لأنفسهم. هذه المعاملة متفاوتة، ويمكن أن تكون ذكية بارعة، أو صريحة فجة. مثال لذكائها المعتاد يتجلى من خلال مذيعة نشرة الأخبار المسائية فى "محطة CBS" "كيتى كوريك"، والتى، طبقًا لكاتب العمود فى صحيفة "نيويورك تايمز" "ماورين دوود"، تتذكر كيف تنطق اسم أحمدى نجاد بالطريقة المساعدة على التذكر ل- "I'm a dinner jacket"[1]. هذه الاستراتيجية الحمقاء، المبنية على الخطأ فى النطق، لا تنمّ على العنصرية مباشرة، ولكنها تشير إلى فقدان الجدية الثقافية المتنوعة، وهو سلوك يسمح للعنصرية بأن تنتشر بين من هم غير عنصريين. لم تُجرَ محاولة - لا محاولة فى حاجة لأن تجرى - لاستكشاف التاريخ والثقافة واللغة الإيرانيين، خارج نطاق استخدامهم ككيانات ظلّ فى العقائد الأمريكية للتدخل فى شئون الدول الأخرى.

---

(١) تسمية تهكمية تطلق فى الغرب على الرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد .

إذا أخضعنا وضع أحمدى نجاد المعقد لإطار تحليلى يفسّر الظواهر المجازية المهمة، فإننا سنكتشف بعض الأشياء المهمة حول الفائدة من الآخر المسلم فى المفهوم الأمريكى المعاصر للقوة الفردية والسيادة الوطنية. ثلاثة أشياء بوجه خاص تتجلّى فى خطاب اللباقة الأمريكية، والتى تعد استثنائية وعنصرية بشكل مستتر فى آن واحد (فى تلك الحالات التى لا تكون فيها عنصريتها واضحة): (١) العرب والمسلمون لا يعرفون سوى العنف كطريقة للتعامل وأغبياء تمامًا فيما يتعلق بمسائل التقدم والتنوير، (٢) الاتهام بغياب الحقوق الإنسانية والمدنية فى العالم الإسلامى يزيد باستمرار ويتعالى فى اتساق مباشر مع تآكل الحقوق الإنسانية والمدنية فى الولايات المتحدة، و(٣) العملية المعقدة لصناعة الرمز فى الولايات المتحدة تستغل ما ينبغى أن يكون بطريقة أخرى أشياء مرئية طبيعية أو عادية فى الثقافة العربية عن طريق مفاهيم شريرة. فلننظر عن قرب إلى كل من هذه الملاحظات.

مفهوم أن العرب والمسلمين لا يمكن أن يُجادلوا باستخدام الأساليب التقليدية للحوار، وأنه يجب بناء على ذلك أن يُرغموا من خلال العنف على أن يكونوا فى مواقف خاضعة، قد حازت على شعبية. لقد تواجد المفهوم لوقت ما فى القاموس الأمريكى، لكنه أصبح سائدًا مع بداية الانتفاضة الفلسطينية الثانية، فى سبتمبر ٢٠٠٠. والدافع لشعبيتها هو النظرية الملائمة القائلة بأن إسرائيل يجب أن تخضع الفلسطينيين بالقوة لسببين رئيسيين : لتعلّمهم أن العنف سيعود عليهم بالعنف ولتدخل إلى المفاوضات معهم من موقف القوة. هذه النظرية قد شُجّعت بتعصّب شديد من قبل مدير منتدى الشرق الأوسط "دانييل بايبس". بالضبط قبل أن يصبح مستشارًا للحملة الرئاسية لـ- "رودى جيليانى" [1]، علق "بايبس" أنه:

(١) ولد سنة ١٩٤٤، ينتمى للحزب الجمهورى، ترشح عن الحزب فى الانتخابات الرئاسية الأمريكية ٢٠٠٨، ثم انسحب . (المترجم)

دعا إلى قطع الإمدادات والخدمات العامة عن السلطة الفلسطينية بالإضافة إلى مجموعة من الإجراءات الأخرى مثل عدم انتقال الناس أو البضائع إلى السطة الفلسطينية فيما عدا الضرورات الأساسية، بما يحقق عقوبة الموت ضد القتلة، وتدمير القرى التى تنطلق منها الهجمات . عندئذ وكما الآن، ردود الفعل هذه لها فائدتان: أولاً، أنها ترسل رسالة رادعة قوية، "ادفعنا إلى الخلف، ندفعك إلى الخلف بشدة أكثر"، بذلك ينقص عدد الهجمات على المدى القصير. ثانيًا : أنها تجبر الفلسطينيين بالإرادة الإسرائيلية فى البقاء، وبالتالى يجىء قبولهم النهائى بالدولة اليهودية.

وكما يشير "بايبس"، فإنه يعلن عن بعض التغيير فى جداله على مدى سنين عديدة. قد يكون من الخطأ أن نَقصر استخدام هذا المفهوم على "بايبس" وأمثاله من المحافظين الجدد، معلّقون آخرون يعيدون استخدام أدواته الفلسفية فى مجموعة متنوعة من السياقات، غالبًا باستخدام لغة أقل عدائيّة وأكثر إنسانية.

وقد أصبح تداول هذا المفهوم ملحوظًا عند حضور أحمدى نجاد إلى كولومبيا. عبّرت الكاتبة فى ال- "واشنطون بوست" "آن أبليباوم" عن الحريات الأمريكية فى قصة عن الجهل والحرمان الإيرانيين: "بدلاً من التجادل حول حرية الرأى فى إيران، ها نحن أولاء مرة أخرى نتحدث عن حرية الرأى فى أمريكا، وهو موضوع نعرف عنه الكثير". فى البديهيات الأخلاقية ل- "أبليباوم"، الولايات المتحدة غير مرتبطة تاريخيًا بتطور السياسات الإيرانية، ولذلك فالدليل الحاضر لديمقراطية إيران العملية وتعرضها للتدخل الأمريكى العلنى والسرّى تم إسقاطه، وبالتالى يصبح غير ذى صلة بالأمر. بدوره، يكون القارئ مدفوعًا ليسأل عما إذا كان الإيرانيون مؤهلين بما يكفى لحرية شاملة دون مساعدة أمريكية (والتى لا يبدو أنها تمانع فى التدخل العسكرى). يشير أسلوب "أبليباوم" إلى أن حالة الرضا الأمريكى عن النفس نُشرت بأفضل شكل بالتزامن مع البكاء على الجهل الشرقى. هذه الخطوة تمنع المعلّق من دراسة الحالة الفعلية للحريات الأمريكية المزعومة حالياً، وفى الوقت ذاته تقود الإيرانيين إلى ميراث أخلاقى، يؤدى إلى حراسة دولية

مضفى عليها القداسة ومؤمّن عليها من قبل أساطير أمريكية سابقة. قد يكون من الصعب تحديد المقدار، لكنه من المعقول التأمل فى أن الإيرانيين يتناقشون حول حرية الرأى على الأقل فى أعداد معادلة لهم من الأمريكيين – وبالتأكيد هم يثيرون هذه المناقشات باختلاف فى المضمون أكثر مما يفعل أصحاب موضوعات الرأى الأمريكيين. (من المفيد أن نتذكر أن "أبليباوم" غير المتحدثة بالفارسية تزعم زعمًا ليس لديها أهلية تقديم الدليل عليه).

"جونا جولدبرج" قدمت شكلاً مختلفًا لمنطق "أبليباوم" فى تعليق لمجلة "ناشيونال ريفيو أونلاين"، مفترضة أنه إذا تم توزيع تسجيل فيديو لخطاب "بولينجر" على مستوى الشرق الأوسط عمومًا وإيران خصوصاً، فإنه يمكن أن يكون له تأثير إيجابى جدًا. والأيام ستخبرنا". هذا الافتراض مشابه لمنطق "أبليباوم" لأن كلتا المؤلفتين لا تبدوان فقط أنهما تقرّان بإخلاص الولايات المتحدة فى حوارها مع إيران، ولكن لأنهما تعتقدان بإخلاص أن الإيرانيين يحتاجون إلى هذا الحوار إذا أرادوا فى أى وقت التغلب على تخلّفهم. المثال الأكثر فجاجة لهذا الرأى يتجلّى فى إطار مختلف عن طريق الناقد الثقافى الليبرالى "كارلين رومانو" الذى نشر فى صيف عام ٢٠٠٧ عموده المعتاد فى دورية " Chronicle of Higher Education Review" تحت عنوان "إذا لم نطلق نخاطبهم بأسمائهم الشنيعة، فسيفوز الإرهابيون" . مناقشة "رومانو" صريحة، الدعوة إلى حكم أشدّ حزماً، معبّر عنه بقوة أشد"، إنه يحث السياسيين والمعلّقين إلى أن يشيروا إلى "الإرهابيين" – وهى تسمية مبهمة بشكل نمطى، وبالتالى عنصرية – "كأبناء زنا ومنحطّين وجبناء وحثالة". والاختيارات الأخرى تشمل "أشرار" و"همج".

إن مناقشة "رومانو" مسيئة لأسباب عديدة، ولكن بشكل رئيسى لأن فهمه السياقى للقضايا الجيوسياسية، مثل الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين والغزو الأمريكى للعراق قصير النظر بشكل مرَضىّ، ولأنه يفشل فى عمل تمييز كاف بين الإرهابيين المزعومين وجميع المسلمين. إذا تم متابعته، فإن توصيته ستصل إلى

تصنيف واسع الانتشار للمسلمين جميعًا على أنهم "أبناء زنا، ومنحطّين، وجبناء، وحثالة"، وهى ظاهرة واضحة الآن على أية حال. (وإن لم تكن كذلك، فكيف لـ- "رومانو" أن يكتب مقالته من الأساس؟ ثم كيف أمكن نشرها فى جريدة خاصة بتدوين وقائع التعليم العالى؟). يقترح "رومانو" تنظيمًا خطابيًا للتصنيفات "المانويّة" (١) التى تبرر الإمبريالية الأمريكية، والتى تُخضع المسلمين لصور عنيفة بشكل واضح من إدخالهم ثقافيًا فى الحداثة. ولكن هذه المشكلات ليست النقاط الأجدر بالملاحظة فى مناقشة "رومانو". هذا الفارق يلائم الأساس المنطقى للمخاطبة بالاسم. "ماذا يمكن أن نناقش فيما يتعلق بمزايا مناداة الإرهابيين بأسمائهم البشعة؟"، يسأل هو:

دعونا نذكر هدفًا رئيسيًا واحدًا فقط: تعليم الشباب المسلمين فى العالم. فبدلاً من الاستماع إلى الإشادة الأخلاقية بالإرهاب والتشجيع عليه من قبل الجهاديين، والذى اختلط فى عقولهم بالحديث الانتهازى والممتنع عن إصدار أحكام شخصيةً عن المسئولين الغربيين ووسائل الإعلام الغربية، يجب أن يستوعبوا اتجاهًا ثابتًا من الإهانات لذكاء وأخلاقيات وسلوكيات ومنطق الإرهابيين، الشباب المسلم يجب أن يعتادوا الاستماع إلى أبطال الجهاد الموصوفين بأنهم متوحشون وحثالة وفاشلون همجيون إلى جانب المبررات لماذا. من الممكن أن يرغمهم ذلك فكريًا على، أكثر بكثير من إرغامهم اليوم، على الاختيار بين رؤيتين للعالم.

هذه الاستراتيجية منافية للعقل لأنها تختزل العوامل الاقتصادية والسياسية الاجتماعية المعقدة التى تؤثر فى الإرهاب - بأشكاله المتعددة - إلى رؤية أخلاقية ازدواجية معبّر عنها بسذاجة باستخدام تسمية رمزية. يعتقد " رومانو " أن إحداث تغيير فى مفردات اللغة من أجل الجمهور الأمريكى، سوف يجعل المسلمين يتأملوا فجأة فى وحشيتهم، وبعد ذلك يصلوا بشكل طبيعى لأن يدركوا أن إخضاع أنفسهم لهيمنة الجيش الأمريكى والليبراليين الجدد سوف يحلّ جميع مشاكلهم. (سوف لا يكونون، بالطبع، أذكياء بما يكفى ليدركوا أن توصية "رومانو" سوف تحل

(١) نسبة إلى المانوية، وهى ديانة وضعية فارسية قديمة ظهرت بعد المسيحية. (المترجم)

المشكلات الأمريكية فقط التى تنشأ بشكل غير ملائم عن الرغبة فى تشجيع الحماس الاستعمارى). كذلك تنسب الاستراتيجية ضمنيًا وحشية مستمرة للمسلمين. وإن لم تكن تفعل ذلك، فإنه سوف لا يكون لدى "رومانو" أى أساس ليتصور أن الشباب المسلم جبان وغبى جداً، لدرجة أنه بمجرد سماعه بأن نظرائه المسلمين تطلق عليهم أسماء شنيعة ومجرّدة من الصفات الإنسانية، سيحوله ذلك إلى جبهة هؤلاء المعادين لهم بشدة.

إن مناقشة "رومانو" هى صيغة متطرفة لموقف واضح، يشاركه فيه كل من "أبليباوم" و"جولدبيرج": العرب والمسلمون، المغرمون بالعنف، يجب أن يتم تمدينهم بالإكراه.

هذه الأساليب مفيدة لأولئك العاشقين للباقة الأمريكية، لأنهم يحصرون المسلمين فى اللاعقلانية المتخلفة. إنهم يحصلون على استفادة إضافية بتحويل الانتباه عن تعبيرات الوحشية الأمريكية: الاستعمار، التعذيب، اغتصاب وقتل المدنيين فى العراق، الحقوق المدنية المتآكلة، حقوق الإنسان المهملة. الحقوق الإنسانية والمدنية المتناقصة لها أهمية خاصة. بإثارة هذه الأهمية، لا أريد أن ألمح إلى أن ذلك جديد فى الولايات المتحدة. لم توجد لحظة فى التاريخ الأمريكى حدث وأن مُورِسَتْ الحقوق الإنسانية والمدنية وحُمِيَتْ بشكل شامل، فإنه دائمًا ما يحرم منها شخص ما فى كل لحظة تاريخية، والناس كانوا ضحايا باستمرار لأسلوب الإنكار من خلال النفاق denial-through-sanctimony المناظر. التناقص الحالى فى الحقوق الإنسانية والمدنية جدير بالملاحظة بسبب بعض المظاهر المميزة. فى المقام الأول، اعترف مسئولو الحكومة الأمريكية باستخدام التعذيب، وقيّدوا بفخر ما كان يومًا حريات الخصوصية المحميّة قانوناً، والحقوق فى توكيل محامين. علاوة على ذلك، فإن خطاب التبرير هذه الأيام يُستغلّ عادة فى مواثيق أمنية خاصة. وتؤكد هذه المواثيق على حماية الأفراد الأمريكيين من الإرهاب، لكنها تنطلق من وتعود إلى حفظ سلطة الدولة. الحاجة إلى الحماية، مهما تكن، غالبًا ما تقدم على أنها التزام دينى.

تماشيًا مع هذه الاحتياجات من المفيد أن نلوم أحمدى نجاد على سجلّه السيئ المفترض فى مجال الحقوق الإنسانية والمدنية. (أحمدى نجاد ليس محاربًا من أجل للعدالة - انظر مواقفه حول المثليّة والتنمية الاقتصادية - ولكن إذا حدث وكان سيئًا تمامًا مثلما يصوّر بشكل زائف، عندئذ سيكون منحطًا ومعتوهًا بشكل غير قابل للإصلاح، بالأحرى، مثل جورج دابليو بوش فى الواقع). هذا اللوم يؤكد مرة ثانية على التزام أمريكى زائف تجاه الحقوق المدنية والإنسانية، والذى يُؤدَّى فى الواقع على مستوى التأكيد فقط، وبذلك ينجز وظيفته الأساسية. فى هذا السيناريو، أحمدى نجاد هو أداة مساعدة فظيعة، و"بعبع" ضرورى، مجهّز بالمواصفات الجسدية والعاطفية الناشئة عن هوس إنكار الأفكار المؤلمة غير المكبوح بشكل كامل. هذا النوع من الاحتفاليات الخطابية قد يكون مضحكًا نوعًا ما إن لم يكن أيضًا فيه غلّ، كذلك : بهذه الطريقة القاسية جدًا للوم أداة مساعدة بشعة مثل أحمدى نجاد، فإن المعلقين والمفكرين الذين يخترعون رأيًا عاما، لم يتجاهلوا انتهاكات الحقوق المدنية والإنسانية فقط، بل دعموا هذه الانتهاكات وأجازوها بتجنّب التفكير فى الإدانة المنافقة للأجنبى الجيوسياسى (بمعنى: الأخلاقى). إن نزع الإنسانية عن الأجنبى لم يمكّن المعلّقين الأمريكيين من إنكار البربرية الأمريكية فقط، بل مكّنهم من تهيئة الأجواء للبربرية الأمريكية، من خلال استخدام اللغة التى تجعل الغريب رمزًا للعالم الإسلامى بأكمله.

طريقة واحدة يتم بها هذا الإجمال، وذلك من خلال الانتباه المتواصل إلى أخطار الوحشية الإسلامية المتأصّلة. ولكن كيف نصل إلى أن ندرك وجود تهديد إسلامى بشكل محدد؟ فى العالم الذى يعيش فيه المسلمون البشر، تكون دراسة الرموز الإسلامية معقدة ومتناقضة على حد سواء. هناك أشياء قليلة يمكن أن تمثّل الإسلام بدقّة فى مجملها. فلا توجد سمات عرقية مميزة مؤهّلة لتفعل الشىء نفسه. ومع ذلك، ففى العالم الذى يصوّر فيه المسلمون من قبل أولئك المتورّطين فى الإمبريالية، يمكن اختزال الإرهاب إلى التعبير برموز بصرية تشير إلى الوجود

الإسلامى المهدّد. هذه الرموز البصرية تشمل عادة اللحىَ والكوفيّات وسُبَح الصلاة والزىّ المميّز (تأمل الجلابيب ذات اللون البيج القذرة والصنادل الجلدية المتربة).

لا أريد أن أركّز على هذه الدلالات النمطية، لأن الرموز المرئية الأخرى جاءت لتنوب عن المسلمين الخطرين، وهذه الرموز البصرية تشير إلى شكل أكثر إيذاءً من أشكال العنصرية والاختزال. الشىء الأكثر إيذاءً فى هذه الرموز هو إطار النصيّة القرآنية، النص العربى (بطرق مختلفة يمكننا أن نرى تخصيص اللغة العربية بكاملها للرمزية العنصرية، لفظيًا وسماعيًا على السواء). لقد وصلنا إلى درجة أنه فى المعايير المنطقية الأمريكية جميع أشكال التعبير عن الثقافة الإسلامية تدل على العنف، بالإضافة إلى الكتابة العربية التى تعبر بوضوح أكثر عن الثقافة الإسلامية العنيفة. فى حالة الكتابة العربية، لدينا شىء لغوىّ، أو رمز صوتى، يعبّر شكلاً عن دلالة ثقافية معيّنة، والقائمون على أمور الثقافة الشعبية يحيطون الكتابة العربية بمدلولات خبيثة، مثيرين شيئًا ما من الحماقة السيميوطيقية.

حالة "ديبى المنتصر" مثال بارز لهذه الظاهرة. مهاجرة يمنية ومديرة سابقة لأكاديمية خليل جبران الدولية العامة فى مدينة نيويورك، وهى مدرسة ثانوية للغة والثقافة العربية، أثارت "المنتصر" الجدل عندما سئلت من أحد الصحفيين عن عبارة "انتفاضة NYC " "Intifada NYC"، التى تضعها بعض العضوات على ملابسهن فى منظمة "النساء العربيات الناشطات فى الفنون والإعلام"، فى أحد الأحداث التى كان تحت رعايتها. الحدث والمنظمة لا علاقة لهما بأكاديمية جبران، وتصادف أن تكون "المنتصر" من بين الحضور. شرحت "المنتصر" للصحفى أن الشعار ليس موافقة على العنف، ثم علّقت قائلة : "الكلمة تعنى أساسًا: الاهتزاز". على الرغم من أن الكلمة أصبحت تشير ضمنيًا إلى "التفجير الانتحارى" فى معظم وسائل الإعلام الأمريكية، فإنه فى الواقع كانت الانتفاضة الفلسطينية الأولى تُعرف بمقاومتها السلمية الشجاعة، والانتفاضة الثانية كانت مليئة بالأعمال السلمية المنظمة التى لم تنقلها وسائل الإعلام. تعرضت "المنتصر" لهجمات قاسية، غير

مبررة فى الواقع، من قبل وسائل إعلام ومعلّقى المحافظين الجدد مثل "دانييل بايبس"، الذى نشر مقالات عنونَها ب– "A Madrassa Grows in Brooklyn" "مدرسة تَنشأ فى بروكلين" و"Stop the NYC Madrassa" "أوقفوا مدرسة مدينة نيويورك" (فى اللغة العربية تعنى madrassa كلمة school فى الإنجليزية). وقد لقّبت جريدة "نيويورك بوست" "المنتصر" ب– "مديرة الانتفاضة" وخصصت افتتاحية تحت عنوان "ما المقابل العربى لكلمة Shut It Down أغلقوها؟". وفى وسط الضجة، متمهّلاً ومهيّجاً، اتخذ "راندى وينجارتين"، رئيس الاتحاد الذى يشرف على "المنتصر "الفيدرالية المتحدة للمعلمين"، موقفًا عامًا ضدّ "المنتصر"، والتى استقالت فيما بعد واستُبدلت بغير الناطق بالعربية "دانييل سلازبرج"، وهو "صهيونى شديد التعصّب يفكر فى الارتحال إلى إسرائيل" وفقًا لجريدة ال– "بوست".

هناك العديد من الدروس التى تُستخلص من هذه الأحداث، ومنها العلم بأنه فى لحظات الأزمة سيحلّ الخوف والاشمئزاز من العرب محلّ الحاجة إلى ممارسة المسئولية المدنية الأساسية. الرسالة الواضحة الموجهة إلى المجتمع العربى الأمريكى هى أنه لا يمكنه أن يباشر أى شأن من شئونه الخاصة دون التدقيق الحكومى العام والرقابة البيروقراطية الخارجية، وأنه فى أى لحظة يمكن أن توجه إليه الإهانة الشديدة بوقوعه مرة أخرى تحت سلطة مشرفين صهيونيين. (أود أن أوضح أن انتساب "سالزبيرج" للصهيونية، إن كان صحيحاً، هو شىء مستحق للاستهجان أكثر من أى شىء فعلته "المنتصر"). على عكس عملية التعليق على قميص "تى شيرت"، فالصهيونية عبارة عن موافقة واضحة على العنف. فى هذه الحالة، إنها موافقة على العنف ضد الطلاب أنفسهم الواقعين تحت إشراف "سالزبيرج"). ربما يكون الدرس الأكثر إزعاجًا هو الحقيقة المؤسفة بأن حرية التعبير الفكرى والثقافى فى الولايات المتحدة ستكون، فى الوقت الحاضر، خاضعة لمصالح أولئك الذين يدعمون عدوانية دولة استعمارية عسكرية فى شرق البحر المتوسط.

بعيدًا عن هذه الدروس يمكننا أن نحدد ظاهرة أكثر إثارة، هى الحماقة السيميوطيقية التى أشرت إليها سابقاً. فالكلمات العربية العادية السلمية أصبحت توصم بدلالات نزّاعة للقتل، وإن كانت من قبيل الهراء. أى شيء دالّ على الثقافة العربية - والوجود المصاحب للعرب أنفسهم - يمكن بهذه الطريقة أن يُنظر إليه على أنه رامز لوجود مغرم بالعنف. لا يمكن للعرب والمسلمين أن يعبّروا عن أى نوع من الوجود الثقافى فى الولايات المتحدة بدون احتمالية العدوانية المجنونة المصاحبة، والتى تكون عادة فى شكل الإرهاب غير المعنى بالسياسة. الأمثلة الأخرى التى تؤيد هذه الملاحظة: تهمة "جهادىّ" الشائعة التى وجهت إلى النشطاء والأكاديميين المؤيدين للعدالة المستقلة غير الاستعمارية (بمعنى: تحرّر الفلسطينيين)، الذين لم يتحدثوا مطلقًا باسم الجهاد، ومضايقة ركاب الطائرات الذين يحملون المصاحف أو الذين يظهرون أى نوع من الكتابة العربية (عبارة: "لن نسكت"، على سبيل المثال)، والمساواة المعتادة للإسلام بالفاشية، واختزال جميع أشكال المقاومة الفلسطينية فى الإرهاب، وتصوّر الحجاب كرمز للعجز والاضطهاد.

ربما تكون هذه الأمثلة قد ضُربت جميعًا من قبل الطلاب المصوِّرين فى الملصق، الذى وجد مزخرفًا بالألوان الزاهية فوق مبنى جامعة جورج واشنطون ذات صباح، فى بداية "أسبوع الوعى بالفاشية الإسلامية "، الذى أقيم تحت رعاية "ديفيد هورويتز". مصوّرًا ما يبدو أنه شخص عربىّ مرتديًا حزامًا ناسفًا ومشهرًا الكلاشينكوف، ويصف الملصق الشخص بأنه "المسلم النموذجى". من المحتمل أن تكون هذه الصورة قد دخلت عقول أناس كثيرين عندما خَطا محمود أحمدى نجاد أمام الميكروفون فى جامعة كولومبيا الأرستقراطية. فى آخر الأمر، اعترفت مجموعة مكونة من سبعة طلاب من جامعة جورج واشنطون بتوزيعهم الإعلانات مع آخرين، والتى تقول: "هل تكره المسلمين؟ ونحن كذلك!!!" مدّعين أن الرسائل قصد منها أن تكون تهكميّة. هذا الاعتراف الذى لا يوجد لنا مبرر للشك فيه، تم

التغاضي عنه بشكل عام من قبل المجموعات الكثيرة والمعلّقين الذين استنكروا الملصقات، على ما يبدو لأن إقرارهم بغرضه التهكمي قد يكون مقوّضًا للهدف من إثارة الانتباه إلى وإدانة ظاهرة الإسلاموفوبيا ذاتها، المنتشرة كالوباء فى الجامعات وفى الولايات المتحدة بشكل أشمل.

يمكننا أن نحقق هذه الأهداف بشكل أكثر فعالية باستكشاف الموقف بكامله، لأنه حتى لو كانت الملصقات تهكماً، فهى لا تغيّر أو تهدم العوامل المَجازيّة التى تتيح لها أن تكون مؤثرة بطريقة ساخرة - بمعنى أن تكون مفهومة على أنها تصوير لوجهة نظر محددة، جُسِّدَتْ برمزيّة خاصة. أريد أن أشير إلى أن الملصقات يمكنها أن تكشف الصورة السلبية للإسلاموفوبيا، بطريقة أشد عمقاً، على أنها سخرية أكثر منها على أنها بيان رسمى حرفى. كيف يكون هذا ممكناً؟ يجب أن نتذكر أن الملصقات لم تكن فى الواقع مفهومة على أنها سخرية، وهذه حقيقة واضحة. إن مصداقيتها على الرغم من عنصريتها المفرطة وتصويرها الكاريكاتورى لعدوّ متعوذ منه، تنمّ عن انتشار واسع لظاهرة الإسلاموفوبيا، التى تمكّن تصوراتِها عن العنف الإسلامى من أن تكون معتادة بالتقادم. إنه بالضبط بسبب وجود الإسلاموفوبيا فى الولايات المتحدة، يمكن أن يقرأ الناس هذه الصورة المبالغ فيها على أنها حقيقية تماماً. إن السخرية لم تنجح رغم ثقل وطأتها لأنها لم تكن قادرة على أن تعزل نفسها بشكل كاف عما حاولت أن تسخر منه.

يمكننى أن أرتدى قميصًا يعلن، باللغة العربية : "أنا أحب أمريكا"، أو أى عاطفة وطنية أخرى بقوة، وينتهى بى الأمر إلى السجن. بكل أسف، أنا لا أبالغ. مثل هذا القميص يمكنه حرفيًا أن يذهب بى إلى السجن. هذه السخرية قد تكون مضحكة - تمامًا مثلما قد تكون سخرية طلاب جامعة جورج واشنطون مضحكة - إن لم تكن بسبب حقيقة أنها ترمز إلى نوع مختلف من الواقع السياسى: أمة مريضة بالإحجام عن مناقشة العقائد المصوّرة الناتجة عن رغبة إمبريالية، أمة ليس لديها القدرة على التعبير عن شكل واحد فقط للعاطفة الوطنية ليس عنصريًا

بشكل ضمنى أيضاً. أريد أن أمثّل هذه النقطة بأن أصبح وطنيًا مهدّداً، ولكن ليس لدى الرغبة فى إغراء المرض القومى ليظهر على جسدى السليم. علاوة على ذلك، مثّل محمود أحمدى نجاد هذه النقطة سابقًا عن غير قصد من أجلنا جميعاً.

أين تبدأ هذه العملية؟ فى أى ظروف، بمعنى آخر، هل الرمز العرقى يتطور ثم يصبح بعد ذلك تصويرًا سلبيًا مقبولاً على نطاق واسع؟

من الصعب الإجابة على هذه الأسئلة بدقة لأن نشر الصورة العرقية عملية معقدة وليست مستقرة تماماً. الصورة تنتشر من خلال مستويات مختلفة، وأحياناً متنافسة، من المجتمع وتتطور باستمرار مبنية على مصادمات مع أشكال مختلفة من القوة. إلا أن المواصفات المجازية للإسلام كعامل مساعد للعنف المتخيَّل متشابهة إلى حد كبير لدى كل من اليسار واليمين فى الولايات المتحدة. ونحن نعلم بالفعل أن العملية ليست عشوائية أو صدفة. أو، بمعنى آخر، لو أصبح أحمدى نجاد الشاه القمعىّ لإيران بدلاً من الرئيس القمعىّ لبلد عدوّ، فإنه سَيُرَحّبُ به بكل تألّق من قبل وسائل الإعلام المشترَكة، ومن قبل "لى بولينجر". كان "بولينجر" يؤدى نوعًا مختلفًا من التأثير فى نفوس المشاهدين فقط، وكان هذا الأمر مسرفًا بصورة لا تعرف الخجل، لكنه أدّىَ خدمة للهدف الصحيح ذاته.

متعصّبو العقيدة السريّة

إن الإلحاد متناقض ظاهريًا بطبيعته. عملية وصف الكفر عقائدية فى الأساس. بمعنى، فى تجسيده الأكثر صراحة، فإن الكفر أمر شخصىّ إلى حد بعيد، ولكن عندما يُميّز الكفر ويُصنّف يصبح عامًا إلى حدّ ما. هذه هى الخاصيّة التى يواجه بها الإلحاد المشكلات، عندما يتطور من كونه وجهة نظر شخصية إلى فكرة عامة.

الإلحاد الصريح غير ثابت أيضاً، لأن تفسير الإلحاد يحتاج إلى أن يعلن الملحد إلحاده. الإلحاد، بمعنى آخر، يعمل بشكل أفضل كرؤية شاملة للكون والحياة الإنسانية، أو كفلسفة تستعصى على التحديد. لا يؤمن الملحدون بوجود الله، ويعارضون بصفة عامة الأديان التى تنشأ من الرغبة فى العبادة. أشياء كثيرة تثير الإعجاب بالناس الراغبين فى مناقشة الدينىّ والمقدّس، والذين يفترض أنهما محصنّان من الاستهزاء أو الإهانة، وهو مبدأ غير ملائم، يسوّغ يبرّر إعادة النظر فى الأمر. المشكلة هى أن الإلحاد فى حالات معينة يتبنّى الأسلوب نفسه الذى ينتقده عن استحقاق فى الدين.

لا يحتاج الإلحاد إلى أن يوصف على أنه كفر فقط. إنه إيمان بعدم وجود الله، على الرغم من صعوبة التعبير عن الإيمان بنقيضه. بالإضافة إلى المسألة الأساسية حول الله، مع ذلك، يلتزم الملحدون بصور مختلفة من الإيمان، بعضها لاهوتىّ وجميعها سياسى. أولئك الذين لا يؤمنون بوجود الله متنوعون بشكل ملحوظ فى الرؤية الشاملة للكون والحياة، أخلاقيًا وفلسفياً. إنهم ينبغى ألاّ يتحولوا إلى مجرد نزّاعين إلى الشك .

إن هدفى فى هذا المقال ليس استقراء صحة أو خطأ افتراض أنه لا يوجد إله. بمعنى، أننى لا أهتم بذلك كثيرًا. الإيمان أو الكفر بالله شأن شخصى – على

الأقل ينبغى أن يكون كذلك. بالنسبة لى، على أية حال، هو شأن شخصى، وهو مسألة لا أجدها ذات أهمية معيّنة فيما يخص التفكير فى دقائق الكون. دعونى أصوغها هكذا : إذا استطعنا فى هذه اللحظة إثبات أو نفى وجود الله (ونحن لا نستطيع ولن نستطيع أبدًا)، فإننى سأفشل فى رؤية كيف ستكون حالة العالم الراهنة قد تغيرت إلى الأبد. سيظل الناس جوعى، لأن الإله الموجود أو غير الموجود، من حسن الحظ، ليس لديه النية فى مشاركتهم ثروتهم المتفاوتة. سيظل الناس يشنّون الحروب لأنه فى النهاية سيمكن للإله أن يبرر حربًا أو يحرّكها، ولكن بعض الحروب تُشنّ فى الواقع بسبب آلهة متنافسة - إنها تُشنّ بسبب الأرض، والسلطة، والموارد وأشياء أخرى من جشع الطبقة العليا. بدون الإله، سيكون الناس حمقى تمامًا مثلما يدّعى الملحدون أن الدين يصنعنا.

الكثير من الملحدين يعتبرون الإيمان بالله مسئولاً عن خلق الأوضاع التى تمكّن أو تنشئ الأعمال الوحشية - مثل نزع الملكية والإبادة الجماعية. إنهم على حقّ إلى حد ما، ولكن ليسوا على حقّ تمامًا لأنهم متفائلون أكثر من اللازم. فى الواقع، إن لم يكن الله موجودًا لتبرير المشاركة البشرية فى الظلم، فإن الناس لن يضيّعوا وقتًا حتى يجدوا البديل المناسب.

بافتراض عدم اهتمامى بالمسألة الأساسية حول الله، أنا لا أريد أن أدخل فى مناقشة لاهوتية أو فلسفية حول الله، كحقيقة مادية أو كتجريد ميتافيزيقى. أنا لست مؤهلاً لهذا النوع من المناقشة ولست مهتمًا به على حد سواء. إننى مهتم أكثر بالمعانى الثقافية بالزيادة المفاجئة التى حدثت مؤخرًا للإعلانات الإلحادية، التى شابهت الكتاب فى طولها، خاصة فيما يتعلق ببعض القضايا الملحة الأخرى فى الولايات المتحدة. نحن نرى الآن ما يمكن تسميته حركة إلحادية. فى أى أحوال نشأت هذه الحركة؟ وما الشىء، كما هو مصوّر عن طريق أحدث الكتب التى تلقى الضوء على الإلحاد، الذى تنشغل به الحركة الإلحادية اليوم أخلاقيًا وسياسيًا؟

إننى أتأمل بشكل خاص فى ثلاثة كتب: كتاب "سام هاريس": "رسالة إلى أمة مسيحية"، وكتاب "ريتشارد داوكينز": "وهم الإله"، وكتاب "كريستوفر هيتشينز": "الربّ ليس عظيماً". جميع الكتب الثلاثة فى قائمة الكتب الأكثر مبيعاً، وتم تأليفها بواسطة أناس مشهورين فى مجالات أخرى - بمعنى، بواسطة أناس مؤهلاتهم الفكرية شاملة ومتنوعة. لا أحد من هؤلاء المؤلفين هاوٍ أو كاتبٌ مثير للجدل. جميعهم، على أية، برعوا فى تأليف كتب قذرة ومثيرة للاشمئزاز .

هذه الكتب، التى لا تظهر بوضوح الحركة الإلحادية الجديدة ولكن تمثّلها بالتأكيد، هى سمات رديئة لعصرها. إذا كان الدين، كما يزعم المؤلفون، قد أدخل إلى العالم اللاعقلانية والتعصّب الكاملين، عندئذ يثبت المؤلفون ذلك دون قصد بقيامهم بهذا الزعم. إنهم يستخدمون فن الخطابة بدقة لضرب أمثلة لما يدينونه. (هاريس: "هناك ملايين - وربما عشرات الملايين - من المسلمين الذين يرغبون فى أن يموتوا قبل لأن يسمحوا لك بتفسير رغبتك فى أن تحصل على موطئ قدم فى الجزيرة العربية" (٨٨)، "فى كل مكان من أوروبا المجتمعات الإسلامية، غالبًا ما تبدى ميلاً لاكتساب القيم الدنيوية والمدنية للدول المستضيفة لها، وعلاوة على ذلك يستغلون هذه القيم إلى أقصى حد، طالبين التسامح مع كراهيتهم للنساء، ومعاداتهم للسامية، وكراهيتهم الدينية التى يدعون لها فى مساجدهم" (٨٤)، "المشكلة فى الدين - كما فى النازية والستالينية أو أى أساطير شمولية - هى مشكلة العقيدة نفسها" (٤٣). "القيمة الحقيقية الوحيدة لكتب" رسالة إلى أمة مسيحية " و"وهم الإله"، و"الرب ليس عظيماً" هى تفسيرها المتعصّب لكيف أن كونك متديّنًا يكون أحيانًا لا صلة له بالدين. إنها تفسر أيضًا حقيقة أن التزمّت غير منفصل عن الإخلاص، أو أن الإخلاص ليس مقصورًا على الانتماءات الدينية.

إننى مؤيّد بشدة للانتقادات المثمرة ضد الغشّ الدينى، والذى يتوافر منه الكثير حول العالم، هذا التوافر المؤسف هو الخاصيّة العالمية الحقيقية الوحيدة للدين. الدين المنظّم ينتج أو يكون متورطًا فى جميع أنواع الأشياء المرعبة،

ويشارك بنصيبه العادل من البلاهة فى العالم، ولكننى أجد أنه بالمثل من البلاهة أن نهاجم الدين بتكرار نزعاته الاستبداديّة. أعظم فائدة لانتقاد الدين ليست الجرأة بإنكار وجود الإله، ولكن مدلول تجنب الإذعان والانقياد، ونشر مبادئ الاستقلال التحليلى. إن تحدّى الدين مفيد على الأكثر عندما يشجعنا على أن نفكّر من أجل أنفسنا، بدلاً من تكرار ما تقرر سلطة النصوص أن نفكر فيه، إن تجنب التكرار هذا يجعلنا عرضة للاستخدام بشكل أقل كعوامل اجتماعية وسياسية. معتمدين على وقاحته الخطابية، يبدو أن "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" يريدون أن يستبدلون بالدين تنويرَهم العقليَّ الخاص، وهو بديل غير معلن لكنه واضح، للسلطة.

يفاخر "داوكينز"، على سبيل المثال، قائلاً: "أن تكون ملحدًا فهذا شىء لا يعتذر عنه". على العكس، إنه شىء يجلب الفخر به، والوقوف عاليًا لمطاولة الأفق البعيد، لأن الإلحاد يدل تقريبًا على استقلال سليم للعقل، وعلى عقل سليم فى الواقع" (٣). يختار "هيتشينز" هذا الرأى موضحًا "نحن الملحدين لا نحتاج إلى أى قساوسة، أو أى سلطة كهنوتية علينا لتحرس عقيدتنا". القرابين والطقوس مكروهة عندنا، مثلها مثل الخرائب المقدسة وعبادة أى صور أو أى شىء من الأشياء (حتى لو شملت ما كان فى شكل أكثر اختراعات الإنسان فائدة : الكتاب المجلّد) (٦). يتحدث "هاريس" مباشرة إلى قارئه المفترض: "أود أن أقر بأنه يوجد العديد من النقاط التى نتفق عليها أنت وأنا. نحن نتفق، على سبيل المثال، على أنه إذا كان أحدنا مصيباً، فالثانى مخطئ" (٣).

هذه الآراء متعالية وسطحية بشكل نمطى. فهى تمثل موضوعًا شائعًا فى الكتب الثلاثة : الملحدون أكثر ذكاء وأكثر صحة وأكثر تكيّفًا من المتدينين. إلا أن هذه النقطة نوقشت بطريقة سيئة للغاية لدرجة أن حمقى المتدينين يمكنهم أن يكشفوا سفاهتها. افتراض أن الملحدين غالبًا ما يكونون أكثر سلامة من الناحية العقلية، يمكن إقامة الدليل عليه تمامًا مثل فكرة أن التعليم يجعل الناس أفضل من الناحية الأخلاقية. بالنسبة لـ" هيتشينز"، فإنه لم يفعل أكثر من تقديم عرض للقضية دون

استنتاج منطقي. إننى مسيحى أرثوذكسى، ثقافيًا على الأقل. لا أريد من أى شخص أن يحرس عقيدتى، أيضاً. ولا هى قضية أن القرابين والطقوس تؤدّىَ بالضرورة عبادة للرب. معظم الطقوس، أودّ أن أخمّن، تؤدّى لهدف ما آخر. من الصعب الردّ بجدية على فقرة "هاريس". فهو يستخدم كتابه كلّه محاولاً أن يبرهن بحماس أن افتراضه صحيح تماماً، ولكن مع ذلك كان لديه الأريحيّة بأن يعرض خيارين: أن توافقه على كل شيء يقوله، وإلاَّ تكون مخطئاً. ربما كان "داوكينز" واضعًا "هاريس" فى حسبانه دون وعى منه عندما جاء بعبارة "وهم الإله".

إننى لست مهتمًا بالرد على الملحدين الجدد بمجرد الطعن فى دوافعهم، لأنهم انكشفوا من خلال بدائل خطابية عديدة. قد يكون أكثر إفادة أن يتم التأريخ لهذا الإلحاد الجديد. إنها ليست مصادفة، على سبيل المثال، أن ظهور الإلحاد فى السوق الأدبى والفكرى يأتى فى فترة إسلاموفوبيا صريحة فى الغرب. إن "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" يقدحون فى جميع الأديان: إنهم ثابتون فى اعتقادهم بأن الدين، بحكم طبيعة الحال، يحتمل النقاش والجدل ومن الأفضل إبطاله. وقد أثرت الإسلاموفوبيا، على كل حال، فى السوق بما جعل كتبهم تصبح الأكثر مبيعاً. وإنه بمناسبة الإسلاموفوبيا أصبح الإلحاد أكثر إغراءً وإقناعاً.

المؤلفون ليسو محايدين تمامًا فى إدانتهم للدين، فهم يستشهدون بالإسلام فى اللحظات التى يُفترض أن تكون مهمة خطابياً. فقد ركّز "هيتشينز"، مشهّرًا، على ما اعتبره تخلفًا إسلامياً، وفى كتاب "وهم الإله" يقول "داوكينز": "أحد أكثر المناظر تعاسة، والتى يمكن أن نراها فى شوارعنا اليوم، هو صورة امرأة متشحة بالسواد الذى لا ملامح له من الرأس إلى أصابع القدمين، وهى تنظر إلى الدنيا من خلال فتحة صغيرة جداً. إن البرقع ليس مجرد أداة اضطهاد للنساء وقمع دينى لحريتهن وجمالهن، وليس مجرد رمز للقسوة الذكورية الفظيعة والخضوع الأنثوى المذعور بشكل مأساوى" (٣٦٢). فتحة البرقع التى يستمر "داوكينز" فى التنظير لها هى الرمز الاستعارى للحرية التى يبشّر بها الإلحاد. "هاريس"، من ناحيته، يصف الإسلام بأنه الدين "الأكثر حدّة".

قد يكون ليس من العدل أن نحاول إثبات أن الحركة الإلحادية الجديدة هى منتج جانبى للإسلاموفوبيا، لكن الإسلاموفوبيا توفر الكثير من الأرضية المضمونة للكتب وللثقافة الى تستجيب لهذه الكتب. الإلحاد الجديد إذن معتمد جزئيًا على الإسلاموفوبيا، التى تنشأ فى الأصل من ثنائية استعمارية للحداثة وما قبل الحداثة، وهى بنية زمنية يكررها كل من "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" من أجل جعل الإلحاد متحضرًا بشكل قياسى. يصبح الإسلام هو الآخر النموذجى فى مقابل الإلحاد. إذا حدث وحوّل أى شىء الغربيين عن الثقة فى الدين، فسيكون الإسلام الغريب والعنيف المقدّم لهم باستمرار فى التحليل الثقافى والجيوسياسى، وهى ملاحظة يحاول "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" إثباتها ثم استغلالها بعد ذلك.

إليكم هذا المثال من "هاريس"، الذى يشرح قيمة الإسلاموفوبيا لقارئه المسيحى المفترض:

لماذا لا تنزعج كثيرًا حول ما إذا كنت ستؤمن بالإسلام أم لا؟ هل يمكنك أن تثبت أن الله ليس هو الإله الحقيقى الواحد؟ هل يمكنك أن تثبت أن رئيس الملائكة جبريل لم يزر محمدًا فى كهفه؟ بالطبع لا. لكنك لن تحتاج إلى أن تثبت أيًا من هذه الأمور، كى ترفض معتقدات المسلمين على أنها منافية للعقل. إن عليهم عبء إثبات أن معتقداتهم حول الله ومحمد صحيحة. لم يفعلوا ذلك. ولا يمكنهم فعل ذلك. إن المسلمين ببساطة لا يقدمون مزاعم حول حقيقة يمكن إثباتها. هذا واضح تمامًا لأى واحد لم يخدّر نفسه بعقيدة الإسلام .

الحقيقة هى، أنت تعرف بالضبط ما ستكون عليه بكونك ملحدًا فيما يخص معتقدات المسلمين. أليس من الواضح أن المسلمين يخدعون أنفسهم؟ أليس من الواضح أن أى واحد يعتقد أن القرآن هو الكلمة المثالية لخالق الكون، لم يقرأ الكتاب بشكل نقدى؟ أليس من الواضح أن تعاليم الإسلام تمثل مانعًا شبه كامل أمام البحث النزيه؟ نعم، هذه الأمور واضحة. (٧)

تماشيًا مع الموضوع: الإلحاد الجديد، كما يقدمه مفكروه البارزون، ينتمى إلى عالم الغطرسة الذكورية البيضاء. نموذج الإلحاد الذى يشجعه "هاريس"

و"داوكينز" و"هيتشينز"، معتدٌ بنفسه وأوربى النزعة بشكل واضح. (يريد "داوكينز" أن يُطلق على الملحدين "أذكياء"، وهى فكرة يعترف "هيتشينز" بأنها مغرورة). إن منطق إلحادهم هو بشكل أساسى عبارة عن مبادئ تنويرية مستعادة، تم إعدادها للنماذج المعاصرة فى مواجهة الظروف الجيوسياسية الحديثة. لا أحد من الكتّاب يستكشف بصورة جيدة أصالة الإلحاد التاريخية الخاصة، مما يؤدى إلى فراغ منهجى فاضح. المنهجية التى يستخدمونها فى الواقع ساذجة بشكل واضح وتتجاهل وفرة التحليل الفلسفى للدين، الناشئ من مجتمعات شرقية وأصلية مستعمرة سابقاً. فى غياب التدقيق الكافى فى هذه المصادر والتراثات، يظهر "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" واحدًا من أخطائهم الخطابية الرئيسية : الثقة المفرطة فى صحة قوميّة التنوير الغربىّ. (هناك استطلاع أكثر إقناعًا حول السياسة والدين يمكن أن تجده فى كتاب "ديفيد هارست توماس " حروب العقل").

ليست مفاجأة، أن الإلحاد فى هذا الإطار غالبًا ما يقوم مقام العنصرية الضمنيّة - أو على الأقل، تلحق العنصرية نفسها ضمنيًا بأداة فكرية متيّمة بمعتقداتها الموضوعية المفترضة. الهدف هو أن سَبْقَ "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" يعتمد على الأفضلية التى لا تنازع للعلم الغربى وتنزهه الأخلاقى المزعوم عن أى خطأ. الكتّاب الثلاثة جميعهم يسردون بابتهاج تورط الدين فى الظلم، لكنهم يتجاهلون آثام العلم الغربى التى تشمل المشاركة فى هولوكوست النازية وتبرير استعباد البشر طبقًا لشكل الجمجمة، وقرونًا من الاضطهاد للهنود الحمر. العلم الغربى، وليس الدين، اخترع وأباح العنصرية الحديثة، رغم أن الدين متورط بعمق. يسقط المؤلفون الطرق التقليدية للمعرفة من الاعتبار - التى تميل لأن تكون "دينية" بشكل مجرد، مع أنها ليست كذلك تمامًا فى الاستخدام الغربى - باعتبارها خرافة عديمة الجدوى. إنهم يردّون التاريخ الحافل للاهوت الإسلامى إلى عالم المجانين. إنهم يرفضون بتعالٍ العلاقة المتبادلة والمعقدة للرقابة الدينية مع الفقر والظلم. هناك ما يزيد عن ستة ملايين من الشعوب ذات الدين فى العالم، كل

من هذه الشعوب له علاقة فريدة بإله أو مجموعة من الآلهة، وكل منها يلتزم بمستوى مختلف من العبادة. وطبقًا ل– "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز"، مع ذلك، جميع الشعوب ذات الدين متماثلة بشكل أساسى. لا يُحتمل أن يكون كتاب مقدس مسببًا لهذا الاختزال .

بإمكان المرء، إلى حد ما، أن يتخيّل كل مؤلّف وهو يتأمل فوق سحابة من المغالاة المخملية، واضعًا سبّابته تحت ذقنه، وتجاعيد عمودية تفصل بين حاجبيه المغضّنين، مرتديًا الأثواب البيضاء الفخمة للكمال الفكرى، واضعًا اللمسات الأخيرة على بحثه العلمى العظيم : العلم الغربى، الصالح. الدين، الفاسد .

كل مؤلف متأكد من أن العلم هو عملية تغوّط مجازى لا تصدر نتنًا. لكن لنكن صرحاء: لقد أكد العلم فقط كثيرًا مما قاله القرآن سابقًا حول سير العالم الطبيعى، وفى أمريكا الشمالية كان العلم متأخرًا عدّة آلاف من السنين عمّا عرفه السكان الأصليين بالفعل، من خلال منظومات دينية، حول تشريح جسم الإنسان ونظم الحفاظ على البيئة المحلية. كيف يتصرّف العلم فيما يخص البيئة هذه الأيام، بالمناسبة؟

هناك ما لا يحصى من الأشياء الجيدة يمكن أن تقال عن العلم، فبه نكتشف جميع أنواع الحلول المهمة للمشاكل الخطيرة. المجتمع الذى يعلى قيمة الدين والعقيدة فوق العلم هو مجتمع متّجه إلى أن يصبح قمعيًا. الدين لا يجب أن يصنع سياسة، العلم الجيد هو الذى يجب أن يفعل ذلك. إن هدفى هو ألا يحطّ أحد من قدر العلم. هدفى هو أنه بإمكان المرء اختزال العلم بالضبط إلى ما يختزل "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" الدين إليه، باستخدام المنهجية نفسها. من هنا فإن الشىء الأكثر إثارة للاعتراض فيما يتعلّق بمنهجياتهم هو حقيقة أنهم ينتقون الدليل انتقاءً ليدعموا فرضيّة اختزالية متوحشة. الجانب الأكثر إزعاجًا فى هذه الفرضيّة هو استخدامها لخطابات عقائدية وعنصرية تجعل الأداة الفلسفية للإلحاد ذات حدود مشتركة مع مقوّمات الدين، التى تعارضه بتعصّب شديد.

لا توجد سابقة على الإطلاق ترى أن الانصراف عن الدين وإخلاص الولاء للعلم سوف يجعل الناس غير ميّالين مرة أخرى لارتكاب الظلم أو التصرف بلاعقلانية. "هيتشينز" المؤيد للحرب بتعصب، والذى يستمر فى الدفاع عن الغزو الأمريكى المشئوم للعراق، هو دليل واضح على هذه الحقيقة. وإذا كان الإلحاد يجعل الناس أكثر عقلانية، إذن فكيف يمكن أن يكون "هيتشينز" أحد المتحدثين الرسميين باسمه؟ إن مواقفه السياسية تقوّض صميم فرضيّته حول الدين.

هناك الكثير من الأدلة، فى الواقع، تبيّن أن الارتباط بمعتقدات السكان الأصليين التراثية ينتج فى الغالب إنسانًا أكثر تحملاً للمسئولية. إنها تشير، على أية حال، إلى أن بعضًا من أبغض أنظمة الحكم فى العالم أصبحت علمانية اسمًا (إن لم تكن لا دينية بالكامل): بريطانيا فى فترة الإمبراطورية، وإسرائيل، وفرنسا الاستعمارية، وألمانيا النازية، وأمريكا الاتحادية.

ملمح مزعج آخر فى هذا الإلحاد الجديد موجود فى كتاب "وهم الإله". يتساءل "داوكينز" لماذا لدى الملحدين هذا العدد الضخم والتأثير السياسى الضعيف جداً: "إن وضع الملحدين فى أمريكا اليوم مساوٍ لوضع المثليين منذ خمسين عاماً" (٤). وهو يستنتج أنه بسبب أن الملحدين مستقلون فكريًا جدًا ومتمردون، من الصعب تنظيمهم: "فى الواقع، أصبح تنظيم الملحدين شبيها بِرَعْيِ قطيع من القطط، لأنهم يميلون إلى التفكير باستقلالية ولن يتوافقوا مع السلطة" (٤). أود أن أبيّن أن رَعْيَ قطيع الملحدين صعب لأن الإلحاد لا يكيّف نفسه مع نوع التنظيم السياسى الذى يتصوّره "داوكينز". إنه يريد من الملحدين أن يتجمعوا ككتلة سياسية إلى جانب مجموعة من المصالح، ولكن فى اللحظة التى قدم فيها هذا الاقتراح كان الإلحاد قد أصبح من الصعب تمييزه عن الجماعات البروتستانتية واليهودية على هضبة مبنى "الكابيتول". لقد أصبح جماعة دبّر الإله دخولها فى الحراك السياسى. إن نسخة " داوكينز " من الإلحاد هى مجرد دين آخر.

في موضوع واحد يبشّر "دواكينز" بمعتقده الجديد، دون لمحة سخرية: "إذا عمل هذا الكتاب كما أقصد، فالقراء المتدينون الذين يفتحونه سيكوُنون ملحدين حالما ينتهون من قراءته" (٥).

في مقدمة كتاب "الرب ليس عظيماً"، يوضح "هيتشينز" أن أحد الاعتراضات الإلحادية الأربعة الرئيسية على الدين هو أنه "يتمكن من الربط بين أعلى درجات الخنوع وأعلى درجات حب النفس" (٤). أنا أتفق مع جوهر رأى "هيتشينز". يجب أن نهاجم أى شيء يشجع على الخمول أو اللامبالاة في الناس، وغالبًا ما يكون الدين مدانًا بتشجيعه كليهما. (بترك الأمور "في يدى الإله"، على سبيل المثال، يمكن للمؤمنين أن يبادروا إلى إلغاء جميع أنواع الظلم التى تعتبر قابلة للتصحيح البشرى). ومع ذلك، لا أفهم كيف يمكن للمرء أن يبدّل الدين بالإلحاد على أنه علاج قابل للتطبيق. جميع المؤسسات العلمانية تدفع إلى الخمول واللامبالاة السياسية: وسائل الإعلام المشتركة، التعليم الثانوى وما بعد الثانوى، الترفيه، الرياضة، وطبقًا لزميل "هيتشينز" المشوّش "ريتشارد داوكينز"، الإلحاد. مشكلة الالتزام ليست دينية محضة بشكل كامل، إنها مشكلة شاملة تتطلب اهتمامًا جادًا أكثر بكثير مما يخصصه لها "هيتشينز".

مشكلة أخيرة للإلحاد مسلط عليها الضوء في كتاب "رسالة إلى أمة مسيحية". في بداية الكتاب، يلاحظ "هاريس": "رغم أن الليبراليين [المسيحيين] والاعتداليين لا ينقضّون بالطائرات على المبانى أو يؤسسون حياتهم على نبوّة خاصة بسِفْرِ الرؤيا، فإنهم من النادر أن يسألوا عن مشروعيّة تربية طفلة على أن تؤمن بأنها مسيحية أو مسلمة أو يهودية" (ix). إن "هاريس" مهموم بالتربية، مكررًا هذا الاحتجاج في نهاية الكتاب: "فقط [بعد اكتشاف طبيعة الواقع] عادةُ تربية أطفالنا على أن يؤمنوا بأنهم مسيحيون، أو مسلمون أو يهود، ستُدرك بشكل عام على أنها قذارة سخيفة" (٨٨). هنا يجعل "هاريس" الدين مرتبطًا بالكتب المقدسة بشكل

حصرى، وهو فهم ضيق بشكل عجيب للمسيحية والإسلام واليهودية، وللدين عموماً. إنه يتجاهل الدين كأداة ثقافية، لا يمكن ببساطة تجاهلها أو التغلب عليها.

هناك الكثير من اليهود لم يضعوا قدمًا أبدًا فى المعبد لكنهم فخورون بكونهم يهودًا ثقافياً. أن نطلب من الآباء اليهود ألا يربّوا أطفالهم على أنهم يهود مثلما أن نطلب من الآباء الأمريكيين الأفارقة ألاّ يربّوا أطفالهم سوداً. إننى مسيحى أصلىّ بالثقافة، وحتى لو لم أرسل أطفالى إلى الكنيسة، فإننى سوف أشرح لهم ما يعنيه أن يكون لديهم صلة بمحدّد الهوية هذا. إنه هو الذى سيربطهم بثقافة أجدادهم ويصنع علاقات بأولئك الذين سبقوهم. البيض المتعصبون لأوروبا والأوروبيين مثل "هاريس" ليس لديهم أبسط فهم لما يعنيه أن تنتمى إلى شىء ذا معنى جماعى وجميل ثقافياً، شىء ما يسخّر نفسه للرؤية الشامة للعالم والحياة الإنسانية ولغة الجماعة، للصوت والعلاقة، لجوهر من نحن فى أبسط حالاتنا وأعقدها، شىء ما لا يمكن سوى أن يُجَرَّب لأنه لا يمكن وصفه بدقة إذا فصل عن ممارسته اليومية. إننى أتحدث عن حيوية وبراعة تاريخ جماعى مشترك يجعلنى كل شىء أكونه أو أريد أن أكونه. كل الناس المتأصّلين فى التواريخ القديمة الحقيقية غير الغربية يعرفون بالضبط ما أقصده، قليل منهم قد يحلم بمقايضة" من يكونون هم " بأى شىء سمج ومتعصّب كالإلحاد الغربى. يعتمد "هاريس" على منطق فاتر، فى غياب الوجود الوجدانى المفعم بالعاطفة. إذا زعم "هاريس" فيما عدا ذلك وجودًا عاديًا مألوفًا ونشطاً، فإنه يفشل فى توضيحه فى أى مكان من كتابه .

وينظر "هاريس" كذلك إلى التعليم الدينى بسطحية. التعليم الدينى، على سبيل المثال، هو حجر الزاوية لثقافات السكان الأصليين، الظاهرة الحقيقية التى تجعلهم متميزين. مطلب عن ثقافاتهم، وهو شىء يفعله "هاريس" بالإصرار على أن الناس يهجرون جميع أشكال الدين والعبادة، قد ثبت مرة بعد أخرى أنه فكرة مفزعة، فكرة أقرّ جميع الباحثين وصناع السياسة تقريبًا بأنها غير أخلاقية إلى حدّ بعيد. ولا أحد يمكنه بحق أن يلقى بتبعة شرور العالم على الشعوب الأصلية. إذا حدث ونجح

"هاريس" فى أن يحوّل الهنود الحمر إلى ملحدين عاديين، فإنهم سيزولون سريعًا بعد ذلك. يؤيد "هاريس" بشكل أساسى التطهير العرقى التطوعى ضد أولئك الذين لديهم ممارسة الدين شيءٌ غير منفصل عن إنسانيتهم .

إن عرض "هاريس" للإلحاد مبتذل بشكل كامل، ولكن ليست هذه مشكلته الأكبر، فالطريقة التى يريد بها "هاريس" للإلحاد أن يُمَارس، صارخة بشكل ضمنىّ.

يعانى "داوكينز" و"هيتشينز" من الضمور الأخلاقى نفسه. إذا حدث ومارسنا الإلحاد طبقًا لمخططهم (وهم لا يتركون لنا خيارًا آخر)، عندئذ سنصبح جميعًا أشخاصًا بيضًا مفعمين بالغرور، مع شعور متطرف بالامتياز، ينتحبون على التمييز الذى نعانى منه. أما إذا احتفظنا بهويّاتنا الخاصة كبشر متدينين أو روحانيين، إلى أى درجة، فسنكون مخطئين. جميعنا. لأن الدين، بالطبع، جامد وقطعىّ.

رغم أن "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" فشلوا إلى أبعد حد فى محاولاتهم، فقد يكون مفيدًا لشخص ما أن يكتب كتابًا معاصرًا رصينًا عن الإلحاد. على أية حال، فأنا لست متأكدًا تمامًا أنها فكرة جيدة. كلما أصبح الإلحاد قائمًا أكثر على النصوص كلما تشابه أكثر مع الدين. إن تفرّده وقيمته تكمن فى الغياب الطبيعى لانتظامه، وليس فى قابليته لأن يقدم بشكل متماسك. عدم الإيمان بالإله قضية معقولة تماماً، وبإمكان المرء أن يتبنى هذه القضية من أجل حياة سعيدة ومثمرة. لكن المشكلة ليست الإله ذاته، المشكلة فى جعل الإله ماثلاً فى منظومات دينية ونصوصية واجتماعية وسياسية. إذا جعلنا عدم وجود الإله حاضرًا فى تلك الأنظمة، عندئذ سوف لا نتجنب مشكلة الدين، بل سنوجدها ثانية.

يمثل "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" نسخًا قليلة من الإلحاد، وليس الإلحاد نفسه، الذى هو مفيد لكل من الملحدين والمؤمنين معاً. فى النهاية فإن كتبهم تشتمل على مجادلات مقبضة للنفس موجهة من خلال خطابة مضللة. إذا كان المنطق

الذى يعرضونه ينتظرننا، إذن، فأنا لست آملاً للغاية فى ذلك اليوم المجيد عندما يُظن أن الدين أصبح مهجوراً، ومستبدلاً بأشياء تدعى أنها أكثر عقلانية وعاطفة. إن مسألة وجود أو عدم وجود الإله، لا تهم كثيرًا الآن، لأنه، كما أوضح "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز"، فى عالم بدون الإله، ستظل البلاهة حيّة وبخير.

خاتمة

إننا نعيش فى عالم فيه يمكن لواحدة متزيّنة من المؤيدات لحقوق المرأة، من اليسار الأمريكى، أن تصور " المقاومة العراقية " - كما لو أنها شىء واحد - على أنها مجموعة لا تتغيرمن المجرمين المتوحشين. إنها تصف المقاومة العراقية بصفة المفرد لأن استعمالها للألفاظ يجعلها ذات ارتباط بجميع أفراد الشعب العراقى. ردًا على رأى من "ألكساندر كوكبيرن" بأن التقدميين يبدون تضامنًا أكثر مع المقاومة العراقية، تتساءل هذه المؤلفة الحكيمة، "مع من، بالضبط، يظن أننا نبدى التضامن؟ القاعدة فى العراق؟ الشيعة الذين يذبحون جيرانهم السنة؟ السنة الذين يقتلون الشيعة؟ الرجعيون المتدينون الذين يغتالون الأطباء وأساتذة الجامعات والنساء العاملات والمسيحيين والطلاب والأزواج المسكين بأيدى بعضهم البعض؟"

إن سخريتّها تعمل فقط على دعم الحقيقة القائلة بأن بعض الأمريكيين البيض، بما فيهم عضوات الحركة النسائية الليبراليات، لديهم وقت جهنمى يتماثلون فيه مع العرب، أو يحددونهم على أنهم بشر: "إذن، حسناً، اعتبرونى جاهلة: المقاومة العراقية غير مُسيطر عليها من قبل الثيوقراطيين والقوميين العرقيين والبعثيين المتعصبين والجهاديين والمختطفين وقاطعى الرؤوس والسفّاحين؟"

بطريقة غير مبررة، المسيحيون المصوّرون بطريقة رومانسية أسهل فى معرفة أحوالهم: "أعضاء الساندنيستا" [نيكاراجوا] (١) و"جبهة FMLN" (٢) [السلفادورية] كانوا بعيدين عن اليسارية الكاملة لكنهم كانوا يساريين. كانوا مؤيدين للرعاية الصحية والتعليم وتوزيع الأراضى والتحديث - ليس إحراق مستودعات

---

(١) جبهة ساندنيستا للتحرر الوطنى هى حزب شيوعى سياسى فى نيكاراجوا، تألفت من مجموعة عسكريين وسياسيين حكموا نيكارجوا من ١٩٧٩ إلى ١٩٩٠. (المترجم)

(٢) جبهة هذه الجبهة الآن عبارة عن حزب سياسى شيوعى منذ ١٩٩٢، لكنها تأسست سنة ١٩٨٠ متألفة من مجموعة منظمات عسكرية يسلرية (المترجم)

الخمور ومحلات بيع أشرطة الموسيقى وجلد النساء السافرات والتفجيرات الانتحارية ضد المدنيين العاديين وإعادة تطبيق الشريعة الإسلامية". فى الواقع، يوضح هذا التباين لماذا كان الليبراليون يوفرون وجبات غداء أو عشاء دعمًا لأعضاء الساندنيستا وجبهة FMLN. "إذا قاوم الثوريون فى أمريكا الوسطى التدخل الأمريكى باسم محاكم التفتيش الإسبانية وقضوا كثيرًا من الوقت فى تطهير جيرانهم عرقيًا، فإنه من المحتمل أن اليساريين الأمريكيين لن يكونوا عندئذ متلهفين جدًا لتقديم وجبات غداء أو عشاء دعمًا لهم".

بهذه القطعة، نقلت "كاثا بوليت" نفسها إلى نوع من الكتّاب يُفترض أنها تمقته. إنها بالنسبة للعرب مثلما "رش ليمبو" [1] بالنسبة للنساء: إنها تطلق أحكامًا عامة بأسلوب متأنّق ومتلطّف، وخطابها يظهر بوضوح نوع اليقين الذى لا يمكن أن يصنعه سوى الخطأ. النسويّة، هوية "بوليت" الخطابية، هى حركة من أجل العدل، لأنها تعيّن حدود العدل بتغذية النسويّة بالعنصرية، حوّلت "بوليت" نسويّتها إلى نفاق بكل معنى الكلمة. رغم ذلك، تفقد "بوليت" هدفها الخاص وهو : أننا يجب أن نبدى تضامننا مع "الأطباء وأساتذة الجامعات والنساء العاملات والمسيحيين والطلاب والأزواج الممسكين بأيدى بعضهم البعض" – بمعنى آخر، العراقيين. إنها تجعل الأمر يبدو كما لو أن التطابق مع المقاومة العراقية يقيدنا بالقاعدة والمهيّجين الطائفيين، إلا أن هناك الملايين من العراقيين التقدميين والعاديين يقاومون بطرق إبداعية. ولكن "بوليت" تحول جميع العراقيين التعساء بالاحتلال العسكرى إلى إرهابيين وسفاحين.

الأمر بكامله يجعلنى أشعر بأننى همجىّ. وأن أصبح همجيًا هو ما يحدث فى الولايات المتحدة إذا أصرّ المرء على أن العرب ليسوا متوحشين. فالعرب يُفترض أن يكونوا ما يريد اليسارُ الأبيض أن نكونه. لا يهم إذا كان اليسار الأبيض لا يعرف شيئًا عنّا. إنه يعرف ما فيه الكفاية بأن عرف أن العالم الصالح لا يمكن أن

---

(١) مؤلف ومعلق سياسى أمريكى، ذو خلفية سياسية جمهورية (١٩٥١ـــ ..). (المترجم)

يوجد سوى فى تصوّره الخاص، ولذلك فإن معرفة النفس تبطل المعرفة المتعددة ثقافيًا أو الشاملة. ومعرفة النفس، بالطبع، ترسل مباشرة من السماء (الدنيوية، بغزارة).

إننا نعيش فى عالم فيه الكثير من الرؤى المغلوطة. اليوم، مع ذلك، التحدى الذى نواجهه والأكثر إثارة للحيرة، هو تطوير حوار جماعى مثمر. من السهل أن نصل إلى هذه النتيجة إذا أثبت المرء هويته كعربى، لأنه توجد فضاءات قليلة لدى اليسار أو اليمين فى الولايات المتحدة تُتبنى فيها وجهات نظرنا المتنوعة بشكل جدى، وبترحيب أقل. إننا نأمل أن حوارًا مثمرًا - إضافة صفة "مثمر" يدل على أننا بالفعل سيتم الاستماع إلينا - يمكنه أن يبدأ عملية تجمع معًا حول ثقافات مختلفة، مبنيًا على افتراض أن لا واحدة من تلك الثقافات فى حاجة لأن تكون مسيطرة أو معيارية .

أريد أن آخذ فى الاعتبار هذه الرغبة الواردة فى سياق تعليقات "بوليت"، لأن البعد الأكثر إزعاجًا فى مقالها هو اختزاله لجميع العراقيين فى أسوأ عناصر المقاومة ضد الإبادة الجماعية الأمريكية. إنها تثير بصورة نمطية افتراضات عنصرية حول العنف العربى على أنه نزعة طبيعية، مكيّفةً الموضوع بإثارته من الإطار الذى يَتصوّر العرب على أنهم متخلفون بصورة لا يمكن تغييرها. تبرز "بوليت" أيضًا الوحشية العراقية، بمقارنتها بثورة أمريكا الوسطى، والتى تعتبرها أكثر أخلاقية بسبب وعيها الليبرالى. (الموقف يفترض أن موضوع الصراع بين الشعوب المضطهدة حول العالم، ينبغى أن يسعد الليبراليين، الذين من الصعب إرضاؤهم، وهو هنا يوجز مشكلة الليبراليين البيض بأكملها). بهذه الطريقة هى تبرر التعاطف الانتقائى بإدخال المعاناة البشر المعذبين إلى فئات متفاوتة أخلاقياً، أولئك الذين يحتلون المناطق العليا من السماح الليبرالى الأبيض بأن يكونوا جديرين بوجبات الغداء والعشاء دعمًا لهم.

هذا الأساس المنطقى مدلّس أخلاقيًا. وهو كذلك مغالطٌ فكريًا. قليل جدًا من اليساريين البيض، فى ذلك الوقت أو الآن، قدموا وجبات غداء أو عشاء دعمًا للفلسطينيين الذين يواجهون لزمن طويل تطهيرًا عرقيًا وحشيًا، وهو وضع على الأقل قاسٍ تمامًا مثل الثورات الشيوعية الزائفة فى أمريكا الوسطى (التى غالبًا ما تحل أنظمة سياسية مرعبة محل أنظمة سياسية مرعبة). أثناء الانتفاضة الأولى ١٩٨٧ - ١٩٩٠، على سبيل المثالى، التزم الفلسطينيون إلى حد كبير بالمقاومة السلمية. لدرجة أن مدينة "بيت صابور" رُشّحت لجائزة نوبل للسلام لعصيانها المدنى المبدع والمرن مقابل الوحشية الإسرائيلية التى شملت تكسير عظام الأطفال، وهى جائزة بلا شك يجب أن تفوز بها، وكانت ستفوز بها لو أدان الليبرالون الأمريكيون والأوربيون ما حدث. لم يتطابق الفلسطينيون مع وصف واحد من أوصاف "بوليت" للمقاومة العراقية (المختزلة كما هى)، ولذلك لا تستطيع "بوليت" أن تثير الاحتجاجات نفسها لتشرح الصمت من جانب اليسار الأمريكى فيما يتعلق ب- الفلسطينيين الذين، فى الحقيقة، من المفترض أن يكونوا المتلقين المثاليين للدعم الليبرالى الغربىّ طبقًا للمعايير التى تعلنها "بوليت". لم يقدم اليساريون البيض من قبل وجبات طعام للأكراد، الذين كانوا ضحايا للغدر العراقى العربى. إننى لا أزال أنتظر أن أدعى إلى حفل تقديم وجبات غداء أو عشاء دعمًا للضحايا اللبنانيين من جراء العدوان الإسرائيلى سنة ٢٠٠٦.

(على أية حال، وجبات الغداء أو العشاء تلك التى تقدم لصالح الحركات السياسية الأجنبية هى فى معظمها دائمًا لَهْوٌ لافائدة منه، إنها طريقة للتعبير المادى عن الرياء المغترّ بنفسه، الذى يمرّر نفسه على أنه تضامن حقيقى).

لننسَ أمر وجبات الغداء والعشاء. الحقيقة المحزنة والعادية هى أن معظم الليبراليين البيض يقضون وقتًا عصيبًا بشكل لافت للنظر، حتى يتطابقوا بإخلاص مع الحالات التى يتعاطفون معها. وهذا حقيقى خصوصًا عندما تكون هذه الحالات عربية أو إسلامية. يوضح مقال "بوليت" ما تشبهه تلك الصعوبة عندما تبدو كأنها

تحليل سياسى. إنها من الأسهل كثيرًا لها أن تختزل الأجانب إلى أفعالهم الحسية، بدلاً من أن تأخذ الوقت الذى تحتاجه من أجل أن تفهم من يكونون هم على تنوعهم وتعقيدهم.

لهذا السبب، أنا متلهّف إلى أن أجد وسائل لبدء حوار مثمر حول قضايا متنوعة فى أماكن عديدة. إننا نعيش فى عالم يمكن فيه لواحدة متزينة من دعاة حقوق المرأة من اليسار الأمريكى أن تجادل من خلال عنصرية صارخة، لأن بعض الناس يبحثون فى من يكون الآخرون، بعيدًا عن يقين المعرفة الثقافية الحتمية. فيما يتصل بالعرب، هذه المشكلة خطيرة، لأننا نوجد فى الحديث السياسى كشخصيات خيالية وليس كرُوَاة. لسنا كاملين، بل ولسنا مميزين بشكل معين. ولكننا لسنا ما أراد مَنْ هم فى اليسار واليمين على السواء أن نكونه. نحن أيضًا نستحق بصدق ميزة أن نحكى قصصنا التاريخية والثقافية بأنفسنا. لماذا لا نريد ألا نمارس هذه الميزة الأساسية؟ نحن بالتأكيد لا نريد أناسًا مثل "مايكل مور" و"كاثا بوليت" أن يسردوا هويتنا. وهؤلاء أناس من المفترض أن يكونوا فى جانب الخير والتفكير السليم.

المقصد ليس الإقناع أو الإكراه، ولكن هو أن نصل إلى الاقتناع الحقيقى الذى ينتج عن امتلاك القدرة على أن نتحدث وعلى أن يُستمع إلينا. بلغة الأهداف الواقعية، سوف نحتاج إلى إنتاج مجموعة من الافتراضات الأساسية حول العرب والمسلمين مختلفة عن الموجودة حالياً. هذا الهدف سيؤتى ثماره فقط من خلال قبول الآخرين فعلاً لأن يستمعوا ويأخذوا فى الاعتبار إمكانية أن العرب ليسوا بالضرورة هم ما قرر الآخرون فى وقت سابق من يكونون.

من فضلك اختلف معى فى الرأى، من فضلك ناقشنى، من فضلك أوضح لى أين أنا مخطئ، ولكن من فضلك لا تكن متأكدًا بشكل قاطع من البداية أننى أمثّل ثقافة أو رؤية شاملة عن العالم والحياة أدنى منزلة فى الأساس.

كل جماعة، عرقية أو سياسية، متشددة فى حقّها فى أن يُستمع إليها وتُمثّل على نحو صحيح. حسناً. هذه الرغبة معقولة كقضية أخلاقية واستراتيجية سياسية على حد سواء. لكن الرغبة تحتاج إلى أن تُعزّز: إنها تحتاج لأن تتحقق لا أن تطلب فقط. على هذه الجبهة، الليبراليون هم العدد الأكثر شعورًا بالإثم – بمعنى الأكثر نفاقاً. نظراؤهم، المحافظون الجدد، لا يتظاهرون حتى بأنهم يحبون أحدًا آخر، مما يجعلهم مكروهين ولكن غير منافقين.

الحروب الثقافية فى الأساس منتج جانبى للتطبيق الانتهازى للنفاق. نتيجتها الأولية هى إلغاء الميزات الأساسية للحوار. الحروب الهمجية، آمل أن، سوف تمكننا من التخلص من التعبيرات المبتذلة حول التسامح والتنوع والتعايش. هذه التعبيرات المبتذلة تسبّب النفاق، لأنها تؤطر التعامل بمقدمة منطقية أخلاقية زائفة. إننى أجد الأمر أكثر إمتاعًا إذا نجح تعاملنا فى أن يظل همجيًا. حتى إذا لم نجد أهدافًا عامة للحوار، على الأقل سنتواصل بصدق.

لا أمانع فى أن يُقال لى إننى مكروه بقدر ما أمانع فى أن يقال لى كذبًا إننى محبوب .

لا أحب أن يقال لى إننى مكروه، رغم ذلك. لقد كنت هدفًا للكراهية الضمنية والصريحة معاً. فى تلك الحالات التى لم أعلق فيها عليها – بمعنى، عندما كُرِهتُ ببساطة بسبب وجودى – ذلك كان يذكرنى دائمًا بشىء ما نتغاضى عنه فى أحيان كثيرة جدًا، لأن الضحايا لا يحبون أن يناقشوه والجناة يتلذذون به: العنصرية مؤلمة إلى أبعد حدّ. إنها تطرد المودّة ثم تمنعها من الرجوع. إنها تسبب الشك والقسوة. وتنشأ اجتهادات النظريات المعرفية من وجودها. ويحدث أن العلاقات الدولية تعتمد عليها. وما إن تنتشر العنصرية فإنه من المستحيل القضاء عليها. الشى المفيد الوحيد الممكن عمله فى حال وجودها هو الاعتراف بها والتفكير فى طرق للتخفيف من هيمنتها، بشكل عام وبإخلاص، وهذه عملية تتضمن استكشافنا لتورطنا فيها كأفراد ومستهلكين.

بمعنى آخر، لا تقل لي أنك تحبني، وتتخيل في سرّك ثقافتي - التي هي ما أكونه أنا - على أنها عنيفة بشكل وحشي أو فطريًا. أعطني لحظات قليلة وسأخبرك ببعض ما تتضمنه تلك الثقافة. إذا أردت الاستماع، فإنني سعيد بأن أتحدث. لن تضطر لأن توافقني أو حتى تصدقني. إنني أطلب فقط ألاّ تُبْطِلني، بطريقة ارتجالية، بالثقة المعرفية المفرطة. أنا سعيد، في المقابل، أقدم لك المجاملة ذاتها. نحن لسنا بحاجة إلى أن نهذّب تفاعلنا بالترشيح أو التقطير. يمكننا أن نتحدث بدلاً من ذلك مستخدمين لغة بدائية، خالية من الافتراضات الحتمية، وقاموسها غير منقّى.

لقد حاولنا في السابق ان نكون مهذبين في الحديث. لم يفد ذلك بشيء، لأنه أتى بالإيثار الليبرالي. المستفيدون من هذا الإيثار، تم إسكاتهم، على الرغم من حقيقية أنهم كانوا يتكلمون. لقد استبدت هذه الأحاديث المهذبة بالعالم، مقسّمة الناس إلى فئات فكرية، واضعة الحدود على أساس الماهيات الحضارية، ومرتبة حسب الأهمية الحقوق في التعبير. وسائل تبادل الأراء والمعلومات حُدّدت من قِبل نماذج الحقيقة على أنها إسقاطات أنانية. لقد فاز الليبراليون البيض بسبق الحديث مباشرة بصنعهم لمصطلحاته، ثم باختراعهم خرافات الأهلية والموضوعية.

أن تكون موضوعيًا هو قمّة الثقافة الحقيقية. ولكن خدعة الموضوعية سيتم اكتشافها بأسرع ما يمكن، لأنه، من الأماكن المظلمة الكامنة حول الوعي الغيريّ، يبزغ أبناء الضوء الذين لم يسمع بهم أحد. واصلين أذرعتهم ببعضهم البعض. إنهم يكتبون رسالة إلى الناس المثقفين.

المؤلف فى سطور:

ستيفن سالايتا

- ولد سنة ١٩٧٥ فى بلوفيلد بولاية فرجينيا الأمريكية
- أستاذ مساعد فى اللغة الإنجليزية بجامعة فرجينيا تك
- متخصص فى الكتابة عن العـرب الأمـريكيين، والسـكان الأصـليين، والعرقيات، بالإضافة إلى الأدب.

من كتبه:

- العنصرية ضد العرب فى الولايات المتحدة
- الأرض المقدسة فى انتقال
- قصص أدبية عربية أمريكية
- الخطاب الإنترنتى للمجموعات العربية
- الحروب الهمجية

المترجم فى سطور:

يوسف عبد العزيز

- من مواليد قنا ١٩٦٩
- ليسانس فى الأدب الإنجليزى، جامعة أسيوط ١٩٩١
- مقدم برامج بإذاعة جنوب الصعيد
- شاعر ومترجم
- عضو اتحاد كتاب مصر

صدر له:

- للصمت والرماد، مجموعة شعرية، ٢٠٠٤
- اتحاد العمال يدفن رجله المتوفى، قصص مترجمة، من تأليف هنرى لوسون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، آفاق عالمية، ٢٠٠٦
- وردة حمراء.. وردة بيضاء، شعر مترجم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، آفاق عالمية، ٢٠٠٩

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حسن كامـــــــل